

جامعة الجزائر

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان العثماني

من القرن الثالث إلى الخامس هجري
(9م - 11م)

بحث لنيل شهادة ماجستير
في تاريخ المغرب الإسلامي

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور : ابراهيم فخار

إعداد الطالبة

جميلة بن موسى

2000 / 2001

2033

إهداء

إلى والدي العزيزين، أطال الله عمرهما.

إلى زوجي المحترم الذي تحمل الكثير في إنجاز هذا العمل.

إلى أبنائي الأعزاء، عبد العال، نسيمة و محمد الصادق الأمين، الذين تقبلوا بكل تفهم انشغالي عنهم طيلة الفترة التي استغرقتها الدراسة.

إلى اخوتي و أخواتي، إلى خديجة و إلى كل من قدم لي يد العون و ساهم من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث.

شكر و عرفان

أتقدم بخالص الشكر و الامتنان لأستاذي المشرف الدكتور إبراهيم فخار، الذي لم ييخل علي بإرشاداته و توجيهاته طيلة الفترة التي استغرقها إنجاز البحث. لقد كان بحق نعم الأستاذ و المشرف و الموجه الذي يرعى بصير و أناة طلبته و يقوم عثرهم. فمهما أظهرت من أمتان و شكر و عرفان فإنني لن أفيه حقه، فجزاه الله عني كل خير.

كما أتقدم بشكري و عرفاني إلى كل من ساهم في تسهيل المهمة علي، من أساتذة و عمال معهد التاريخ، و أخص بالذكر منهم الدكتور نصر الدين سعيدوني، الدكتورة يحاوي، و الأساتذة تلمساني، بوجلة، زهرة و نعيمة و جميع الذين لم ييخلوا علي بنصائحهم القيمة.

و لا يفوتني أن أتقدم بخالص امتناني إلى السيدة برعياد مديرة مكتبة المجلس الإسلامي الأعلى و كل الموظفين الذين وفروا لي و لإخواني الباحثين أقصى شروط الراحة والهدوء فضلا عن تفانيهم في خدمتنا و توفير كل الوسائل التي مكنتني من إنجاز هذا البحث في ظروف ملائمة.

المقدمة

أمام النقص الشامل و الفراغ الهائل الذي تعاني منه مكتباتنا الجامعية من مثل هذه الدراسات التاريخية الاقتصادية لمنطقة المغرب الإسلامي، وجدت نفسي مهتمة بموضوع الذهب الذي أثار انتباهي مرارا ليس لأنه معدن ثمين فحسب، بل لأنه مصدر مادي اقتصادي هام استطاع أن يترك بصماته في الحياة الاقتصادية للمنطقة لفترة زمنية طويلة . و لأن دراسة التاريخ الاقتصادي تدخل في مقياس الدراسات التي يلجأ إليها لمعرفة مدى ازدهار الدولة و تنوعها، كما تعتبر المجال الذي يكتشف الباحث من خلاله القوى المادية التي تمكن الدولة من ترسيخ كيانها داخليا والتصدي للقوى المعتدية خارجيا.

و من خلال الاطلاع الأولي، على المصادر و المراجع العربية و الدراسات الغربية التي تناولت الموضوع، وجدت نفسي أمام تساؤلات عدة منها : كيف يمكن لي وضع تصور شامل لهذا الموضوع ضمن دراسة تاريخية اقتصادية، خاصة و أن المصادر و المراجع التي تطرقت إليه ذكرته على شكل شذرات متناثرة في دراسة الحياة الاقتصادية للمغرب، كعامل من عوامل النمو، أو في الحياة السياسية و الاجتماعية كسبب من أسباب التزاع بين الدول و كمصدر من مصادر الرزق و الكسب و الاكتناز.

كما كانت المهمة علي أصعب عندما حاولت تحديد الفترة الزمنية لهذه الدراسة. لكن أهمية الموضوع و اهتمامي به دفعني إلى التكيف مع كل مراحل الدراسة، التي فتحت لي الباب على إشكاليات عديدة و تساؤلات كثيرة قادتني إلى أن أواجه أكثر فترات المغرب الإسلامي ازدهارا وتفوقا، و أكبر إمبراطورياته التي عرفت كيف تستغل هذا المعدن لصالحها و لصالح العالم الإسلامي، بعدما كان لقبائلها المثلثة الفضل في نشر لواء الإسلام في إفريقيا الغربية وبالتحديد السودان الغربي. هذه الإمبراطورية التي طبعت العلاقات بين الشمال و الجنوب بطابع اقتصادي لم يسبق لها مثل من قبل ، أي على أسس تجارية و مصالح متبادلة: كان معدن الذهب محركها الأساسي.

كما ساقطني الدراسة إلى فتح نافذة على موضوع لا يقل أهمية عن الموضوع السالف الذكر، ألا وهو العنصر اليهودي و الدور الذي لعبه في الحياة الاقتصادية للمغرب عامة و دورهم في تجارة الذهب خاصة. و إذا حاولت توضيح أسباب اختياري للموضوع المعنون كالآتي : "تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي بين القرنين الثالث و الخامس الهجري الموافق للقرنين التاسع و الحادي عشر الميلادي"، أجدها ملخصة في الأسئلة التالية :

- لماذا اعتبر معدن الذهب مميزا عن غيره من المعادن ؟
- لماذا اهتمت به كافة الحكومات و الأمم ؟
- ما هو الدور الذي لعبه الذهب في الحياة الاقتصادية للمغرب ؟
- ما هي أهم العوامل التي ساهمت في إنجاح هذه التجارة ؟
- كيف كان يتم اجتياز مفاوز الصحراء و تحدي مخاطرها ؟
- لماذا نجح الجمل كوسيلة نقل لاجتياز الصحراء ؟
- لماذا ذهب السودان الغربي بالتحديد و ما علاقته بعبارة التبر ؟
- لماذا أدرج موضوع اليهود في هذه الدراسة، و ما هي الأسباب التي جعلت من اليهود عاملا نشيطا في تحريك هذه التجارة و ما هو مدى سيطرتهم و استغلالهم للمعدن الثمين و تجارته.

ومازالت هذه التساؤلات تشكل موضوع بحث لدراسات أكاديمية في المستوى العلمي الذي تستحقه، خاصة تلك التي أصبح علم الآثار يلعب فيها دورا حاسما في إبراز أهمية دراستها بالنسبة لتاريخ المنطقة. و لتحديد ذلك ارتأيت إلى إدراج ذلك على شكل عنوان تضمن تحليلا لمحتوى فصول الرسالة.

تقديم الفصول:

بعد تحديد نقاط الفصول المدروسة في هذه الرسالة عني أن أحاول تقديم و لو بإيجاز، المضمون الذي يشكل كل فصل، مع محاولة الإجابة على بعض التساؤلات و ترك البعض الآخر على شكل آفاق للبحث، عسى أن تلقى من المهتمين بهذا الموضوع عناية علمية تثري الدراسات في هذا المجال.

الفصل الأول :

بالنسبة للفصل الأول حاولت من خلال النقاط المذكورة فيه أن اطرح جملة من القضايا و التي تتمثل في إعادة الاعتبار إلى الدراسات الطبيعية و البشرية لمنطقتي المغرب الإسلامي و السودان الغربي. خاصة عندما يتعلق الأمر، بتلك المظاهر التي ميزتها في فترة العصور الوسطى والتي سمحت لها أن تعرف تركيزا بشريا صعب على الدراسات الحديثة تصديقها، في منطقة كالصحراء الكبرى التي مازالت تسيل الخير الكثير، وهذا انطلاقا مما تعرفه هذه الصحراء اليوم من قسوة الطبيعة التي حالت دون السماح لمثل تلك التجمعات البشرية أن تعيش نفس الازدهار في نفس المنطقة و في نفس الظروف الطبيعية. هذا السؤال يقودني إلى إجابتين محددتين :

- الأولى، هي أن الصحراء التي ميزت منطقة المغرب الإسلامي في العصور الوسطى تختلف تماما عن صحراء اليوم.
- الثانية، هي أن التبادل التجاري الذي عرفته الصحراء الكبرى بقوافلها و تجارها وعدد جمالها، فسر أهمية البضاعة التي اجتازت الصحراء الكبرى و التي تمثلت في معدن الذهب.

ومن جهة أخرى حاولت طرح قضية الفتوحات الإسلامية، جنوب الصحراء الكبرى باتجاه السودان الغربي، و التي من خلالها يمكن لي اكتشاف الأهداف البعيدة التي كانت ضمن مشاريع هذه الدولة و قادتها الذين استخدموا راية الإسلام لتحقيق أغراض دينية و اقتصادية في آن واحد. و ما توصلت إليه، هو أنني لا استبعد فكرة أن القادة الفاتحين كانوا على دراية بوجود الذهب في المنطقة، فكانت بذلك محاولاتهم الأولى لفتح المنطقة ثم الاستقرار بها.

و من القضايا الأخرى التي تثير الانتباه في هذا الفصل قضية الصحراء، و أي صحراء أشير إليها في هذا الموضوع ؟ بالطبع إنها الصحراء الكبرى، التي أصبح العديد من الدارسين في الموضوع يحاولون جعل الرحلة فيها نوعا من المغامرة و المجازفة لكثرة مخاطرها، سواء منها الطبيعية (الجفاف، الحرارة الشديدة، الزوابع الرملية..) أو البشرية (قطاع الطرق..). لقد طرحت عدة تساؤلات في الدراسات الغربية التي رأت في ذلك استحالة تقبل الفكرة، أي الرحلة التي كانت تنظم في هذه الفترة، لاجتياز الصحراء بالشكل الذي وصفته العديد من الروايات المعاصرة للفترة. خاصة عندما يتعلق الأمر بعدد التجار و الجمال الذين شكلوا القافلة التي عبرت الصحراء باتجاه السودان الغربي.

في نفس الإشكالية حاولت إدراج العنصر الأساسي للرحلة عبر الصحراء و محركها الوحيد، الذي تمثل في الجمل، "سفينة الصحراء". هذه الوسيلة التي أعتمد عليها كثيرا في إنجاح المهمة التاريخية التي ميزت أحداث المنطقتين، أي ربط العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي. هذا الحيوان الذي كان و مازال محل اهتمام العديد من الدراسات حينما يتعلق الأمر بموضوع الصحراء و التجارة العابرة لها، أو القافلة وتنظيمها. و السؤال المطروح لماذا الجمل بالتحديد و ليس غيره ؟ لقد لاحظت أن الدراسات الحديثة كانت دائما تحاول إيجاد جواب لموضوع القدرات التي ميزت الجمل و سمحت له أن يعبر الصحراء، بتخطي مصاعبها والتأقلم مع بيئتها، حتى أصبح فعلا القوة التي دعمت نجاح رحلة القافلة في مهامها التجارية، وبقاء الإنسان على قيد الحياة، بتخزين كميات معتبرة من الماء في كرشها.

أما بالنسبة للإشكالية الثالثة التي تضمنها الفصل الأول تتعلق بالأنظمة التي سادت منطقتي المغرب الإسلامي و السودان الغربي في نفس الفترة الزمنية المحددة للدراسة، و التي كان لها الحظ في استغلال ظروف الفترة و أحداثها للبروز على الساحة السياسية و الاقتصادية و استخدام ذلك لصالحها و لصالح سيادتها في المنطقة.

و الكلام عن إمبراطورية المرابطين و تجارة ذهب السودان العربي، لن يزيد الموضوع إلا ثراء، بسبب ما لدورها السياسي من أثر كبير على المنطقة. و في هذا الإطار حاولت إبراز الدور الذي لعبته في المجال الاقتصادي و علاقتها بمعدن الذهب خاصة إذا تعلق الأمر بسك عملة ذهبية، حققت سمعة داخلية و خارجية. هذا الموضوع الذي أشير إليه كثيرا في دراسة المسكوكات الإسلامية، و التي لاحظت أنها ما زالت تلعب دورا هاما في دراسة أغراض الدولة و أهدافها الأيديولوجية، كما أصبحت مصدرا من مصادر دراسة تاريخ الأمم و الشعوب.

أما عن الإمبراطورية الثانية التي أشير إليها في هذا الفصل، فهي غانة، التي ركزت عليها كثيرا في هذه الدراسة، ليس من باب إهمال الممالك الأخرى التي عرفها السودان الغربي في هذه الفترة، لكن لعدة أسباب.

- أولا : دور هذه الإمبراطورية في تجارة الذهب و قربها من المناطق المنتجة له، و كونها أقوى إمبراطورية في السودان الغربي في الفترة الممتدة بين القرنين التاسع والحادي عشر، و التي كثيرا ما حالت دون توسع الفتوحات الإسلامية صوب الجنوب.

- ثانيا : اعتناق هذه الإمبراطورية للإسلام في نفس الفترة وتسخير كافة إمكانياتها البشرية والمادية لنشر الإسلام و استقرار المسلمين بها ثم استغلال ثرواتها لصالح الإسلام والمسلمين.

- ثالثا : اعتبار إمبراطورية غانة أكبر ممالك ومستغل لمعدن الذهب، تكفي الإشارة إلى العبارة التي ردها كل الدارسين و الباحثين في الموضوع أن غانة تعني (أرض الذهب).

الفصل الثاني :

لا يمكن لأي باحث أو دارس أن يباشر أبحاثه دون أن يحدد لها أهدافا معينة تزيل الغموض على عدة نقاط قللت من شأن الموضوع أو زادت من قيمته. و هكذا كان الأمر بالنسبة لموضوع الذهب الذي تعددت اهتماماته و تفرعت اختصاصاته فحاولت من خلال هذا الفصل أن أقدم و لو بشكل محدد الأهمية الاقتصادية لهذا المعدن الثمين، الذي أصبح مصدر الثروة و القوة و محل اهتمام العديد من الأنظمة السياسية في مشارق الأرض و مناربها، كما حاولت أيضا أن أحدد المجالات التي اقتحمها هذا المعدن مسجلا في ذلك التفوق الأكبر للمالكيه.

هذا يقودني إلى تحديد الأهمية الاقتصادية و الاجتماعية و خاصة منها التجارية التي اكتسبها هذا المعدن السوداني خلال القرنين التاسع و الحادي عشر. و لتأكيد ذلك، وجبت علي العودة إلى المواطن الأصلية لهذا المعدن في إفريقيا الغربية و بالتحديد السودان الغربي و الطرق التي كان يستخرج بها. و تزداد أهمية هذا المعدن عندما يحدد دوره في تجارة المغرب الإسلامي و بروز القوة الاقتصادية لكل الدول التي أشرفت على تجارته. و لن يكون هذا التصور كاملا دون العودة إلى التعريف بهذا المعدن و إعطاء لمحة تاريخية وجيزة عن اهتمام المجتمع بهذا المعدن الجميل منذ أكثر من ستة آلاف سنة، حيث أعتبر معدن ثمين من خلال ندرته و طرق استغلاله و من خلال مجالات استخدامه التي برهن من خلالها العلماء المختصين و المهتمين بالذهب انه من بين احسن المعادن التي عرفها الإنسان منذ اكتشافه إلى حد اليوم . لا يمكن دراسة معدن الذهب السوداني دون التطرق إلى التأثيرات التي أحدثتها تجارته في المجال المالي عندما شكل عملة ذهبية (الدينار المرباطي). تكفي الإشارة إلى هذه النقطة لتوضيح أهم الأسباب التي دفعت بدول المغرب أن تتصارع فيما بينها من اجل الاستحواذ على المسالك المشرفة على تجارته أو المراكز التي ضرب فيها عملته من خلال هذا التحليل و الإشكاليات التي تضمنها البحث علي أن أفتح مجالا للتساؤل حول آفاق دراسة موضوع عملة المرباطين و الدور الاقتصادي و السياسي الذي لعبته في المغرب وخارجه. كما يعتبر هذا الموضوع من أهم المواضيع التي يمكن من خلالها إبراز التطورات التي عاشتها المنطقة خلال فترة ما بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديين.

الفصل الثالث :

يعتبر هذا الفصل أهم الفصول التي تضمنها البحث، بسبب إشارته إلى النشاط التجاري الذي ربط الشمال بالجنوب، و الذي اعتمد على معدن الذهب كبضاعة أساسية، عبثت من أجلها الجمال و نظمت من أجلها القوافل، و انتقل التجار من المشرق إلى المغرب و أصبح الكوفي سجلماسي و السجلماسي غاني.

ليس من السهل تقبل فكرة تنظيم مثل هذه التجارة من أجل استيراد معدن الذهب كبضاعة يشتريها كل من سمحت له الظروف المادية ذلك، انطلاقا من القيمة المادية الثمينة التي يتمتع بها الذهب في وقتنا الحالي. لكن توفر معدن الذهب في مناجم إفريقيا الغربية عامة والسودان الغربي خاصة، جعلت منه بضاعة تنقل على ظهر الجمال كبقية البضائع الأخرى التي جلبها المغرب من السودان، أو جلبها السودان من المغرب. و الكلام عن كسبة الذهب التي جلبها التجار المغاربة من السودان، تكفي للدلالة على توفر هذا المعدن، و بالتالي تقبل فكرة وجود ما كان يسمى بتجارة الذهب التي بفضلها، دعمت أواصر الاخوة بين سكان المغرب و السودان الغربي، و التي كان الفتح الإسلامي أول من وضع لبنتها الأساسية.

و قد مكنت تجارة معدن الذهب توسيع النشاط التجاري بين المغرب و السودان الغربي فحققت ما لم تستطع القوى الاستعمارية تحقيقه، وهو تعمير الصحراء واجتياز مفازاتها بكل مهارة و حكمة. و يظهر ذلك من خلال الإنجازات العمرانية التي عرفتها الصحراء طيلة فترة ازدهار تجارة الذهب بين المغرب و السودان الغربي. لتكن ظاهرة اختفاء المدن و ظهور الأخرى أو حفر الآبار وتغيير الطريق من الشرق إلى الغرب دليلا على إرادة الإنسان المغربي الذي أعطى لحياته طابعا جديدا، في ظروف جديدة، سمحت له أن يلعب دورا بارزا في رسم أحداث تاريخ المنطقة خلال فترة العصور الوسطى.

الفصل الرابع :

يشكل محتوى الفصل الرابع إحدى أهم الدراسات التي ما زال المغرب الإسلامي يفتقر إليها، بسبب نقص المصادر و نقص المهتمين بها. لقد لاحظت من خلال الموضوعية التاريخية التي انطلقت بها لإنجاز بحثي، إدراج موضوع اليهود ضمن فصول هذه لدراسة بسبب ما لهذه العناصر من دور في هذه التجارة أولا، و بسبب الأهمية التي أولتها نفس هذه العناصر لمعدن الذهب عبر التاريخ، من أجل الاستحواذ عليه و احتكاره. ودفعني دراسة هذه الفكرة إلى التطرق إلى بدايات الوجود اليهودي في المغرب الإسلامي، بشكل مختصر جذا و الدور الذي لعبوه في الحياة الاقتصادية للمنطقة، و إلى أي مدى سهل اهتمامهم بتجارة الصحراء، عملية استغلال ذهب السودان الغربي. و يبقى هذا الفصل مجالا دراسيا واسعا يتطلب الاهتمام و العناية العلمية التي يستحقها، لتوضيح الدور الحقيقي الذي لعبته هذه العناصر في تاريخ المنطقة بإيجابياته وسلبياته.

أسباب اختيار الفترة ما بين القرنين الثالث و الخامس الهجري الموافق للقرنين التاسع و الحادي عشر الميلادي.

لقد نجحت الفتوحات الإسلامية في تأسيس إمبراطورية سياسية مترامية الأطراف، امتدت من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي. وأهم ما ميز انتصارها السياسي ذلك، هو التفوق الاقتصادي الذي كانت له انعكاسات في مختلف مجالات الحياة. و أول مظاهر هذا التفوق، استحواذ هذه الإمبراطورية الإسلامية في مختلف الأمصار التي فتحتها على معدن الذهب، الذي سمح لها أن تضرب عملة ذات قيمة كاد أن يعترف بها عالميا و بصفة شاملة.

إذا كان الموضوع المحدد لإنجاز هذا البحث متعلقا بمعدن الذهب في السودان الغربي وتأثيراته على تجارة المغرب الإسلامي خاصة، ثم العالم الإسلامي عامة فيما بعد، فهذا يعني أن هناك علاقة بين هذا التفوق الذي حققه العالم الإسلامي و المعدن الذي كان يستورد من السودان الغربي.

و إذا حاولت التفسير أكثر، فأقول أن الصبغة العالمية التي كاد أن يحققها الدينار الإسلامي يعود الفضل فيها إلى الذهب السوداني الذي كان يعبر الصحراء الكبرى باتجاه الشمال والشرق. و بالتالي تكون فترة القرنين التاسع والحادي عشر للميلاد الموافق للثالث والخامس الهجري، فترة مميزة بالنسبة للعالم الإسلامي، و التفوق الذي حققه في المجال الاقتصادي كما تكون مميزة بالنسبة لمعدن ذهب السودان الغربي الذي برز هو الآخر كعامل من عوامل التطور والتفوق والازدهار.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن تحديد هذه الفترة لمنطقتي المغرب الإسلامي والسودان الغربي، كانت مميزة بالنسبة للمغرب الإسلامي، خاصة في الاستقرار والأمن و التطور الذي حققته إمبراطورية المرابطين، وفي طمأنينة القوافل التجارية و التجار الذين كثيرا ما عانوا من عدم الاستقرار قبل تأسيس هذه الإمبراطورية. و أذكر على سبيل المثال لا الحصر، القبائل المتنقلة التي اعتادت أن تعيش على مدخول كان مصدره الغنائم التي تجلبها من عمليات قطع الطريق على القوافل التجارية العابرة للصحراء. إضافة إلى الفوضى التي عمت المنطقة بعد توسع قبائل بني هلال في أوساط المنطقة و زرع الهلع و الخوف في أوساط السكان المستقرين وغيرهم.

كما أنه لا يمكن تجاهل التوسع الذي شهدته تجارة الذهب بعد اهتمام كل الدويلات المستقلة التي ظهرت في المغرب الإسلامي بها ومدى استفادة هذه الأخيرة من المعدن الأصفر في مختلف المجالات، كل حسب قوتها و الوجود الذي فرضته في المنطقة، ويبدو هذا جليا في الاستفادة المختلفة لكل من الأغلبية والفاطميين أو المرابطين و الأدارسة.

أما بالنسبة لمنطقة إفريقيا و بالتحديد موضوع هذه الدراسة، أي السودان الغربي، فكانت فترة القرن الثامن و التاسع الميلادي الموافق للثاني والثالث الهجري، من الفترات التي نجحت فيها الفتوحات الإسلامية في تحقيق أغراض دينية أي نشر الإسلام في أوساط الوثنيين، رغم أن الفاتحين كانت لهم محاولات قبل ذلك، إلا أن التوسع الحقيقي تمثل في دخول العديد من الممالك و أهمها مملكة غانة في الإسلام. هذا من جهة، ومن جهة أخرى توافد التجار و الاتصالات المكثفة التي سجلت بين الشمال والجنوب في هذه الفترة.

لكن بعد الغوص في الموضوع لاحظت أن دراسة ثلاثة قرون، تعتبر فترة طويلة لمثل هذه الأبحاث و بالحجم الذي تتطلبه الدراسة الأكاديمية لكن ما دامت الدراسة عبارة عن جمع شمل موضوع يستحق الاهتمام والدقة في البحث، اقتنعت بالفكرة و باشرت في عملي عساي أن أكون قد وفققت فيه لخدمة البحث العلمي الذي تصبو إليه جامعتنا.

إشكالية الموضوع :

لم يكن سهلا علي تحديد إشكالية بحثي بسبب تعدد المواضيع المرتبطة به والتي يشكل كل واحد منها دراسة في حد ذاته. و لكنني حاولت من خلال ما قرأته حول الموضوع و الفترة المحددة له أن أطرح الإشكالية كما يلي :

هل وجد فعلا ما كان يسمى بتجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي ما بين القرنين الثالث و الخامس الهجري الموافق للتاسع والحادي عشر الميلاديين ؟ أم أن التبادل الذي ميز العلاقات بين المغرب الإسلامي و السودان العربي في هذه الفترة كان ذا طابع عام، و ما شأن الذهب إلا شأن البضاعة العادية كان الأفارقة يقايضون بها. وتجارة الذهب هذه لم تظهر إلا بعد أن اكتشف البرتغاليون ساحل غينيا خلال القرن الخامس عشر. أي بعد أن تطورت تقنيات البحث عن هذا المعدن و طرق استغلاله أكثر مما كانت عليه سابقا، و بعد أن أصبح لمعدن الذهب شأن اقتصادي مميز في حوض البحر الأبيض المتوسط.

و طبيعة الإشكالية هذه، تطلبت مني البحث عن كل الشروط التي أدت إلى ازدهار هذه التجارة داخل المحيط الذي ظهرت فيه و خارجه، ومدى نجاحها في تحقيق ازدهار اقتصادي لإقليمي المغرب و السودان الغربي.

تقييم المصادر و المراجع :

منذ بداية البحث، وجدت نفسي مضطرة إلى مراجعة المصادر التاريخية و الفقهية خاصة منها الجغرافية التي وجدت فيها المادة الأولية اللازمة للقيام ببحتي، و هذا رغم افتقارها لدراسات اقتصادية دقيقة تسهل عملية البحث و تثمنها. وأثناء البحث، لاحظت أن مكتباتنا الجامعية تفتقر بشكل كبير، لمثل هذه المصادر التاريخية القيمة و التي تعتبر المرجع الوحيد لإنجاز مثل هذه الدراسات. وأهمية هذه المصادر تبدو واضحة بالنسبة للموضوع، من خلال اعتماد كل الدراسات الحديثة و الغربية عليها، باعتبارها القاعدة العلمية الأولية التي يجب الانطلاق منها قبل الإطلاع على الدراسات الأخرى، خاصة عندما يتعلق الأمر بدراسة فترة العصور الوسطى. هذا ما اكتشفته من خلال البحث في موضوع الذهب، الذي عادت فيه الدراسات الغربية إلى تلك الروايات، التي ذكرت تقريبا من طرف جل الرحالة العرب و غير العرب، و مما زاد من تمسكي بها و الاعتماد عليها، و لو أنها في بعض الأحيان تحتاج إلى الدقة العلمية فأنها تبقى مصدرا لا يستهان به في لمثل هذه الدراسات.

و أريد أن ألفت هنا انتباه الدارسين و الباحثين في هذا المجال إلى إعادة الاعتبار إلى مثل هذه المصادر، ليس من باب الاعتماد عليها، للحصول على المادة التاريخية فقط، بل لجعلها هي بنفسها مجالا للدراسة. ولقد توسعت نظرتي العلمية في هذا المجال بعد أن استمعت إلى أراء العديد من الأساتذة الغربيين المختصين في هذه الدراسات. و من أهم هذه المصادر التي اعتبرتها المرجع الأول لموضع ذهب السودان الغربي، كتاب أبو عبيد عبد الله البكري (ت. حوالي 487 هـ/ 1095 م) "المسالك و الممالك"، هذا الكتاب الذي تم تأليفه سنة 460 هـ/ 1068 م، استطعت أن استفيد من قسمه الثاني الذي تطرق فيه إلى ذكر بلاد المغرب و أقاليم الصحراء و مملكة غانة.

حيث يعتبر هذا القسم الذي ترجمه دي سلان و الذي يحمل عنوان "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، من أهم المصادر التي تناولت موضوع المدن الصحراوية ووصف مدينة غانة و ملوكها وعادات وتقاليدها، بالإضافة إلى أهم مسالك بلاد السودان الغربي و وصف ملك غانة ومعدن الذهب.

هذه الرواية التي اعتمد عليها العديد من الدارسين الغربيين، خاصة فيما يتعلق "باحتمار ملك غانة لتيرات الذهب و ترك الرمل الذهبي للسكان". كما ازدادت أهمية هذا المصدر بسبب تزامن أحداثه مع الفترة الزمنية التي حددت لدراسة هذه الرسالة و هي فترة القرن الحادي عشر.

أما المصدر الثاني الذي لا يقل أهمية عن المصدر الأول : كتاب أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحمودي الحسيني المكنى بالصقلي المعروف بالشريف الإدريسي المولود عام 493 هـ/1100 م و المتوفى بصقلية عام 558-560 هـ/1163-1166م، تحت عنوان " نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، و الذي يعتبر كتابا جغرافيا جامعا و من أمهات الموسوعات الجغرافية الوصفية في العصور الوسطى. اعتمدت على جزئه الأول الذي تناول وصف مدن المغرب و السودان، و ذكر القافلة و طريقة تنظيمها، ورحلتها عبر الصحراء. إضافة إلى روايته التي تناول فيها "الجزيرة" التي يستخرج منها ذهب السودان. لقد عرفت هذه الرواية عدة انتقادات من طرف الدراسات الغربية، التي اهتمت بموضوع الذهب لأن الواقع الذي تعيشه هذه المنطقة اليوم لا يشير إلى وجود ما يعرف بالجزيرة. هذا معناه أن الإدريسي شبه المنطقة الواقعة بين روافد نهر السنغال و النيجر بالجزيرة، بسبب إحاطتها بالمياه. و لا أدري إن كان الإدريسي يدرك ذلك أم لا ؟

و لم يقتصر اعتمادي على هذه المصادر فقط، بل هناك من المصادر ما يستحق الذكر، و التي شكلت لي قاموسا أو معجما لبلدان المغرب و السودان. و من أمثلة ذلك كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل، "البلدان" لليعقوبي، "معجم البلدان" لياقوت الحموي، إضافة إلى كتاب "الجغرافيا" لابن سعيد المغربي. فإذا كانت الكتب الجغرافية المصدر الأساسي لهذا البحث فهذا لا يعني عدم اعتمادي على الكتب التاريخية التي دفعتني ضرورة البحث إلى العودة إليها و من أمثلتها، "البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب" لصاحبه أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي (ت: 706هـ/1307م) و الذي يعتبر من أهم المصادر التاريخية التي يجب العودة إليها عند كتابة تاريخ المغرب، على الخصوص، و الطبعة المعتمد عليها في هذه الرسالة من تحقيق إحسان عباس (ط: 1998م) و التي قسمت إلى أربعة أجزاء. و الكتاب التاريخي الثاني فهو لابن أبي زرع الفاسي، تحت عنوان "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فأس". و الذي أفادني كثيرا في موضوع يهود مدينة فاس. كما اعتمدت على كتاب القيرواني "المؤنس في أخبار إفريقية و تونس" في معرفة أحداث الدولة العبيدية على الخصوص. و تبقى هذه الكتب التاريخية من أهم الكتب التي كانت و ما زالت تشكل المصدر الحقيقي لتاريخ منطقة المغرب و التي تفتقر إليها مكتبتنا.

المراجع العربية :

يصعب علي تقييم المراجع العربية التي اعتمدت عليها بسبب تعددها و أهمية المواضيع التي عالجتها، لكن رغم ذلك حاولت ذكر البعض منها، دون التقليل من أهمية المراجع الأخرى التي لم أدرجها ضمن القائمة المشار إليها في هذا التقييم. و مما يستحق الذكر في هذا المجال كتاب سعد زغلول عبد الحميد "تاريخ المغرب العربي" بأجزائه الأربعة، و الذي لاحظت فيه دراسة، يمكن الاعتماد عليها عندما يتعلق الأمر بتاريخ المغرب الإسلامي، بسبب القيمة العلمية التي يتمتع بها و الدراسة الدقيقة التي اعتمدها في تحاليله. و المرجع الثاني فهو للدكتور عبد العزيز سالم تحت

عنوان "المغرب الكبير"، الجزء الأول، ط. 1981، و الذي تناول مختلف الأنظمة التي عرفها المغرب الإسلامي خلال فترة العصور الوسطى و المآثر التي خلفتها في مختلف المجالات. أما في المجال الاقتصادي اخترت كتاب عز الدين احمد موسى، "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري"، رغم ابتعاد فترة هذا الكتاب عن الفترة التي حددتها لدراسة موضوع تجارة الذهب بقليل، وجدت نفسي معتمدة عليه بسبب غزارة المعلومات التي تضمنها. أما الكتاب الثاني فهو لحركات إبراهيم تحت عنوان "النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط".

المراجع الأجنبية :

حاولت تقسيم المراجع الأجنبية إلى قسمين :

القسم الأول : تناولت فيه المراجع التي ترجمت إلى اللغة العربية. و مما يستحق الذكر في هذا المجال، كتاب "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير" بتلم بوفيل BOVIL ترجمة الهادي أبو لقمة و محمد عزيز. يعتبر هذا الكتاب الذي قدم في حوالي 383 ص من أهم الكتب التي عالجت موضوع تجارة الذهب بشكل مباشر. و تضمن ستة أبواب كانت أربع منها مرجعا أوليا بالنسبة للبحث، خاصة تلك التي أشارت إلى موضوع الذهب و تجارته، و باب السودان والصحراء و غانة. و أصل الكتاب باللغة الإنجليزية تحت عنوان :

— « The golden trade of the moors » و الكتاب الثاني هو لموريس لومبارد

LOMBARD Maurice تحت عنوان الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي"، ترجمة عبد الرحمن حميدة، ط، 1989م. و في ترجمة أخرى "الإسلام في مجده الأول"، تناول المؤلف في هذا الكتاب موضوع الذهب في العالم الإسلامي والمسيحي معا و كانت إشكاليته تتمثل في البحث عن الأسباب التي دفعت بالعالم المسيحي الغربي إلى أن يفقد معدن الذهب لصالح الشرق. و ما علاقة ذلك باستحواذ العالم الإسلامي على ذهب السودان الغربي.

وأصل الكتاب باللغة الفرنسية. LOMBARD M. : « L'Islam dans sa première grandeur ». كما طرح هذا الموضوع في العديد من المقالات، في حوليات الدراسات التاريخية والاقتصادية.

أما العمل الثالث المترجم فهو لتوفيق اسكندر تحت عنوان "بحوث في التاريخ الاقتصادي" وهو عمل نشر لعدة شخصيات قدمت الكثير لإنجاز الحوليات السالفة الذكر. ومن أهم البحوث التي نشرت فيه :

- البحث الأول : لمارك بلوك، تحت عنوان " مشكلة الذهب في العصر الوسيط ".

- البحث الثاني : لموريس لومبارد، " الذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر " .

- أما البحث الثالث : فهو لفرنان برودل، تحت عنوان : " من ذهب السودان إلى فضة أمريكا ".

و القسم الثاني، يتعلق بما صدر باللغة الأجنبية : و أهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا القسم إنجازات دوفيس، التي تعتبر أهم و آخر ما أنجز في هذا الموضوع كونه من المهتمين بالدراسات الإفريقية في المجال التاريخي و الاقتصادي و الأثري، و أهم هذه الاعمال :

" L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest " و " Le Bassin des vallées du Niger " و من الكتب المهمة التي عالجت الموضوع من جانب جيولوجي أشير الى كتاب: " L'Or de la Volta Noire " استطاع هذا الكتاب أن يقدم لي لمحة عن المناطق التي ينتشر فيها الذهب الإفريقي بشكل عام وفولتا العليا بشكل خاص، إضافة إلى الخواص الجيولوجية التي تميز إفريقيا الغربية عن بقية المناطق

الأخرى من العالم . و ازدادت أهمية هذا الكتاب عندما أشار إلى تعامل الأفارقة بمعدن الذهب والكميات التي كانوا يستخرجونها، حسب بعض الدراسات الاستعمارية الحديثة، إضافة إلى بعض الطرق التي كان الإفريقي يلجأ إليها لاستخراج هذا المعدن من منجمه. ر كان J. KIETHEGA Baptiste، صاحب هذا الكتاب من الأفارقة الذين ساهموا بأبحاثهم الأثرية في كتابة تاريخ معدن الذهب في إفريقيا الغربية. و الكتاب الأخير الذي يمكن أن أضيفه إلى قائمة المراجع المذكورة سالفا فهو لـ:

MEYER L. « les métaux précieux dans l'art de L'Afrique Noire » .

و يعتبر من أهم الكتب أيضا التي أشارت إلى أهمية معدن الذهب في المجتمع الإفريقي قديما وحديثا.

الرسائل الجامعية :

فيما يخص الرسائل الجامعية التي اعتمدت عليها، يجب أن أشير إلى أن الرحلة العلمية التي قمت بها إلى باريس ساعدتني في الاطلاع على جزء بسيط منها. ومن أهم رسالة الدكتور لـ MESMOUDI Benhsain تحت عنوان " Approche quantitative de l'or monnayé en Occident musulman (450- 830 h/1058-59 1426-1427) Tome.1 والتي أُنجزت سنة 1994 تحت إشراف DEVISSE Jean، ومما زاد من أهمية هذه الرسالة كون المشرف كما سبق ذكره من المهتمين بهذه الدراسات حيث كانت له اهتمامات أثرية اقتصادية وتاريخية في المنطقة. وكان اعتمادي عليها كبيرا بسبب محتواها الذي أشار، إلى أهمية ذهب السودان الغربي و محاولة تقدير كمية هذا المعدن التي اجتازت الصحراء من خلال دراسة عينة من العملات التي ضربت في مختلف مراكز ضرب العملة المغربية، والتي بلغ عددها 20 مركزا ، خاصة في عهد المرابطين

والموحدين. أما الرسائل التي كانت لها علاقة بالموضوع و لم تسمح لي الظروف الاطلاع عليها، لعدم توفرها على مستوى المكتبة الجامعية بالسوربون، رسالة للملي سعاد، تحت عنوان " Islamisation et commerce dans le soudan occidental du 8 au 11 siècle التي نقشت عام 1990 متوفرة اليوم في مكتبة جامعة ليل الفرنسية. والرسالة الثالثة التي لم أعثر عليها، فهي لطويل حسان بعنوان : " le rôle des marchands magrebins dans le développement des villes et de la société urbaniste du soudan occidental a l'époque des grands empires ". تبقى هذه الرسائل الجامعية من أهم الدراسات الحديثة التي من الواجب العودة إليها لمعرفة آخر ما درس في الموضوع.

و الملاحظ من خلال معاينة هذه المراجع و المصادر و الرسائل الجامعية هو نقص المقالات التي اهتمت بالموضوع، و السبب لا يعود إلى إهمال أو عدم أدراجها ضمن سلسلة المقالات التي يجب العودة إليها و لكن إلى عدم تمكني من الاطلاع عليها و هي مرتبة على رفوف مكتبة مركز الدراسات الإفريقية بباريس بعد أن غلق هذا المركز أبوابه خلال تواجدي هناك.

الفصل الأول

إقليمي المغرب
و السودان الغربي

1. - التعريف البشري و الجغرافي لإقليمي المغرب و السودان

- أ. إقليم المغرب
- ب. إقليم السودان

2. - عوامل دعم الاتصال بين المغرب و السودان

- أ. الصحراء
- ب. الآبار
- ت. الجمال
- ث. التجار
- ج. القافلة

3. - الفتوحات الإسلامية

- أ. الفتح الإسلامي للمغرب
- ب. الفتح الإسلامي للسودان الغربي

4. - أهم إمبراطوريات المغرب و السودان الغربي

- أ. إمبراطورية المرابطين
- ب. إمبراطورية غانة

1. التعريف البشري و الجغرافي لإقليمي المغرب و السودان

أ. إقليم المغرب

لقد اعتمدت المصادر العربية في وصفها لإقليم المغرب على ذكر المظاهر الطبيعية التي تمتاز بها هذه المنطقة كالجبال والصحاري والبحار. و لم أجد وصفا جغرافيا دقيقا يتماشى والمقاييس العلمية التي يعتمد عليها اليوم في الدراسات الجغرافية الحديثة، إلا أنني اكتفيت بهذه المعلومات لتعريف هذا الإقليم، و ربطها بأهم الأحداث التي عاشتها مدنه في أهم فترات العصور الوسطى، خاصة الفترة التي حددتها ما بين القرن التاسع و الحادي عشر الميلادي الموافق للثالث والخامس الهجري، إلا أن ما يشد الانتباه في هذا الإقليم، تسمية "المغرب" التي أسالت حير الكثير من المعاصرين للفترة والرحالة الجغرافيين الذين استخدموها لتمييزها عن بقية المناطق التي زاروها. وأكثر ما تعنيه هذه التسمية، وبكل بساطة غروب الشمس، تمييزا عن جزئه الشرقي الذي يسمى بالشرق. هذا ما يؤكد ابن خلدون في قوله : " إن لفظ المغرب في أصل وضعه اسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة إضافة إلى جهة المشرق" (1). إلا أن الدراسات العربية كثيرا ما عودتنا على مصطلحات مختلفة تزامنت و الأحداث السياسية التي ميزت المنطقة.

فالبعض من هؤلاء الكتاب أشار إلى أن المغرب يعني كل الأقاليم الواقعة غرب مصر، والتي تتضمن حاليا ليبيا، بولاياها الثلاث (برقة - طرابلس - فزان)، و تونس و الجزائر بصحرائها التي تمتد إلى تخوم السودان، و أخيرا المغرب الذي يعرف باسم "مراكش" (2).

1. ابن خلدون (ابو زيد عبد الرحمن بن محمد) ، "كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخير في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، ط1، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1996، ص.193. أنظر أيضا : حسن (مونس حسن)، " تاريخ المغرب و حضارته"، ط1، ج1، بيروت، لبنان، العصر الحديث للنشر و التوزيع، 1992، ص.17.
2. سعد زغلول (عبد الحميد)، " تاريخ المغرب الكبير"، ج1، من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب)، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1995، ص.61.

فالزهري يلجأ إلى تقسيم المنطقة إلى ثلاثة أصقاع تشمل كلا من إفريقيا، المغرب الأقصى، و السوس الأقصى⁽¹⁾. أما التقسيم الجغرافي الآخر، أجده محددا عند الاصطخري حيث يقول "أن المغرب نصفان : فأما الشرقي فهو برقة و إفريقيا و تاهرت و طنجة و سوس وزويلة، أما الغربي فهو الأندلس"⁽²⁾. و يعتبر هذا التقسيم حسب دراسي للموضوع، الأقرب إلى الصواب لكونه تطرق إلى معظم المراكز التي ميزت المغرب الإسلامي في نثره العصور الوسطى.

ولا يعود أصل تسمية المغرب إلى فترة العصر الإسلامي فقط، بل إلى فترة الرومان أيضا، أين ذكر بأقسامه الثلاث : إفريقيا، نوميديا و موريتانيا و الذي يتماشى و التقسيم العربي في معنى : إفريقية، المغرب الأوسط و المغرب الأقصى⁽³⁾. و تبين لي من خلال دراسة الموضوع أن هذا الوصف الجغرافي لإقليم المغرب الإسلامي لم يكن الوحيد، بل هناك وصف آخر أورده المصادر العربية من خلال دراسة المدن و ذكر مواصفاتها و جمال بناياتها و رخاء أهلها، وأهمها ما ذكر على لسان البشاري : " هذا الإقليم بهي، كبير سري، كثير المدن و القرى، عجيب الخصائص و الرخاء، به ثغور جبلية و حصون كثيرة و رياض نزهة"، لينتقل إلى المدن قائلا : " و تاهرت الطيبة و سجلماسة المختارة "⁽⁴⁾. أما المفهوم الثالث للمغرب فهو فني، شامل و عام، ظهر عندما قسم هارون الرشيد دولته إداريا، بين ولديه الأمين و المأمون 182هـ/ 798 م، حيث كان للأمين الجزء الغربي (العراق و المغرب) و كان للمأمون شرقها (خرسان و ما يليها من الولايات الشرقية). ليصبح استعمال هذه الكلمة أكثر انتشارا بعد توسع الفتوحات الإسلامية وتظهر بشكل علمي دقيق بعد اكتمال علم الجغرافيا⁽⁵⁾.

1. الزهري (أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر)، " كتاب الجغرافيا"، (تحقيق محمد حاج صادق)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1990، ص 106-117.
2. الاصطخري (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي)، "المسالك و الممالك"، (تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني)، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، 1961، ص 33. أنظر كذلك : ابن حوقل (أبو القاسم محمد ابن العلي الموصلي)، "صورة الأرض"، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، بدون سنة الطبع، ص 64.
3. حسن (أحمد محمود)، " قيام دولة المرابطين"، ط.2، دار الكتاب الحديث، 1996، ص.19.
4. البشاري (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي)، "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1408 هـ/ 1987 م ص.183.
5. زغلول (سعد)، المرجع السابق، ج.1، ص.61.

هذا ما دفع الكتاب العرب إلى استخدام مثل هذه المصطلحات و التقسيمات الجغرافية التي ميزت الجزء الغربي من العالم الإسلامي في فترة العصور الوسطى. استنتجت من خلال هذه الدراسة أن الاختلاف في التصنيف و التنوع في التعريف يعود إلى تعدد القوى السياسية التي عرفها المغرب خلال فترة العصور الوسطى، و إلى صعوبة رسم الحدود السياسية لها بسبب وحدة المظاهر الطبيعية التي تمتاز بها تضاريس المغرب. إن التقسيم السياسي الذي عرفه المغرب الإسلامي خلال الفترة الإسلامية، خاصة تلك التي تمتد من القرن التاسع إلى الحادي عشر الميلادي يعتبر من أهم الصور التي تبرز الواقع الحضاري الذي عاشته المنطقة، حيث لم يكن سهلا على الباحث تقبل ما كان يتردد على ألسنة العديد من الكتاب، من أن هذه الأرض، أي المغرب، هي أرض خصبة للدعاة الخارجين عن الدولة، وأن أهاليها، أي البربر، أجفى خلق الله و أكثرهم بطشا و أسرعهم إلى الفتنة ⁽¹⁾. لأن هذا الأمر لن يفسر إلا بحب البربر للحرية و رفض الحكم الأجنبي، و يصدق قول ابن خلدون فيهم حين يقول : " تخلقهم بالفضائل الإنسانية و تنافهم في الخلال الحميدة، و ما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف و الرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار و حماية التريل و الوفاء بالقول و العهد، و رحمة المسكين و بر الكبير و توقير أهل العلم و كسب المعدوم " ⁽²⁾.

و إن كان هناك سبيل إلى البناء فالتاريخ يظهر لنا لرحمة من الفسيفساء لأنظمة الحكم التي سارت عليها كل دولة في نمط سياستها و نهجها العقائدي في بناء سيادتها، و حاولت أن تضاهي بها أعتى الدول التي كانت القدوة أو المثل في الحكم الإسلامي، و التي تمثلت في خلافة بغداد. حيث سارعت هذه الدول بعد ظهورها إلى تحدي هذه الخلافة ثم الانفصال عنها في النهاية. و في ظل هذه الأنظمة لوحظ كم كان للحياة السياسية و قوة حكامها من أثر على الحياة الاقتصادية التي أعطت لتاريخ هذه المنطقة طابعا آخر يحسد عليه في فترة من فترات الزاهية.

1. أمين (أحمد)، " ظهر الإسلام"، ج.1، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1999، ص.291.

2. ابن خلدون، المصدر السابق، ج.12، ص.207.

فبالرغم من تطرق بعض الدراسات إلى هذا الموضوع، إلا أن الوضع الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة ما بين القرن التاسع و الحادي عشر الميلادي، أصبح يتطلب عناية كبرى. فالمدن التي بنيت و القصور التي زخرفت و الطرقات التي شقت و الآبار التي حفرت والقوافل التي نظمت و الأسواق التي فتحت و المحطات التي نصبت لأكثر دليل على أن هذه المنطقة لم تكن معبرا فقط بل محط الأنظار و مقصد التجار و مصدر الثروة و الرخاء ، أليس المغاربة هم الذين قالوا : " إذا أردت أن تقضي على جرب الإبل، عليك بالقطران، و إذا أردت أن تقضي على الفقر، عليك بالسفر إلى السودان".

يكفي هذا المثل لأشير إلى ما حققه المغرب من ازدهار و تفوق و رخاء لصالحه ولصالح من قصده من الكوفيين و البصريين، أو من الأندلسيين و الجنويين أو من اليهود الذين وجدوا فيه ضالتهم. هذا ما جعلني أختار و بشكل دقيق ثروة هذا الإقليم المتمثلة في ذهب السودان، هذا المعدن الثمين الذي ميز تاريخ هذه المنطقة و تاريخ علاقتها التجارية بكافة الأمصار، خاصة العلاقات التي ظهرت لأول مرة بشكل واسع في تاريخ المنطقة، باحتياز المفاوز الكبرى و عقد روابط ذات نمط جديد لم يسبق للمنطقة، أن عاشتها من قبل أي أن يشترك التاجر و الداعي في قافلة واحدة لفتح السودان الذي سوف يصبح، ملحقه تجارية إسلامية لا يستهان بها، حظيت باهتمام كل الدول التي أشرفت على سيادة المغرب، لتصبح فيما بعد ملحقه ثقافية ذات وزن اجتماعي مميز، كان للبربر فيها دور مواز لدور أهل المشرق و جهودهم في إدخال المنطقة ضمن الحضارة الإسلامية. و لم يكن الإسلام و العروبة إلا شرفا آخر تحلى به المغرب ليزيد من عظمتة و يبرز من قوته داخل الإقليم و خارجه. و استطاع المغرب الإسلامي أن يحقق هذه المكانة من خلال عاملين أساسيين حاولت التركيز عليهما، ليس من باب التخصر و لكن من باب إبراز دورهما في تمييز المنطقة عن بقية المناطق الأخرى.

١. العامل الطبيعي :

تعتبر الظروف الطبيعية من أهم العوامل التي لعبت دورا كبيرا في تدعيم وحدة المغرب. حيث تظهر جغرافية هذه المنطقة على شكل كتلة واحدة متشابهة التضاريس و البيئة و المناخ^(١). فالسلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي تبدو وكأنها سلسلة واحدة غير منفصلة، تعلوها قمم جبال طوبقال بالمغرب الأقصى التي يصل ارتفاعها إلى 4165 مترا^(٢). و هذا ما جعله وحدة مستقلة عن أجزاء القارة، و يطلق عليه خلال القرن التاسع عشر اسم إفريقيا الصغرى^(٣). و تنقسم جبال المغرب إلى قسمين :

القسم الشمالي : يتكون من جبال الريف، و الأطلس التلي و هي جبال تمتاز بالارتفاع و شدة الانحدار في جزئها الغربي و الأوسط. أما في جزئها الشرقي و الذي تتمثل قممته في جبل خمير بتونس فهو أقل ارتفاعا و أشد تقطعا.

القسم الجنوبي : يشمل جبال الأطلس الكبرى، و هي أكثر جبال الأطلس إرتفاعا حيث اعتبرت حاجزا أمام وحدة الجزء الأوسط و الأدنى من المغرب مع المغرب الأقصى في جزئه الغربي، و تتكون من جبال القصور، عمور، أولاد نايل، الزاب و الأوراس^(٤).

هذا بالإضافة إلى الهضاب التي يقع معظمها بين لسلسلتين الجبلتين التلية والأطلسية، و السهول التي يقع معظمها على ساحل المحيط الأطلسي و بحر الروم^(٥).

-
1. الغنيمي (عبد الفتاح منلد)، "موسوعة المغرب العربي"، المجلد الأول، ط.1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1414هـ/1994م، ص.19.
 2. نفسه، ص.22.
 3. سالم (عبد العزيز)، "المغرب الكبير - دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية-"، ج.2، العصر الإسلامي، بيروت، دار النهضة العربية، 1981، ص.128.
 4. نفسه، ص.130.
 5. نفسه، ص.131.

و من حيث المناخ ينقسم المغرب إلى ثلاثة أقاليم :

1. الإقليم الساحلي، أو إقليم بحر الروم، و الذي يمتد من الاسكندرية إلى طنجة⁽¹⁾، و الذي يطلق عليه ابن خلدون تسمية مناخ التلول⁽²⁾، و من مميزاته أنه حار وجاف صيفا، بارد و ممطر شتاء⁽³⁾.

2. الإقليم التلي، الذي يتميز بمؤثرات البحر و الصحراء معا.

3. الإقليم الصحراوي، و الذي يشمل كل من برقة، فزان، زويلة و ورقلة، ثم إقليم تافيلالت وادي درعة إلى غاية بحر المحيط غربا⁽⁴⁾. هذا المناخ الذي يطلق عليه بن خلدون بلاد الصحراء، يعتبر أقل ثروة و سكانا من المنطقة الشمالية. و رغم ما وصف به هذا الإقليم الصحراوي من قساوة، إلا أن الأمر ليس كذلك. هذه الوحدة الجغرافية و التباين الذي طبع المغرب جعل الدراسات الحديثة صعبة أمام دقة تحديد الكيان السياسي للعديد من الدويلات التي عرفتها المنطقة، خاصة عندما يتعلق الأمر بتعيين حدود تلك المنطقة كالرستميين و الفاطميين. كما أن المناخ جعل العديد من الدراسات تبحث في بدايات التجمع السكاني لإقليم الصحراء، و كيفية تأقلم هذه الجماعات مع طبيعتها. كما أن لميزة أرض المغرب التي تتمثل في الممرات الطبيعية و المسالك الوعرة دور في تكوين بنية أجسام سكانه الذين يعرفون بصلابتهم و مهارتهم القتالية، التي عطلت عملية الفتح قرابة سبعين سنة⁽⁵⁾.

-
1. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ج.1، ص.65.
 2. ابن خلدون، "العبر...", ج.12، ص.199.
 3. الغنيمي، "موسوعة المغرب العربي"، ص.26.
 4. زغلول (سعد)، المرجع السابق، ص.73.
 5. سالم (عبد العزيز)، "المغرب الكبير"، ج.2، ص.127.

2. العامل السياسي :

تعتبر الدراسات السياسية للمغرب الاسلامي من أهم الدراسات التي ما زالت تعترضها مشاكل عندما يلجأ الدارس إلى كتابة تاريخ المنطقة، و من أهمها الوضع السياسي للمغرب الأقصى عند قيام الدولة الفاطمية و خضوعه لحكام رولاة مستقلين عن الدولة الفاطمية، متصلين بصلة الولاء للأمويين في الأندلس أو الفاطميين في المغرب الأدنى. إضافة إلى مشكل تحديد نفوذ بعض المذاهب السياسية و الدينية في بلاد المغرب كالشيعة والأدارسة و هراطقة برغواطة والخوارج الإباضية والصفيرية دون أن ننسى مشكل انفصال المغرب عن الفاطميين و مراحل⁽¹⁾.

و من الصعب على الباحث أن يصف الوضع السياسي في منطقة المغرب، خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين التاسع و الحادي عشر الميلاديين، بحيث يجد نفسه أمام عدة كيانات حاولت من خلال وجودها على أرض المغرب أن تميز جزء من حضارته و أهمها دولة الأدارسة التي كان لتأسيسها 169 هـ/786 م على يد إدريس ابن عبد الله ابن الحسن⁽²⁾ شأن كبير في تاريخ المغرب الإسلامي، خاصة بعد ظهور مدينة فاس، وتنظيم الحملات الكبرى الثلاث على كل من تلمسان سنة 174 هـ/790 م، و برغواطة، بالتحديد منطقة شيلة ثم السوس الأقصى سنة 197 هـ/812 م، و هنا لابد من التركيز على هذه الحملات و ذلك لأهمية هذه المناطق المذكورة ودورها في مراقبة قوافل السودان باتجاه الشمال⁽³⁾، لتصل نحو فاس حاضرة المغرب الأقصى، و التي يقصدها التجار من كل حذب و صوب.

1. الناضوري (رشيد)، "المغرب الكبير"، ج1، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، 1981. ص 45.

2. أنظر GENET (J. P.), « Le monde au moyen âge » Hachette, Paris, 1991. p.64.

3. أنظر LAAROUÏ (A.), « L'histoire du Maghreb », Paris, François Maspero, 1991, p.64.

و فاس شأنها كشأن إمامة تاهرت، التي يقول عنها العروي أنها تعتبر من بين أهم التنظيمات السياسية و الدينية، كون أن موقعها يضمن لها حياة اقتصادية زاهرة⁽¹⁾. و لقد كان لتأسيس هذه الدولة سنة 144 هـ/761م على يد عبد الرحمن ابن رستم نقطة تحول كبيرة أحدثت تطورا ملموسا في سياسة الخوارج الإباضية بالمغرب. و لما كان لفترة حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من أثر في بروز قوة هذه الدولة التي توسعت لتصل جنوبا إلى أراضي الجريد التي تفتح أبوابها على إفريقيا و شرقا إلى غاية جربة و جبل نفوسة⁽²⁾. و لم تتوقف الدراسات إلى حد اليوم عن الإشادة بأهمية تلك القوافل التجارية التي كانت تخرج من إمامة تاهرت منجهة نحو سحلماسة ثم بلاد السودان.

لم يكن تأسيس الإماراتين السالفتي الذكر بنفس هدف إمارة بني الأغلب، الذين وجهوا اهتمامهم نحو البحر، مخالفين في ذلك إباضة تاهرت و أدسة فاس.

لقد رأت خلافة بغداد في تنصيب أسرة بني الأغلب على إفريقيا عام 205 هـ/ 820 م حفاظا على ولايتها على المغرب. هذه الأسرة التي استولت على صقلية و مالطة و هددت جنوب إيطاليا، كانت عكس الأدارسة و الرستميين الذين كانت نظرتهم باتجاه الصحراء أكثر من المشرق و البحر المتوسط، حيث أسسوا تجارة القوافل العابرة للصحراء بشكل مزدهر باتجاه نهري السنغال و النيجر و هذا في أكبر مدنها التي احتضنت هذا التبادل أودغشت و تمبوكتو، لجلب ذهب السودان و الدخول في اتصال مع امبراطورية غانة⁽³⁾.

-
1. Ibid, p.104.
 2. حسن (أحمد محمود) "تاريخ المغرب و الأندلس"، ص.122.
 3. GENET (J.P.), op-cit, p.64.

لكن هذا الوضع و هذا الاستقرار الذي عاشه المغرب من إفريقية إلى غاية المغرب الأقصى لم يدم طويلا، ليدخل مرحلة يشوبها الاضطراب و عدم الاستقرار مع قيام دولة الفاطميين، الذين كان لهم دور كبير، خاصة بعد سنة 297 هـ/909 م، في تاريخ المغرب الإسلامي، فقد قضوا على الأغالبة و الرستميين وسيطروا على الأدارسة ووصلوا إلى غاية بحر الظلمات. وكان جل اهتمامهم أثناء تواجدهم بالمغرب مصوبا نحو مصر و فيها. و بإمكاننا تصور أوضاع المغرب الذي ازداد سوءا بعد إرسال فلول بني هلال التي أضرمت النيران في بقايا هياكل الفاطميين التي تركها الفاطميون جسدا بلا روح⁽¹⁾.

لكن قيام دولة المرابطين سيسمح لجزء كبير من المغرب بالعيش في رخاء وازدهار. وترجعنا هذه الدولة إلى نمط الأدارسة و توسعاتهم و هذا باحتلال المناطق التي كانت تراقب التجارة الصحراوية، ليتم ذلك باحتلال أودغشت التي كانت بيد غانة و احتلال سجلماسة سنة 448هـ/1056م جنوب المغرب. و في عهد هذه الدولة كتب لتجارة الذهب أن تعيش ازدهارا لم يسبق له مثيل، انعكست آثاره على السياسة المالية التي سلكها المرابطون مع الأهالي⁽²⁾.

لم يكن بالأمر الهين على سكان المغرب معاشة مثل هذه الأوضاع، و إن كان هذا لا يختلف كثيرا عن الوضع الذي ألفوه قبل الفتح الإسلامي، و رغم ووجود إقليم المغرب الإسلامي على الحال الذي نراه عليه اليوم، بدوله المستقلة، فإن تدرة تحمل سكانه للمحن و تصديهم للمصاعب جعلت من منطقة المغرب الإسلامي نقطة صراع لم تعرف الاستقرار لفترات بعيدة.

1. حسن (أحمد محمود)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، ص.140.

2. أنظر. LAAROUÏ (A.), op.cit, p.148.

ب. إقليم السودان

حظي إقليم السودان بالدراسة و الاهتمام وصفاً، على عكس روايات البعض التي توحي بأن المنطقة كانت مهجورة، تكسوها الأدغال و تقطنها الوحوش إضافة إلى طغيان ما تنقله الدراسات الاستعمارية عن هذه المنطقة. فكلمة "سودان" وردت على ألسنة العديد من الرحالة والجغرافيين و المؤرخين و حتى الحكام.

فهناك من تطرق إلى دراسة المنطقة و مواصفاتها الجغرافية، التي كانت منطلقاً لكل الدراسات في العصور الوسطى أو الحديثة، و هناك من فضل الاهتمام بالسلالات البشرية التي ميزت هذه المنطقة و كانت أصل هذه التسمية. كما أن هناك من فضل الإشارة إلى بعض مميزات مدنها و عادات أهلها و المسافات التي تربط أقاليمها. و اعتبرت هذه المعلومات كلها مهمة مقارنة بالبدايات التي أصبح الإنسان يبحث فيها عن كل التفاصيل الدقيقة، لكتابة تاريخ هذه المدن وشعوبها.

و ذكر إقليم السودان عند القدامى يدخل ضمن التقسيمات التي ميزوا بها الكرة الأرضية. فيقول الدمشقي في كتابه : " أن أردشير ابن بابك قسم الأرض إلى أربعة أقسام أحدها للترك، الثاني للعرب، الثالث للفرس و الرابع للسودان. أما بالنسبة لقسمة نوح للأرض فبنيت على ثلاث، فكان المشرق و الشمال ليافت، و المغرب و الجنوب لحام والوسط لسام. فلسام العرب و الروم و الفرس، و ليافت : الترك و الصقالبة، و يأجوج ومأجوج، أما حام فكان له : القبط و البربر و السودان⁽¹⁾.

1. الدمشقي، " نغمة الدهر في عجائب البر و البحر"، ط 2، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1914هـ/1998م، ص.36-37. أنظر كذلك : ابن خلدون، "العبر..."، ج.12، ص.417.

إن هذا التقسيم الذي ورد في العديد من مثل هذه المؤلفات لا يوحى بأي شيء من العلمية و القياسات الجغرافية، بل ما هي سوى جزء من تلك الكتابات التي دخلت في مضمون كتب الرحالة الذين أعطوا وصفا خرافيا للعديد من المناطق يصعب على العقل تصديقها بسبب خلوها من تلك المقاييس المعتمد عليها حاليا في علم الجغرافيا مثالا. إلا أنها تبقى من بين أهم المصادر التي تعود بنا إلى الماضي البعيد لتزويدنا بمعلومات و بأنماط تلك الدراسات التي سادت سابقا.

و التقسيم الجغرافي الذي حظي به السودان في الكتب الجغرافية القديمة لا يساعدنا على تحديد مواصفاته و مميزاته المناخية إلا من خلال تلك الروايات التي كانت تصف السكان و المدن و عاداتهم و تقاليدهم، أي بمعنى آخر انعدام التخصص في هذه المؤلفات وهذا ما ميزها عن الكتب الحديثة، مثلما ذكره ابن بطوطة في كتابه الرحلة أو البكري، لأجد أن بعض الكتب راحت تميز إقليم السودان عن بقية الأقاليم الأخرى من خلال السلالات البشرية التي كانت تقطن أراضيها، و الميزة باللون الداكن، و هذا ما يعيده بعض المؤرخين إلى دخول العرب إلى المنطقة و الذين كانوا السابقين إلى تسمية هذا الإقليم بالسودان نسبة إلى سواد بشره أهله⁽¹⁾.

و في هذا الصدد يقول ابن رسته : " أن السودان و الحبش يسكنون في بلاد التي تحاذيها البروج، من بين مدار الحمل إلى السرطان، و أن الشمس في هبوطها وصعودها في تلك البروج تتوسط السماء التي تسخن أهويتهم و تحرقهم، و لهذا صار ألوانهم سودا و شعورهم قططة، وأبدانهم يابسة وأطباعهم حارة و كذلك دوابهم وتجارهم"⁽²⁾.

-
1. زبادية (عبد القادر)، 'مملكة السنقاي في عهد الاسيقين 1493-1591'، ص 15، أنظر ابن بطوطة، "الرحلة" المسماة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، ص 690-700.
 2. ابن رسته، "الأعلاق النفيسة"، ص 99. أنظر كذلك مقال السودان، دائرة المعارف الإسلامية، ط. 1، مجلد 11، ص 327.

إلا أن الشائع في تعريف هذا الإقليم، هو أن كلمة بلاد السودان، معناه بلاد السود، و من هنا فإن كلمة السودان مأخوذة من هذا اللفظ الذي يدل على جميع البقاع التي يقطنها السود من قارة إفريقيا. كما أطلقت على تلك المنطقة شبه الصحراوية من إفريقيا التي تغلغل فيها الإسلام⁽¹⁾. وكلمة السودان هذه في معناها الواسع تشتمل القارة الإفريقية بين جزئها الشمالي و الجنوبي الشرقي و الغربي.

لكن ما دامت الدراسة محددة بالزمان و المكان، يجب تحديد هذه الرقعة للوصول إلى تحديد المناطق التي تحيط بالإقليم المدروس و هذا ما يدفعني إلى العودة إلى الدراسات الحديثة و أغلبها تلك التي اعتمدت على التقسيم الاستعماري للمناطق المستعمرة كذكر " السودان الفرنسي" الذي نعني به السودان الغربي، و " السودان الإنجليزي" الذي يراد به السودان الشرقي أو المصري.

و أهم هذه التقسيمات، هي التي تشير إلى تقسيم إقليم السودان إلى ثلاثة أجزاء :

- الجزء الغربي : الذي يتضمن حوض نهر السنغال غامبيا و المجرى الأعلى لنهر النولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر. و هو محور هذه الدراسة ضمن عنصر تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي.
- الجزء الثاني : و يشمل حوض بحيرة التشاد و الذي يسمى بالسودان الأوسط.
- الجزء الثالث : و هو الذي يشمل الحوض الأعلى لنهر النيل و هو ما يسمى بالسودان المصري⁽²⁾.

1. زبادة (عبد القادر)، "الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص 130-141.

2. أنظر. Soudan, in « Encyclopédie de l'Islam », T. IX, Paris, Maisonneuve, 1991, p.518.

و إذا حاولت التمعن في هذا اللفظ فأجد أنه من غير المقبول أن تسمى هذه المناطق "بالسودان" اعتبارا لمعنى لفظ "سواد البشرة" لأن التحديد الجغرافي لبشرة السودان نجده في مناطق شمال الصحراء و أقصى جنوب إفريقيا عموما. كما أن ما جاورها من الممالك لا ترجع إلى الأصل الأسود و في مقدمتهم العرب و الموزعون عبر أنحاء إفريقيا⁽¹⁾.

إلا أن الاستنتاج دفعني إلى القول أن هذا اللفظ استخدم تاريخيا وفق القوى السياسية التي عرفت مناطق إفريقيا خاصة في فترة العصور الوسطى. و هذا ما حملني على التسليم بهذا الواقع لأنطلق في دراسة ووصف هذا الجزء الغربي من السودان، و إعطاء صورة واضحة عن طبيعة العلاقات التجارية التي ميزت الإقليمين، و اقتصر فيما يلي بذكر و لو بشكل ملخص تلك السلالات البشرية التي ساهمت بشكل مباشر في بروز ممالك هذه المنطقة. إذا كانت كلمة غانا تعني " أرض الذهب" عند العرب خاصة أو "The lord of the Gold" عند الغربيين، فإن كلمة سودان عند العرب في هذه الفترة الإسلامية كانت تعني أيضا " الذهب" ⁽²⁾.

تعتبر هذه الفترة من ألمع فترات تاريخ غرب إفريقيا، سواء من ناحية معرفة أهم الممالك التي عرفها الإقليم أو من ناحية دراسة انفتاح هذا الجزء الإفريقي على مواطن الشمال، الذي بفضل فاتحيه المسلمين استطاع أن يربط المجابات الكبرى لصحرائه بالمحطات التجارية السودانية التي كانت وليدة هذا الترابط و الانفتاح، لتصبح إفريقيا غير بعيدة عن بحر الروم وحضارته التي نقلت عنه الكثير.

-
1. "السودان"، في " دائرة المعارف" للبستاني (بطرس)، م 10، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ص. 166.
 2. أنظر - TAMSÙ (N.D.), « Le Soudan occidental au temps des grands empires-XI^e - XVI^e siècle -Présence Africaine-», Paris, 1975, p.14.

و كانت أهم المدن التي ميزت إقليم السودان الغربي في هذه الفترة، مملكة غانة، التي تعتبر أقدم إمبراطورية عرفها السودان الغربي⁽¹⁾. و هذه الإشارة ملخصة لأهم النقاط الحساسة لتاريخ هذه المنطقة، التي أعطت وجودا لهذه الممالك قبل دخول المسلمين إليها وفتحهم لها. وسوف أتطرق إلى ذكر هذه المناطق و المدن المزدهرة في إفريقيا، بعد ازدهار تجارة القوافل التي عبرتها، والتي يعود الفضل فيها إلى توفر معدن الذهب في جنوب الصحراء الكبرى، دون تجاهل البضائع المختلفة الأخرى التي كانت ترافق الذهب شمالا أو الملح جنوبا.

تعتبر سنة 1000 للميلاد، فترة العصر الذهبي لإفريقيا الغربية⁽²⁾ التي أصبح تصديرها للذهب و العاج عاملا أساسيا من عوامل تأسيس المدن و الإمبراطوريات و تكوين الجيوش واكتساب الثروات. بذلك تدخل منطقة السودان الغربي التاريخ من باب الواسع، مسجلة أثارا في تجارة بحر الروم، ثم التجارة العالمية.

إن تاريخ إفريقيا التي عرفت منذ القدم، أنها أرض بدون تاريخ أصبحت اليوم تتخذ مسارا جديدا بعيدا كل البعد عن الركود و الجمود و الصمت الذي طبعها به الاستعمار، حيث لم تعد إفريقيا تلك القارة التي تأوي سلالة نوح المذبذبة و الناقلة للجنة و لا السلالة المتخلفة. فعلماء الوراثة أكدوا إحباط كل شكل من أشكال العنصرية التي من شأنها أن تصف الشعوب المتفوقة أو المنحطة⁽³⁾، كما لا يمكن اعتبار الزواج الأفارقة حتى المتخلفين منهم كبدايين، حيث من المستحيل التقريب بين التفكير الجماعي و الفكر البدائي⁽⁴⁾.

-
1. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », Tome I, de la préhistoire à 1600, L'Harmattan, 1996, p 175.
 2. أنظر : DAVIDSON (B.), « The growth of Africa civilisation - a History of Africa 1000-1800 », London, Longman, 1969, p.27
 3. أنظر : Afrique Noire in « Encarta 2000 », CD-ROM
 4. أنظر : DELAFOSSE (M.), « Les civilisations africaines », Paris, Librairies Stock, 1925, p.8.

و قد كان هذا دافعا أساسيا لانطلاق الدراسات بشكل جدي في هذه القارة كتلك التي اقتصت في الروايات المكتوبة و الشفوية أو الدراسات الجيولوجية أو المناخية، لتطوى بذلك صفحة الاستعمار التي جعلت منها قارة تكسوها الأحراش و تقطنها الوحوش. لتحقيق هذه الدراسات إنجازا بإزالة الغبار على حقائق تاريخ هذه المنطقة، خاصة عند اكتشافها للعدد الهائل من السلالات البشرية التي عمرتها، و التي كان لها أثر كبير في بروز العديد من الإمبراطوريات و الممالك التي ميزت السلطة داخل هذه القارة، و صنف حضارتها ضمن حضارات العالم التي لا يستهان بها. لتكن المصادر العربية السابقة لإعادة كتابة تاريخ هذه القارة و معرفة حقيقة وقائعها، خاصة عندما يتعلق الأمر بجزئها الغربي الذي أعتبر عضوا ضمنته الدولة الإسلامية لكيانها، بعد توسع الفتوحات الإسلامية نحو الجنوب. لتجعل منه ملحقة اقتصادية و ثقافية.

و تكمن أهمية هذا الجزء الغربي من إفريقيا الذي يدخل في تاريخ الإسلام و المسلمين عامة و المغاربة خاصة في ما كان يلقب بالسودان الغربي، الذي كان يعني عند العرب في العصور الوسطى "الذهب"، في نفس الفترة التي كان فيها جزء من هذا الإقليم، أي غانة يلقب "بأرض الذهب".

و يتطلب تعريف هذا الإقليم، العودة إلى هذه العبارات السابقة و ما حملته من معان عبر التاريخ، للتأكد من شيء واحد وهو أن السودان الغربي كانت له أهمية معتبرة في حياة المسلمين و الأفارقة عامة. و ازدادت هذه الأهمية في نظر الأوروبيين فيما بعد، وهم الذين رأوا في ثرواتهم و موقعهم الاستراتيجي سببا ملحا لاستبدال نظرهم - تعاملهم تجاه هذه القارة.

هذا ما يحمله الميدان الاقتصادي في طبيّاته من تأثيرات داخلية و خارجية جعلت من الإسلام قوة هذا الجزء الغربي من القارة، من الرأس الأخضر إلى حوض التشاد، و التي تنتشر في الشريط الساحلي السوداني الذي يمتد على مسافة 4000 كلم، و التي تشغل اليوم قرابة 30 مليون نسمة. هذه المنطقة الغنية بتاريخها و بتاريخ أكبر إمبراطورياتها، ميزها الإسلام بعد القرن الثاني للهجرة، من خلال التجار العرب و البربر الذين اهتموا بذهبها وعاجها و عبيدها، و ظهرت المدن الثقافية و التجارية المزدهرة، كتمبوكتو و كانو و أغادس، التي تحمل الماضي البعيد لرجال و حضارات، و الذين شكلوا سلالات ذات نواة اجتماعية -عرقية بإمكانها أن تصبح منذ البداية انطلاقا لأي سلطة أو إمبراطورية ⁽¹⁾.

بدراسة السلالات البشرية التي انتشرت في كل الجزء الغربي من هذه القارة، حسب الدراسات الحديثة آخذين في الحسبان الطابع اللغوي و السياسي و الثقافي لها، يمكن ملاحظة ما يلي في أقصى الغرب جماعة الولوف "Wolof" و بين السنغال و النيجر جماعة الماندي "Mandie" والتي تشمل جماعة السونينك "Soninke" و المالينكي "Malinké" وفي النيجر الأوسط جماعة السونغاي ⁽²⁾ "Songhay" والمهاجرين البول "Peuls" الذين شكلوا من السنغال، عبر كل إفريقيا السوداء، و لعدة قرون من الفوتاجالون "Futadjalon" إلى ماسينا "Massina" وبلاد الهاوسا "Hausa" النواة الحقيقية للتعمير البشري ⁽³⁾. و أهم فصيلة يمكن التركيز عليها هي فصيلة الماندينج "Manding".

-
1. أنظر : Afrique Noire, in « Atlas Mondial -Encarta 2000-», CD-ROM.
 2. السنغاي : هي التسمية التي أطلقت في البداية على قبائل حوض النيجر. أنظر : Soungay, in « E.I », p.510.
 3. أنظر : LEWICKI (T.), « Études Maghrébines et soudanaises », pp 30-34.

الماندينج :

إذا كان الجزء الغربي من السودان قد لعب دورا كبيرا في ربط علاقته التجارية مع الجزء الشمالي، فالفضل يعود إلى تلك القبائل التي كان لها دور في أن تكون بذرة تأسيس معظم الممالك السودانية الكبرى و أشهر هذه القبائل، هي التي تعرف بالماندينج "Manding" و التي تنبغي الإشارة إليها. هذه الجماعات انتشرت في المناطق الواقعة في أعالي النيجر، و هي محاطة شمالا بالصحراء الغربية و جنوبا بحوض غامبيا، هذه الأراضي التي احتضنت بين ثناياها مناجم معدن الذهب كل من بوري "Bouri" (أو Bitou) و بامبوك⁽¹⁾ "Bambuk" و أعالي فاليم "Falémé" التي استقطبت إليها مبكرا تجار شمال إفريقيا من البربر والعرب. و الماندينج هؤلاء، كانوا يلقبون و طنهم الأصلي وفق اللهجات المنتشرة بينهم، كما في "Mani" ثم مانن "Manèn" ماندينج "Mandeng"، ماندي⁽²⁾ "Mandé"، أو ماني "Mané". كما كانوا يلقبون أنفسهم بماندينكا "Mandinka" مانينكا "Maninka"، مانينجا "Maninga" أو ماندنكا "Mandènka"، أو ماننجا "Manenga" ماندينكو "Mandinko" أو موندينجو "Mandingo"، و أشير إلى أن المصادر العربية في العصور الوسطى استعملت اسم مالي "Mali" أو ملي "Malli" للتعبير عن الماندينج. هذا الاسم الذي استعير لتسمية سكان البول "Peul" المجاورين و هم سكان المالي. و سكان المور "Maures" و السراكولي "Sarakole" (السونينج) و هم السكان السود لجنوب بلاد شنقيط، كانوا يلقبون هؤلاء بجانجرا "Gangara" أو جنجران "Gangarane"، أما السونغاوي و الهاوسا يعينونهم بلقب ونقارة "Wangara".

و يبدو أن سكان الماندينج كانوا في البداية يسكنون جنوب بلاد شنقيط، ثم اختلطوا مع الرجل الأبيض، و من الممكن أن يكونوا من العرب و البربر والفينيقيين، حسب دراسة لهجات هذه الأخيرة المستعملة في لغة الماندينج⁽³⁾.

1. بامبوك : منطقة الذهب، تقع بين فاليم غربا و مانينك شرقا، أنظر : Bambouk, in « Grand Larousse Universel », T.II, Paris, Larousse, 1997, p.1013.
2. أنظر : Mandé, in « E.I », T.VI, pp. 385-386.
3. أنظر LEWICKI (T.), op.cit, p-32.

إن الإشارة إلى السودان الغربي تدفعني لامحالة للحديث عن أهم المدن التي لعبت دورا في النشاط الاقتصادي و الاجتماعي للمنطقة قبل دخول الإسلام إليها. و من أهم هذه المدن : جيني جينو Djenné - Djeno جاو Gao، أو كاو كاو Kao Kao، كما يسميها العرب، إلى جانب مدينة كوكيا Kokia، و تادمكة Tademka.

مدينة جنية : تقع مدينة جنية على بعد حوالي كيلومتر واحد من جنية الحالية، الواقعة بين تمبوكتو Tambouktou و سيقو Sigou. و يعود الفضل في الازدهار الذي عرفته المدينة إلى النشاط التجاري الذي توسع في رقعة تقرب الستين 60 كلم.

و في قمة ازدهارها بلغت المدينة (بين الفترة الممتدة من 133 هـ/750 م و 545 هـ 1150 م) مساحة تقدر بـ 30 إلى 40 هكتارا. وبلغ عدد سكانها 10.000 ساكن. في حوالي عام 800 م ، يعود الانحطاط الذي شهدته المدينة، ربما إلى دخول العرب الذين فضلوا العيش بعيدا عن السكان الهمجيين، و بينوا لذلك مدينة جديدة على بعد كيلومتران من المدينة القديمة، وهي جنية الحالية⁽¹⁾.

1. أنظر JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », T.1, de la préhistoire à 1600 », L'Harmattan, 1996, p.107- 127.

أما المدينة الثانية فهي جاو Gao التي لا يعرف متى تأسست بدقة، و لكن الدراسات التاريخية تشير إلى أنها دخلت في حكم إمبراطورية السنغاي سنة 370هـ/980 م⁽¹⁾. إن موقع هذه المدينة محل نقاش، لأنه كثيرا ما وقع خلط بين مدينة جاو أو كاوكاو، كما يسميها العرب ومدينة كوكيا. و قيل أن مدينة جاو تقع في المنطقة التي تمتد بين بحر الظلمات و نهر النيجر، ليس فقط كضفة، بل كمنطقة تبادل و تداخل بين بيئات مختلفة و نماذج حياة متعددة. أي بين الصحراء والسودان، و بين البدو و المزارعين⁽²⁾. و تذكر بعض الدراسات أن مدينة كاوكاو تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر⁽³⁾.

و يبدو أن هذه المدينة كانت تحت حكم سود، كانت لهم علاقات متصلة بالمسلمين. و حوالي 1010 م نقل كوسوي "Kossoï" الحاكم الخامس عشر من سلالة ملوك الـ "Dia" *، عاصمة الإمبراطورية سنغاي من كوكيا إلى جاو "Gao"، لتتوطد العلاقات مع مصر و المغرب لدرجة جعلت ملك السنغاي يعتنق الإسلام⁽⁴⁾.

1. Ibid, p.107.
2. أنظر Farias (M.), « Some reassements and recent findings concerning epigraphic evidence from the Niger Valley and the Sahara », in « Histoire du Sahara et des relations transahariennes entre le Maghreb et l'Ouest Africain – du moyen âge à l'époque coloniale », actes du IV^e colloque Euro-Africain, Erfoud (Maroc), du 20 au 25 oct. 1985, Bergamo, Italia, 1986, p. 79.
3. العربي (إسماعيل)، " الصحراء الكبرى و شواطؤها"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص.317.
- * تربعت سلالة الـ Dia أو Za على إمارة سنغاي، كما تقول الأسطورة بعد وصول زا الأمان Za El- Ayaman وأخيه إلى نيامي، بالنيجر، فوجد أن سكان المنطقة وثنين يعبدون سمكة تطلع إلى سطح النهر في أوقات معينة فقام بقتلها فغيته قبيلة السنغاي حاكما عليها. و زا الأمان، حسب الرواية تعني جاء من اليمن، و هكذا فإن بعض المؤرخين يردون أصل مؤسس سلالة الـ Dia، إلى اليمن، و يعتقدون أنه كان مسلما، و لكن المؤكد أن الملوك الذين جاؤا بعده كانوا وثنين. بينما يعتقد آخرون لأن أصله من قبائل لمة وهووارا الذي زحف على رأسها ذا الأمان على كوكيا و أصبح بعدها ملكا على قبيلة السنغاي. أنظر في ذلك: « Les mémoires de l'Afrique des origines à nos jours », Paris, éd. Robert Laffont, 1971, p. 157.
4. أنظر : « Les mémoires de l'Afrique des origines à nos jours », pp 157-159.

2. عوامل دعم الاتصال بين المغرب و السودان الغربي

أ. الصحراء

تعتبر الصحراء من أهم العوامل التي يمكنني من خلالها التحدث عن الإطار العام الذي كونه تجارة الذهب. و لدراسة هذا العنصر أرى أنه من الضروري طرح سؤالين يعتبران المحرك الأساسي لهذه الدراسة و الإجابة عنهما تعتبر توضيحا واستكمالاً للبحث. السؤال الأول: ما هي الصحراء التي تناولتها بالدراسة في هذا الموضوع؟ السؤال الثاني: ما هو الدور الذي لعبته هذه المنطقة في ربط الشمال بالجنوب و إنجاح تجارة الذهب؟ لقد حاولت الإجابة عن هذين السؤالين من خلال تقسيم الموضوع إلى فكرتين أساسيتين:

- الدراسة الطبيعية.

- الدراسة البشرية.

- طبيعية :

قبل التطرق إلى هذه الدراسة أرى أنه من المستحسن الإشارة و لو بشكل موجز إلى معنى هذه الكلمة التي قيل عنها الكثير. اعتبر البعض الصحراء أرضاً مستوية، وهي من الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه، و لقد شبهت بظهر الدابة الأجرد، ليس بها شجر و لا جبال، ملساء⁽¹⁾. و يرى البعض الآخر أن أكثر أقسامها مفاوز محرقة و قفار رملية و أراضي صخرية عقيمة و سهول وعرة يغشى الكثير منها رواسب رملية و مرتفعات صخرية أشبه بجبال ذات أودية فسيحة تعلوها الرمال⁽²⁾.

1. ابن منظور، "لسان العرب"، المجلد الثالث، دار الجيل و دراسات العرب، 1988 ص 411.

2. الصحراء، في "دائرة المعارف" للبستاني (بطرس)، الجزء العاشر، ص 699.

إلا أن الدراسات الحديثة تعيدنا إلى العوامل المناخية التي تسود هذه الرقعة الجغرافية والتي تميزها عن بقية المناطق الأخرى، ليتخذ من عامل الحرارة و الأمطار أهم المظاهر المميزة لها و بناء على ذلك يطلق لفظ الصحراء على المناطق الحارة و الجافة، قليلة الأمطار. و حدد العلماء نسبة التساقط فيها 25 ملم سنويا ⁽¹⁾. كما تمتاز أيضا بالفارق الحراري الكبير، حيث ترتفع الحرارة في النهار إلى ما يقرب 50 درجة و في الليل ما يقرب 20 درجة تحت الصفر ⁽²⁾، إضافة إلى الرياح التي تبلغ درجة عالية من السرعة مما ساعد على تنشيط عملية التعرية التي تمتاز بها الصحراء، و تفتت الصخور، هذا ما شكل عراقيل أمام حياة الإنسان فيها. و تذكر بعض الروايات أن هذه الرياح التي تشكل الأعاصير الصحراوية من شدتها ما يطوي قافلة و يدفنها تحت الرمال، ومن هذه الرياح ما يسمى بالشهيلي وهي رياح تهب من وسط الصحراء. و أخطرها، المثقلة بالرمال و الغبار و التي تسمى بالسيروكو ⁽³⁾. و لقد ذكر ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا، أن هذه الرياح التي تهب من غانة إلى سجلماسة، تجفف المياه و هي في قرب المسافرين ⁽⁴⁾.

و يشبه العلماء الصحراء بالمناطق القطبية لأن درجة التجمد تحول دون وجود أي نبات بها ، و هذا بسبب تضافر العوامل الثلاث: الحرارة ، الأمطار و الإقليم النباتي في تشكيل و تمييز الصحراء عن بقية المناطق الأخرى. هذه الصعوبات و العراقيل التي من شأنها أن تعيق حياة الإنسان في هذه المنطقة جعلت الدراسات الحديثة تتساءل عن كنه هذه التجارة التي عبرت الصحراء في فترة من فترات التاريخ. كما ترددت في الاعتراف بها لاستحالة عبورها والعيش فيها، خاصة إذا تعلق الأمر بالصحراء الكبرى، أكبر صحارى العالم، لأنها جمعت كل الظروف القاسية التي تمتاز بها كل الصحارى الموجودة في العالم.

1. الصحراء في "الموسوعة العربية العالمية"، الجزء 15 ، الطبعة 2، بيروت، لبنان، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، 1994، ص.56

2. العربي (إسماعيل)، "الصحراء الكبرى و شواطئها"، 1983، ص 15.

3. نفسه، ص.ص. 16-17.

4. ابن سعيد (المغربي)، "كتاب الجغرافيا"، (تحقيق اسماعيل العربي)، ط.2، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص.113.

تمتد الصحراء الكبرى من المحيط الأطلسي على طول الشمال الإفريقي مشكلة بذلك أكبر صحاري العالم بمساحة تقدر ب 9 مليون كلم². وتشمل سلاسل جبلية و هضاب صخرية و مساحات شاسعة من الأراضي السهلية التي تغطيها الحصباء و الكثبان الرملية. يقدر طولها بأكثر من 5600 كلم، و يصل عرضها من الشمال إلى الجنوب 1930 كلم، مغطية بذلك كلا من الجزائر، تونس، ليبيا، السودان، النيجر، مالي و موريطانيا .⁽¹⁾ و تقع معظم هذه الأراضي بين دائرتي عرض 15 و 35 جنوب و شمال خط الاستواء. هذا الموقع الفلكي جعل من مناخها مناخا جافا و حارا.

و لمعرفة الأسباب التي جعلت هذا المناخ يتميز بهذه الظاهرة، أي الجفاف و الحرارة يقول العلماء : " أن المنطقة الواقعة ما بين 15° و 53° شمال جنوب خط الاستواء هي مناطق ذات الضغط الجوي المرتفع، فالهواء الدافئ ينبعث من خط الاستواء و يهب شمالا و جنوبا، وكلما ارتفع الهواء قلت درجة حرارته و تتساقط منه قطرات الرطوبة فوق المناطق المجاورة لخط الاستواء، فإذا بلغ مستوى دائرة 15 يأخذ في الهبوط و يسخن من جديد. و هكذا تتكون حالات الجفاف في الصحراء⁽²⁾.

و الأهم في هذه الدراسة هو معرفة كيفية اجتياز القوائل للصحراء صوب مناجم الذهب. إن دراسة الصحراء بهذا الشكل غير كاف، بسبب ماضيها البعيد و حضارتها التي لا يستهان بها. لكن الصحراء التي أصبحت تشكل اليوم جزءا من سطح الأرض، لا يمكن أن تكون قد استقرت في هذه المنطقة منذ آلاف السنين. فعلا فإن الدراسات الحديثة التي اعتمدت على الحفريات أكدت أن بعض مناطق الصحراء عرفت نمطا من الحياة يشبه النمط الذي نراه اليوم في الشمال. إن الاختفاء المفاجئ للعصر النيوليتي * أصبح يوحى باقتراب ظهور الصحراء و هذا بسبب الاضطرابات المناخية التي أصبحت تعيشها المنطقة، فالتساقط غير المنتظم للأمطار وهبوب العواصف و الزوابع أصبح لها تأثير بارز.

1. الصحراء، "الموسوعة العربية العالمية"، ط 2، ج 15، ص 62.

2. الصحراء، نفسه، ص 58.

* نيوليتي : (Néolitique)، العصر الحجري الحديث.

و الغطاء النباتي الذي كان يسودها ما بين 7000 و 4000 سنة ق.م أصبح يتأثر شيئا فشيئا بتلك التغييرات، و أصبحت الأودية تستقبل الماء بكميات أقل، وتقلص حجم البحيرات، بالإضافة إلى أن الجماعات الحيوانية بدأت في الهجرة نحو الجنوب. و خلال الفترة الممتدة من 4000 إلى 2000 ق.م أصبحت عوامل التدهور أكثر بروزا، كزحف الرمال، تحول البحيرات إلى مستنقعات و سخونة الهواء⁽¹⁾.

و خلال سنة 1000 ق.م أصبح كل شيء جاهزا، ليلاحظ الإنسان الفرق بين فترة العصر النيوليتي و التصحر الذي حل مكانه. ومن بين أهم المناطق التي كانت آثار التصحر بارزة بها، في الفترة التي سبقت بروز الصحراء (طاسيلي أجر)، التي كانت حضارتها مزدهرة بممارستها لنشاط الرعي المعتمد على تربية الثيران في أرض خصبة معمرة⁽²⁾.

و خلال الفترة الرومانية لوحظ أيضا تطور هذه العوامل من سيئ إلى أسوأ. فنقص المياه ترك لنا آثارا تدل فعلا على تفاقم هذه الظاهرة التي تعد استمرارا لتلك الظواهر التي عاشتها المناطق التي نسميها اليوم بالصحراء. و على سبيل المثال و ليس الحصر بقايا آثار العشرات من المدن و خزانات المياه المبتورة و أحواض الأودية الحافة، إضافة إلى انقراض معظم الحيوانات لضخمة بسبب نقص الأمطار. فالمرشح الروماني بتونس و مدينة تمقاد التي تقوم اليوم على مناطق عشبية كانت يوما ما دليلا على ازدهار⁽³⁾ لأقول إنه اختفى كل شيء و أصبح الإنسان محصورا بين هذه العوامل الطبيعية القاسية التي تتطلب منه التأقلم أو الهجرة.

1. أنظر. HUGOT (J.H.), « Le Sahara avant le désert », p.83.

2. أنظر. op.cit. p.84.

3. بوفيل، " تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ط.2، (ترجمة د. الهادي أبو لقمة و د. محمد عزيز)، بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، 1988، ص 29.

- بشريا :

في هذا الإطار من الدراسة لا مجال للحديث عن الحياة المزدهرة التي آوتها الصحراء الكبرى في الماضي، و لا عن تلك الصعوبات التي كانت تشكل دوماً، في نظر العديد من الدارسين و المختصين الحاجز المانع لاتصال الشمال بالجنوب، بقدر ما يستدعي الأمر، العودة إلى تلك الصحراء التي ميزتها فترة العصور الوسطى بقوافلها التجارية المنتظمة و بأسواقها المزدهرة ومحطاتها الهامة. و لا يمكن تدعيم هذه الصفات إلا بالعودة إلى القبائل البربرية التي يرجع إليها الفضل في تعمير هذه المنطقة، و إلى الفتوحات الإسلامية التي دعمت هذا العامل و عززت روابط الصلة بين شمال إفريقيا و أقصى جنوب الصحراء الكبرى أي ما يمكن التعبير عنه بالانفتاح الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي و السياسي الذي حدث بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي.

هذه الصحراء حددت بفعل التأثيرات المناخية بالشكل التالي :

— شرقا : الحدود الطبيعية للصحراء، بما فيها صحراء ليبيا و النيل؛

— غربا : المحيط الأطلسي،

— شمالا : صحراء سيرت، جبل نفوسة، شط الجريد، شط ملغيغ، الأطلس الصحراوي و درعة، بجنازين بذلك كل المراكز التجارية شمال الصحراء (فزان، غدامس، وادي ريغ، ورقلة، سجلماسة).

— جنوبا : تصل إلى منعطف نهر النيجر مروراً بالتشاد، إلى غاية النيل في درجة 16° شمالاً⁽¹⁾.

1. أنظر : LEWICKI (T.), « Le rôle du Sahara et des sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », in « Histoire Générale de l'Afrique – l'Afrique du VII^e au XI^e siècle- », UNESCO, 1990, p.303.

كانت العوامل الطبيعية القاسية سببا في قلة الكثافة السكانية، بل وهناك من المناطق ما هو خال تماما من السكان، مثل بعض المناطق في الصحراء الليبية والمجابات الكبرى*.

لكن وجود السكان في هذه المناطق كان مؤكدا، و ما نقلته المصادر العربية إنطلاقا من القرن الثامن للدليل على ذلك. و كان وصف البكري و ابن حوقل، و ابن الفقيه والمسعودي و ابن بطوطة و ابن خلدون ثم حسن الوزان كافيا لدراسة هذه السلالات البشرية، وإعادة الاعتبار لتاريخ المنطقة التي كثيرا ما طمست حقيقتها أكاذيب الاستعمار و أساطير بعض المروجين. و من بين أهم التجمعات السكانية التي ميزت الصحراء في هذه الفترة، البربر الذين يشكلون نسبة 90 % من سكان المنطقة بالإضافة إلى السود الذين ما انفكوا يندمجون شيئا فشيئا مع الجنس الأبيض. و من بين قبائل السود التي سكنت الصحراء تشير بعض الدراسات إلى فصائل "توبو" "Toubou" و الذين شكلوا قبائل الزغاوة "Zaghaoua"، تدا "Téda" ودازا "Daza" ⁽¹⁾.

أما بالنسبة للقبائل البربرية الصحراوية التي لعبت دورا هاما في توطيد العلاقات بين إفريقيا الشمالية و السودان، تنقسم إلى فرعين : فرع منه يسمى زناته، و فرع آخر يسمى صنهاجة. أما الصنهاجيون فكانوا بدوا رحلا، رعاة إبل و ماعز و غنم، بينما كان جزء من زناته و القبائل المنفصلة عنها (مثل لواتة و مزاتة)، بدوا رحلا، و الجزء الآخر حضرا. هذه الجماعات السكانية التي كانت يوما ما سببا في تأسيس الواحات الجميلة لكل من وادي سوف، وادي ريغ، ورقلة، تيديكلت و توات بالصحراء الجزائرية، إضافة إلى تربية الحيوانات كانت ماهرة في عملية تصريف المياه، و حفر القنوات الباطنية و الآبار الارتوازية ⁽²⁾.

* المجابات الكبرى : هي أصعب مراحل السفر التي كان يقطعها التجار في العصور الوسطى. تقع في الصحراء الغربية حاليا.

1. أنظر : LEWICKI (T.), « Études Maghrébines et Soudanaises », Varsovie, éd. Scientifiques de Pologne, p.43.

2. Ibid, p.305.

و هذا ما يجعلني أقول إنها كانت أهم عوامل التحدي و التعايش مع تلك الطبيعة القاسية. فاستقرار هذه القبائل في المناطق الجبلية كالهقار و فزان و تيبستي، لدليل على أن هناك مناطق احتفظت بنوع من الرطوبة سمحت للتجمعات البشرية بالتأقلم معها و تكوين نمط حياة خاص بها، و ما الإشارة إلى هته القبائل إلا دليل على تواجدها منذ فترات زمنية بعيدة. والدراسات الحديثة تقول أن هذا الاستقرار كان مؤكدا من 1000 سنة قبل الميلاد⁽¹⁾.

و ذكر هيرودوت الغرامانتين "Garamants" سنة 450 ق.م، أنهم سكان واحات جرمة "Djerma" في فزان⁽²⁾ و يؤكد أن المنطقة لم تكن خالية من السكان، أي أن ظهور تلك القبائل التي لعبت دورا هاما في التجارة العابرة للصحراء لم تظهر إثر توسع الفتوحات الإسلامية خلال القرن 8 للميلاد، بل قبل ذلك بكثير. كما يضيف " Basil Davidson " قائلا : " إن الاتصال بين الشمال و السودان الغربي تأكد عندما بدأ استعمال الجمل الذي أحدث فعلا ثورة لا يستهان بها في تاريخ الصحراء والتجارة العابرة لها. و بالرغم من وجود عدة دراسات أشارت إلى تاريخ هذا الاتصال، و الذي حددته خلال 1000 ق.م أين عبرت الصحراء تلك العربات التي تجرها الخيول، و التي تطورت على يد القرطاجيين خلال القرن الخامس ق.م، إلا أن الرومان المهيمون على بحر الروم قللوا من شأنها لمدة ثلاثة قرون، ليترك الجمل للمسلمين الفاتحين خلال القرن السابع للميلاد⁽³⁾. لتصبح التجارة بذلك بعد قرن من الزمن فقط نمطا من أنماط الحياة ميز الواقع الاقتصادي للمنطقة و بشكل مكثف خلال ما يناهز ستة قرون.

و بالنالي أقول أن هذا التوسع و الوجود الحضاري الاقتصادي في هذه المنطقة، أكدته المحطات التجارية و الأسواق الكبرى التي انتشرت عبر كل هذه الصحاري. إضافة إلى التجمعات البشرية الكبرى التي انتظمت في شكل قوافل تجارية . و أن الصحراء لم تشكل يوما ما عائقا طبيعيا و بشريا بل عائقا تحدته رغبة الإنسان و إرادة الله في خلقه.

1. أنظر JOLLY (J.), « Histoire du cointinent Africain », p.59.

2. أنظر FAGE (J.D.), « A History of west Africa », Damas, Cambridje, 1969, p. 14.

3. أنظر HOPKINS (A.G), « An economic history of West Africa », London, : Longman, 1973, p.79.

انظر أيضا : GAUDIO (A.), « Les civilisations du Sahara », Verviers, Marabout Université, éd. Gérard & C^{ie}, 1967, pp.45-61.

ب. الآبار

تدخل الآبار ضمن المنشآت العمرانية التي تدل على وجود الحياة في كل من المناطق التي عمرها الإنسان، في المدن و الأرياف و الصحاري. و تعود أهميتها، بالإضافة إلى أهمية دراستها، إلى كونها عامل جذب و استقطاب لكل التجمعات السكانية.

رغم ندرة الدراسات الشاملة لكل الآبار التي وجدت في الصحراء المغربية، حاولت إدماج هذه الفكرة و لو بشكل مختصر ضمن هذه الدراسة، لألفت الانتباه إلى الدور الذي لعبته هذه الآبار في تسهيل عملية نقل القوافل التجارية لذهب السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى نحو مدن الشمال، وهذا باعتبارها سلما من معالم الطريق، التي تعتمد عليها القوافل أثناء تنقلها من منطقة لأخرى، إضافة إلى مساهمتها الفعالة في ظهور العديد من القصور و المدن الصحراوية. فبغض النظر عن قسوة طبيعة الصحراء الكبرى، التي كانت تخفي آثار هذه الآبار في لحظات وجيزة، أثناء تشكيل الزوابع الرملية، إلا أن استمرارية وجودها بدت واضحة على طول المسالك التجارية التي ربطت مدن الساحل بمدن الجنوب. فكان لحكام المغرب الإسلامي أثر بالغ في ذلك، حيث اهتموا بهذه العملية بشكل كبير جدا.

و قبل الإشارة إلى البعض من هذه الآبار التي ذكرتها المصادر التاريخية، يجب العودة إلى تلك العملية التي كانت تتوقف عليها عملية حفر الآبار، و هي كيفية العثور على الماء في الصحراء، والتي كانت تجربة الإنسان فاصلة في أمرها كما يقول الإدريسي عن أهل بغامة : " و شربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها و تجربة " (1).

1. الإدريسي (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي)، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الأول، ط. 1، بيروت، عالم الكتب، 1409 هـ/ 1989 م، ص. 23.

و يتم الكشف عن وجود المياه باستعمال طرق تثير العجب أحيانا. و من أمثلة ما يمكن ذكره في هذا الصدد، أن رجلا من البربر كان يستدل على وجود الماء في الصحراء بمجرد أن يشتم حفنة من التراب. و كثيرا ما كانت القوافل تحط رحالها في ذلك المكان وتحفر فيه فيتدفق الماء الزلال ⁽¹⁾ حسب رواية الإدريسي دائما.

و لقد عمد الحاكم عبد الرحمن بن الحبيب* منذ عام 128هـ/745م، إلى حفر الآبار عبر مفاوز الصحراء الكبرى على طول الطريق الصحراوي الغربي الرابط بين تامدلت وأودغشت ⁽²⁾. و أهم الآبار التي أشار إليها البكري في هذا الصدد بصفة عامة : بئر أمان تيسن، أي "ماء الملح"، ثم تنودادن، أي "بئر الأيايل"، يليه "توتين أن وجليد"، أي "آبار الأمير"، و أخيرا "أمان سيدان"، أي "ماء النعام". و هذا على طول الطريق الرابط بين درعة و سجلماسة ⁽³⁾.

و تعتبر إشارة البكري إلى هذه الآبار و مناطق وجود الماء في الصحراء الكبرى، دليلا على أنها استخدمت معلما على طول هذه الطرق التي ترشد القوافل، و التي يصعب اجتياز الصحراء بدونها. و من الآبار التي أشار إليها البكري أيضا بئر الجمالين، تلك الواقعة على الطريق الرابط بين درعة و سجلماسة، و التي يبلغ عمقها أربع قامات و هي من أنباط عبد الرحمن ابن الحبيب. و على طول هذه الطريق يشير أيضا إلى "ماء تندفس"، و هي آبار يحفرها المسافرين، و سرعان ما تنهار. يليه "بئر هيلون"، بعد بئر أنبطها عبد الرحمن و احتفرها في حجر أدعج صلب طولها أربع قامات. و بعد "بئر ويطونان" و هي كبيرة لا تتزف مأوها رعاق، يسهل شاربيه من الأنعام والناس و هي أيضا من عمل عبد الرحمن، طولها ثلاث قامات. و بعد اجتياز مجابة جبل الرمل ⁽⁴⁾ يظهر بئر "وانزمين"، و هي قريبة الرثاء، يليها بئر في حد بني وارث**.

I. الإدريسي (أبي عبيد الله)، المصدر السابق، ص. 23.

* عبد الرحمن بن الحبيب : حفيد عقبة بن نافع.

2. أنظر : TRIAUD (J.L.), « Islam et société soudanaise au moyen âge », Paris-Ouagadougou, C.V.R.S, 1973, p.59.

3. البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)، " المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب -جزء من كتاب المسالك و الممالك-"، (ترجمة ونشر ديكين دو سلان)، باريس، 1965، ص.156.

4. نفسه، ص.156-157.

** بني وارث من قبائل صنهاجة، و تقع في الطريق إلى أودغشت، و هي أصعب مراحل السفر إلى بلاد السودان.

والملاحظ في هذه الآبار أن مناطقها خالية من السكان تقريبا عكس آبار المدن الصحراوية ، التي أبرزت لنا الدور الثاني الذي لعبته الآبار والمتمثل في ظهور التجمعات السكانية في شكل واحات وقصور ومدن، فإذا كانت الآبار التي حفرت على طول طرق المفاوز الصحراوية قد ضمنت استمرارية سير القافلة وسفر التجار من سجماسة إلى أودغشت، بتوفير الماء للمسافرين، فإن الهدف الذي من أجله ظهرت آبار المدن الصحراوية، يتمثل في تكوين المحطات الصحراوية لهؤلاء التجار، وضمان راحة القافلة التي تحط رحالها فيها. لهذا سرعان ما تحولت هذه المحطات إلى قصور ومدن تخزن معدن الذهب.

و بدت هذه الظاهرة واضحة المعالم في منخفض وادي ميا، الذي بلغ عدد الآبار التي حفرت فيه ما يقارب الواحد و الخمسين ألف بئر خاصة بعد ازدهار زراعة النخيل فيها. ومن أهم آبار منطقة سدراتة الارتوازية بئر "عين الصفا".

أما بالنسبة لمنطقة ورقلة، فإنها تعطينا فكرة واضحة عن كيفية ظهورها، خاصة إذا أخذت بعين الاعتبار و على سبيل المثال الرواية التي تقول : "أنه في الثالث من جمادى الأول من عام 726/108هـ جاء سبعون رجلا من زنبار مع الشيخ هاشم، بالقرب من سدراتة، وأسسوا مركزا جديدا يحمل اسم "ورقلة"، و الذي جلب إليه عددا كبيرا من الإباضيين، فحفرت الآبار و وسعت البساتين و ازدهرت المدينة بشكل كبير جدا ⁽¹⁾. و نفس الشيء بالنسبة لمدينة القلعة * التي نمت وازدهرت بعد حفرها لعدد كبير من الآبار الارتوازية التي شكلت حوض بلعيد، و الذي بواسطته تحولت واحات النخيل إلى جنات خضراء ⁽²⁾.

1. أنظر : LETHÉLIEUX (J.), « Ouargla cité saharienne – des origines au début du XX^e siècle-», Librairie orientaliste Paul Geuthner, SA, 1984, pp.27, 47, 82.

* القلعة أو القليعة : واحة في صحراء الجزائر، تقع على بعد 250 كلم جنوب ورقلة، و 390 كلم شمال عين صالح.

2. أنظر : El-Goléa, in « E.I », Paris, 1927, p, 184.

ومن خلال الأمثلة المذكورة يظهر جليا أن العمران الإسلامي قد اعتمد على أسس متينة لعبت أدوارا مختلفة في تثبيت الحياة في العديد من المناطق، و أن قصة الماء في حياة المسلمين هي قصة مقدسة تمت بصلة إلى نصوص و تعاليم الشريعة الإسلامية. لذا يعتبر الاهتمام بهذه الثروة فضيلة أخلاقية و جذورها لا تعود إلى قصة بئر زمزم و الأرض المقدسة فقط ⁽¹⁾ وإنما إلى قصة الماء والحياة في الكون، قبل كل شيء. و إذا قال هيرودوت أن : "مصر هي هبة النيل " فيستحسن القول أن الواحات و القصور هي هبة الآبار في الصحراء.

و الإشارة إلى هذا الموضوع بشكل ملخص، يعتبر نموذجا لموضوع من أدق الموضوعات التي مازالت الدراسات التاريخية و الأثرية، تحاول إزالة الغبار عنه لما له من أهمية في كتابة تاريخ المغرب.

1. انظر : MARCAIS (G.), « L'Urbanisme Musulman », in « Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'occident musulman », T.1, Alger, 1957, p.226.

ت. الجمـل

لا يمكن لي تقدير إمكانيات الجمـل المذهلة، إلا عندما أراه منتظما في القوافل المحملة ببضائع شتى، مخترقا بها الصحراء مشكلا بذلك وسيلة نقل فعالة، أبسط ما قيل عنها أنها سفينة الصحراء، قل من عرف سرّها وحل لغزها الذي يكمن في قدرة و حكمة الإله، الذي وضعها في هذا المخلوق العجيب. و يصف القرآن الكريم هذا الحيوان وصفا دقيقا و متميزا كقوله تعالى: " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" ⁽¹⁾، هذا التساؤل دفعني إلى البحث عن تلك المواصفات التي جعلت هذا الحيوان يتحدى قسوة الطبيعة الصحراوية.

ومن خلال هذا البحث اكتشفت أن العديد من الدراسات قد اهتمت بالجمـل سواء من خلال وصف مميزاته أو دراسة تشريحاته بشكل علمي، واستنتجت من خلالها أن هذا الحيوان يتميز عن غيره بكثير من الصفات. و هذا ما سأحاول تبينه في هذه النقطة.

و أهم ما يمكن ذكره هو أن الجمـل يمتاز بالهدوء والصفاء ولا يُغير من سلوكه ولا ينتبه إلى ما يدور حوله من ضوضاء، بعكس الأغنام والماعز والأبقار و الخيل. كما أنه حيوان مطيع وسهل القيادة، و هدوءه يجعل راكبه يشعر دائما بالأمان حيث يسير بخطوات متزنة وهادئة، و له نزعة للعيش مع الآخرين ⁽²⁾.

1. سورة الفاشية، الآية، 17.

2. محمود (محمد عبد العزيز)، " الجمـل العربي"، ط.1، الإسكندرية، مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية، 1999، ص 41-42.

هذه الصفات تفسر الإقبال الكبير لسكان أقاليم الصحراء على تربية الإبل والإكثار منها من أجل إنتاج اللحم واللبن بالإضافة إلى استخدامهما في النقل التجاري فيما بعد، وهذا منذ مئات السنين، ليشكل بذلك الوسيلة الأكثر استعمالاً في الجنوب و على مشارف الصحراء⁽¹⁾.

اتفقت جميع الدراسات على أن ازدهار تجارة القوافل، في العديد من بقاع العالم، يعود إلى استخدام الجمل كوسيلة نقل خاصة في غرب آسيا وفي آسيا الوسطى⁽²⁾. إلا أن ما يهمنا في هذه الدراسة هو الإشارة إلى الجمل الأفريقي ذي السنام الواحد، والذي اختلفت آراء الباحثين والمؤرخين حول تحديد فترة دخوله إلى منطقة المغرب. ومن خلال البحث اكتشفت أن معظم الدراسات، تتفق على الرأي الذي يدعم فكرة دخول الجمل من مصر وخلال فترة القرون الميلادية الأولى، أي ما بين القرنين الثاني والثالث للميلاد، والأرجح أن ذلك تم في عهد الرومان، إضافة إلى توسيع هذا الوجود أثناء الفتوحات الإسلامية⁽³⁾. ويمكن أن أدمع هذا الرأي بنظرة أخرى ذهبت فيها الدراسات الحديثة إلى حد القول أن الجمل كان موجوداً بصفة دائمة في شمال أفريقيا وأن الإبل الموجودة الآن ما هي إلا شكل من الإبل البرية التي هامت في الصحراء منذ العصر القلسم "Pleistocene" *، وأن شكلها في الماضي يختلف عن شكلها الحالي. كما أشارت هذه الدراسات الحديثة إلى أن الجمل قد نشأ في أمريكا الشمالية وكان حجمه في ذلك الوقت يماثل حجم الأرنب البري. وقيل أيضاً أن الجمل قد عاش في تلك المنطقة لفترة مقدارها أربعين مليون سنة هاجر بعدها إلى مناطق أخرى من العالم، حيث انتقل إلى آسيا عن طريق ألاسكا وسيبيريا من خلال مضيق بيرينج حتى انقرض تماماً من المنطقة التي نشأ فيها ونتيجة تأقلمه مع البيئات المختلفة، تطور وأصبح يشكل الأنواع المختلفة التي تنتمي جميعاً إلى ما يسمى بالعائلة الجميلية **⁽³⁾.

1. أنظر MAUNY (R.), « Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen âge – d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie », Mémoires IFAN, n° 61, Dakar, 1961, p.394.

2. زهير (محمد)، " تجارة القوافل في المغرب"، في "تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1404 هـ/1984م، ص.162.

3. أنظر LOMBARD (M.), « Les Métaux dans l'ancien monde du V^e au XI^e siècle », Paris, études économiques médiévales, Mouton & C^{ie}, 1974, pp.205-206.

* السلسلة الأولى لنظام العصر الجيولوجي الرابع الذي بدأ منذ 1.64 مليون سنة.

** العائلة الجميلية : يقصد منها فصائل الجمل الموجودة في العالم، منها الجمل العربي ذو السنام الواحد و الذي ينتشر في إفريقيا والوطن العرب، ثم الجمل ذو السنامين و الذي ينتشر في آسيا. أما حيوان اللاما، و الجوانكو فتتميز بطول رقبتها و اقتصادها المميز في استهلاك الماء، و ليس لها سنام.

4. محمود (عبد العزيز)، ' الجمل العربي'، ص 29.

هذا القول يؤكد صعوبة تحديد الفترة الزمنية التي تم فيها انتقال الجمل إلى شمال إفريقيا و الذي يعرف بالجمل العربي ذو السنام الواحد والأرجل الطويلة والذي يستقر في المناطق الصحراوية في كل من شمال إفريقيا و الشرق الأوسط.

لكن الأهم من هذا كله هو أن تواجد الجمل بهذه المنطقة سيعود بالفائدة على القبائل البربرية الصحراوية، ليستخدم في النقل والحروب حيث يعتبر أكثر تأقلا من الحصان الذي تصعب تغذيته ومن الحمار الذي لا يستخدم في الحروب، لذا سهل على القبائل البربرية تنظيم حروبها، والتوسع نحو الجنوب⁽¹⁾، لتدخل بذلك هذه المنطقة تاريخا جديدا تميزه العلاقات التجارية مع إفريقيا السوداء وشبكة الشرق و بحر الروم. و لإثراء الموضوع ينبغي علي أن أجب عن السؤال الآتي: ما هو سر نجاح هذه الدابة في مقاومة قسوة طبيعة الصحراء ؟

إن قدرة الإبل على التأقلم و المعيشة في المناطق الحارة الجافة مقارنة بالحيوانات الأخرى يرجع إلى الوظائف المميزة لأعضائها المختلفة. فقدرتها على تحمل الحرارة العالية والجفاف الشديد تعتبر أحد العوامل الهامة المحددة لانتشارها في تلك المناطق، لأن فيزيولوجية الجمل مكنته من التأقلم مع المعيشة في تلك المناطق. يبلغ طول الجمل حوالي 220 سم عند الكتف، و يتراوح وزنه بين 450 و 600 كلف، وهو بذلك ذو قامة طويلة. هذه الصفة تساعد الجمل على التصدي لقوة الرياح الصحراوية المصحوبة بالرمال و الزوابع الرملية التي غالبا ما تهب قريبة من سطح الأرض و لذلك فإنه يرفع رأسه عاليا ليتنفس هواء خاليا من الرمال، كما أنها تمكنه من تناول الأوراق من على أغصان الأشجار الطويلة. و كبير حجمه يساعده، على اكتساب الحرارة ببطء عند تعرضه لأشعة الشمس، بعكس الحيوانات الصغيرة⁽²⁾.

1. أنظر MAUNY (R.) : « Les Siècles obscurs de l'Afrique noire », Paris, Fayard, librairie Arthème, 1970, p.129. أنظر أيضا : العربي (اسماعيل)، "الصحراء الكبرى و شواطئها"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص.ص. 42-45.

2. محمود (عبد العزيز)، "الجمل العربي"، 32 - 46.

هذا ما جعل القوافل التي تقطع الصحراء، قادرة على مقاومة الزوابع الرملية الكبرى التي قل ما نجح منها إنسان، إلا ذوي التجربة ومن كانت له معرفة دقيقة بالبيئة الصحراوية والمسالك التي تتعرض عادة لمثل هذه الزوابع وكيفية التصدي لها. لهذا يمكن اعتبار عملية تسمين الجمال التي تشرف عليها بعض القبائل التي تهتم بتنظيم القوافل التجارية العابرة للصحراء باتجاه السودان من أهم التفاصيل المتعلقة بالرحلة. وهذا دليل على أن حجم الحمل وضخامته يلعبان دورا كبيرا في مقاومة قسوة الطبيعة .

إلا أن الأمر المحير في هذا الحيوان، هو قدرته على السير في تلك الكثبان الرملية الدقيقة دون أن تغوص قدماه فيها. توصل العلماء إلى أن سبب ذلك يعود إلى شكل قدمه التي تتلاءم بدرجة كبيرة مع السير في الرمال، و التي نشبه طبقا كبيرا مما يجعل الجمل قادرا على الحفاظ على توازنه في الرمال إضافة إلى أن قدميه الأماميتين تغطيان مساحة مقدارها 300 سم² وهي مستقيمة بينما القدم الخلفية 200 سم² (1)، و السر في ذلك كله يكمن في أن هذه الأقدام تحمل الأخفاف المانعة للغوص في الرمال (2).

وإذا تعلق الأمر بالصحراء والحرارة الشديدة فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يستطيع الجمل مقاومة العطش لفترة زمنية طويلة، مع حملة للثقل لمسافة طويلة ؟ لقد كانت هذه الخاصية سر نجاح القوافل في مهامها، وازدهار التجارة عبر الصحراء.

-
1. محمود (عبد العزيز). "الجمل العربي"، ص. 51.
 2. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ج. 4، ص. 90.

إن آخر ما ذكر في هذا الصدد هو تلك النتائج الباهرة التي توصلت إليها الدراسات الحديثة التي اختصت بدراسة هذا النمط من الحيوانات، والتي تقول إن الجمل الذي يتراوح وزنه بين 400 و 600 كلف بإمكانه أن يحمل ما بين 150 إلى 200 كلف، وعلى مسيرة 30 كلم معدل يومي، وبذلك فهو قادر على نقل هذه الحمولة لمسافة طويلة دون تعب، كما أنه بإمكانه يقطع مسافة 150 كلم في مدة تتراوح ما بين 15 إلى 20 ساعة يوميا، وبسرعة تتراوح ما بين 8 إلى 20 كلم/س^١.

أما في حالة عدم حمل الجمل للثقل، فيمكنه أن يسير بسرعة 16 كلم/سا لمدة 18 ساعة في اليوم. وهذا ما يفسر أن هذا الحيوان شديد التحمل للألم والظروف القاسية، فهو يستمر في العمل دون أن يبرز ظواهر الألم، كما يستطيع العيش عندما يفقد 30 % من وزنه عند تعرضه للعطش، بينما تتعرض الحيوانات الأخرى للهلاك إذا ما وصل فقدان الماء من جسمها إلى 10 %، وهذا ما يجعله قادرا على البقاء طويلا تحت أشعة الشمس عكس الحيوانات الأخرى⁽¹⁾.

ومن هذه الصفات أيضا أنه لا يعرق قبل درجة حرارة 41، بينما يبرد جسمه ليلا إلى درجة حرارة 34 وهو يعوض ما يفقده من الماء مما هو مخزن في سنامه وذلك عن طريق أكسدة الشحم فيه⁽²⁾. هذه الصفة الكبرى التي تربط بين مقاومة الحرارة والتصدي لها وعدم تضييع الماء من جسمه، ميزته فعلا عن بقية الحيوانات، وجعلته قادرا على قطع الصحراء من جهة والحفاظ على حياة راكبه من جهة أخرى بإمداده بالماء أثناء فقدانه.

-
1. محمود (عبد العزيز)، المرجع السابق، ص 43.
 2. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ج 4، ص 90-91.

فمنذ زمن بعيد تحدثت الروايات عن الطريقة التي يلجأ إليها الرحالة دائماً، للحصول على الماء أثناء افتقاده، و ذلك بيقر بطون الإبل وشرب الماء التي بداخلها. فكيف يا ترى يكون ذلك بالرغم من أن هذا الجمل قد بقي أياماً عديدة دون شرب الماء، ومن علم هذا البدوي علم التشريح ليعلم ذلك، أم التجربة هي التي كانت وراء ذلك ؟

إن التجربة هي التي كانت وراء مثل هذه الحلول لإنقاذ حياته، ولقد أكدت الدراسات الحديثة مؤخراً أنه حقاً يمكن للجمل أن يعيش 30 يوماً بدون شرب الماء في حالة وجود المرعى، كما قُدر أن الإبل تحصل على ثلاثين لتراً من الماء من النباتات التي تتغذى عليها، و ذلك اعتماداً على كمية الماء الموجودة في النباتات ⁽¹⁾. هذا ما يجعل القافلة دائماً قبل الرحيل تلجأ إلى اختيار الدليل، هذا الرجل الذي يجب أن يكون مطلعاً على كل تفاصيل المسلك وبشكل دقيق سواء المتعلقة بالمحطات أو الآبار أو مناطق الرعي التي تحتوي على نباتات أقل جفافاً أي التي تحتوي على كمية معتبرة من الماء ⁽²⁾.

كما اكتشفت الدراسات الحديثة أن الجمل، يستمر في أكل النباتات بالرغم من العطش، عكس الحيوانات الأخرى، لأن إفرازات اللعاب التي تقل عند الإنسان والحيوانات الأخرى لا نجدها في الإبل، واستمرار الإبل في تحريك فمها يؤدي إلى استمرار ترطيب الفم، مما يسمح بالبلع الطبيعي. والمبهر هو ذلك الاكتشاف الذي يؤكد أن كمية الماء التي يمكن أن تحتويها كرش الإبل الذي يزن 550 كلغ، تصل إلى 66 لتراً، وإذا أضفنا محتوى القناة الهضمية تصل إلى 82 لتراً.

1. محمود (عبد العزيز)، " الجمل العربي"، ص. 73.

2. أنظر : LETHIELLEUX (J.), « Ouargla cité saharienne ». p.161.

هذا أيضا ما يؤكد النسبة المثوية من الماء التي يحتويها جسم الحمل عامة والتي تصل إلى 75 % من وزن الحيوان في فترات الحرارة وتقل النسبة أثناء الشتاء إلى 50 %⁽¹⁾. وإن دلّ ذلك على شيء إنما يدل على حكمة الله في خلقه وتسخير هذا الحيوان من أجل خدمة الإنسان، وليكون بمثابة سفينة الصحراء تستعمل في الترحال والتنقل والحروب والتجارة، دون أن أنسى ما للين ولحم هذا الحيوان من فوائد جمّة.

ولا يعيب العرب مدح هذا الحيوان والإكثار من تربيته، لأنه فعلا المصدر الأساسي لثروتهم وعماد حياتهم قديما وحديثا. وما ذكر في القرآن الكريم تأكيد على ذلك، في الآية : " وعليها وعلى الفلك تحملون"⁽²⁾، أو في قوله صلى الله عليه وسلم : " الإبل عز لأهلها".

1. محمود (عبد العزيز)، " الجمل العربي"، ص . 82.

2. سورة المؤمنون، الآية 22.

ث. التجّار

تعتبر فئة التجار من أهم الطبقات الاجتماعية التي ميزت النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، هذا النشاط الاقتصادي الذي اهتم به المسلمون انطلاقاً من تعاليم دينهم الذي حث على ممارسة التجارة، في قوله (ص): "عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق." و في قوله أيضاً (ص): "التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين و الشهداء".

هذا التعامل التجاري الذي ميزه الدين الإسلامي أصبح فعلاً من أهم النشاطات التي أعطت للتاجر المسلم صفات يمتاز بها عن بقية التجار الآخرين، سواء من أهل الذمة أو الوثنيين الأفارقة الذين اتصلوا بهم بعد الفتوحات الإسلامية. لتصبح هذه المميزات بعد ذلك عاملاً أساسياً من عوامل تدعيم الإسلام و انتشاره خاصة في إفريقيا السوداء. هذا التاجر الذي تردد على المراكز التجارية في السودان الغربي، سمحت له الظروف أن يصبح هو و العوامل الأخرى عاملاً من عوامل ازدهار التجارة بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي، متصفاً بنفس الصفات التي امتاز بها التاجر في كل الأقطار التي دخلها الإسلام و هذا بترك بصماته و أثاره أينما حل وفي جميع الميادين خاصة الاجتماعية منها.

و إذا نظرت في الشروط التي من خلالها باشر التاجر نشاطه التجاري أجدها مستوحاة من مصدر القرآن الذي مكنه في عمله و جعله يساوي عمل المجاهد. ومن أهمها أن يكون عالماً بالتعاليم الدينية الخاصة بالمعاملات حتى يميز المباح من المحذور. إضافة إلى تحاشي الضرر

و أن يكون المبيع منتفعا به⁽¹⁾ و أساس هذا التعامل هو الابتعاد عن أكل الربا و الغش و التحايل، وهذا لقوله تعالى : " الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا و أحل الله البيع و حرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف و أمره إلى الله و من عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " (2).

كما أشار ابن خلدون إلى هذه النقطة، عندما تناول التجارة من الناحية الخلقية و الاجتماعية فدعا إلى إعلاء شأن التجار، وندد بجرائم الغش، و الإيمان و التطفيف في المكيال و الميزان⁽³⁾. إضافة إلى هذه الصفات أجد أن التاجر المسلم عامة والمغربي على الخصوص كان يجمع بين الدعوة و بيع سلعته، فكثيرا ما كان يلفت أنظار الوثنيين الأفارقة، بكثرة وضوئه، و انتظام أوقات صلاته و عبادته، و ما تحلى به من سمو عقلي وخلق، و استعداد و رغبته في إمدادهم بمزاياه و معارفه السامية إلى جانب نشره للغة العربية بين أوساط الأفارقة⁽⁴⁾. ليكون بذلك الصدق دينه والأمانة دستوره⁽⁵⁾.

لن يصبح هذا النجاح الذي حققه التاجر المغربي داخل المغرب و خارجه واضحا، إلا بعد أن ساهمت الحكومات في تسهيل مهامه. و هذه الصفة كانت معروفة في كافة أقطار العالم الإسلامي، حيث اهتمت الحكومات بإنشاء الطرقات و حراستها وإنشاء أماكن يستريح فيها

1. باشا (نخاعة)، "التجارة في المغرب الإسلامي من القرن 4 إلى 8 هـ"، تونس، منشورات الجامعة التونسية، كلية العلوم الإنسانية، 1976، ص.21.

2. سورة البقرة، الآية 274.

3. ابن خلدون (عبد الرحمن)، "المقدمة"، ج.2، ص.412.

4. الأمين (عوض الله)، "تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي" في "تجارة القوافل ردورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، 1404 هـ / 1984 م، ص.95.

5. شلي (أحمد)، "موسوعة التاريخ الإسلامي"، ط.5، ج.6، مكتبة النهضة المصرية، 1990، ص.163.

المسافرون، و تأمين الماء لهم، و إنشاء المنائر في الثغور والفنادق و الوكالات، و القياس داخل المدائن و خارجها (1). ويقول لمبار موريس في هذا الصدد : " أن اتاجر هو الأساس الذي يقوم عليه الازدهار الاقتصادي، وهو الذي يميل إلى المغامرة و استكشاف الأسواق في البلدان البعيدة وهو الذي سيكشف موارد الذهب في السودان (2).

و لا يمكن إبراز أهمية هذا النشاط التجاري إلا من خلال معرفة مدى استغلال التجار للظروف التي مر بها المغرب الإسلامي في المجال الاقتصادي أثناء هذه الفترة و التي سمحت لهم أن يبرزوا مدى الثراء الذي حققه المجتمع المغربي.

وبالرغم من أن الدراسات التي اهتمت بالحياة الاقتصادية للمغرب الإسلامي لهذه الفترة لا تزودنا بالمعلومات الكافية، عن مدى مشاركة التاجر في الحياة الاقتصادية من خلال أصناف التجار الذين شكلوا هذه الطبقة أو من خلال التوزيع الجغرافي لهم، فأني حاولت الإلمام ببعض الدراسات التي اهتمت بالموضوع، لأشكل تصورا عساه يكمل أطراف هذه الدراسة لتي اقتضت مني العودة إلى هذا العنصر.

تمت الإشارة إلى التاجر المغربي ضمن فئة التجار الصغار التي استقرت في الأسواق و ما لهذه الطبقة من تمسك في زمام المواد الاستهلاكية داخليا، وبعث روح المبادرة على استحداث الصناعات و تشغيل اليد العاملة و سير الأسواق لترويج المنتج، ليتطور فيما بعد ليصبح ذلك المغامر الذي ينشط في السفر إلى المناطق نائية باحثا عن أسواق بعيدة، وهكذا كان الأمر بالنسبة لأسواق السودان الغربي (3).

1. عبد القادر الخطيب (محمد محمد)، "دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية"، جامعة الأزهر، مطبعة الحسين الإسلامية، 1411 هـ/ 1991 م، ص. 150.

2. لومبارد (موريس)، " الإسلام في مجده الأول"، (ت : إسماعيل العربي)، بيروت-دار الجليل، المغرب-دار الآفاق الجديدة، ص. 221.

3. باشا (نجاة)، " التجارة في المغرب الإسلامي"، ص. 56.

أما طبقة كبار التجار فلقد أوضحت مدى استجابة الأوضاع الاقتصادية للأوضاع السياسية التي عاشتها كل دول المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة، ليتوصل البعض منهم إلى اكتساب أسواق خاصة بهم مثل ابن وردة في الدولة الرستمية أو أبو محمد الصيرفي و ابن الواسطي الذين أشار إليهم ابن صغير، وهم من مالكي الأموال الطائلة، و من مميزاتها أنها وثيقة الإتصال بالسلطة من أجل حماية مصالحها و الدفاع عنها⁽¹⁾.

و عنهم يقول لومبارد موريس أنهم كثيرا ما يتمتعون بالحضوة في قصور الملوك والخلفاء خاصة بالنسبة للصرافين المعتمدين لدى القصر، و الذين يقترحون المال لكبار الشخصيات و المتعهدين بتمويل القصور الملكية بالسلع⁽²⁾. فهؤلاء سوقهم الدولة و كبار الموظفين والأغنياء و سلعهم كل ما ندر و غلى، و هذا ما يحقق لهم أرباحا طائلة⁽³⁾. كما أن حضورهم في المجالس الحكومية و شعورهم مسبقا بما يتخذ من إجراءات و قرارات جعلهم يفتنمون كل الفرص للاحتكار و إدارار الثروة و القيام بالصفقات التجارية المربحة⁽⁴⁾.

إلا أن من أهم خصال هذه الفئة، كونها أكثر العامة إنفاقا للأموال، هذا لما كانت تقوم به من أعمال خيرية، كانت تعود بالصلاح على المجتمع، و ما تقدم الأموال و الصدقات للمعوزين و الضيوف و الطلبة و بناء المساجد و تحسينها إلا دليلا على تلك الموصفات التي امتاز بها التاجر المسلم أينما حلّ. وهذا بإظهار سمو أخلاقه و العمل بالأمانة و الصدق⁽⁵⁾.

-
1. جودت (عبد الكريم)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط خلال القرن 3-4هـ/9-10م"، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، 1986/1985، ص.345.
 2. لومبار (موريس)، "الإسلام في مجده الأول"، ص.224.
 3. جودت (عبد الكريم)، نفسه، ص.346.
 4. باشا (نحاة)، "التجارة في المغرب الإسلامي"، ص.126.
 5. جودت (عبد الكريم)، نفسه، ص.346.

و ممن أشارت إليهم النصوص العربية أولئك الذين استقروا في المدن التجارية ذات الشهرة الاقتصادية، كتملي الويسياني الذي كان مقلا في أول الأمر، و هو من أهل القصور (ورقلة)، فجعل يسافر إلى تادمكة و بلغ بها مالا كثيرا فجعل يبعث من تادمكة كل سنة ستة عشر كيسا، كل كيس فيه خمسمائة دينار، مكتوب على كل واحد منها هذا مال الله (1).

لا تشير هذه الفقرة إلى مدى ثراء هذه الطبقة من التجار بقدر ما تشير إلى مدى الترابط الديني بين أتباع المذهب الواحد، فإرسال الزكاة من تادمكة إلى ورقلة، يبرز الحرص الشديد لدى الإباضيين لمذهبهم و بقاء الثروة بين عناصرها.

و بروز طبقة التجار لم يكن في المجال الاقتصادي فحسب بل تعداه إلى المجال الثقافي، حيث امتاز بثقافة واسعة اكتسبها من خلال أسفاره و دخوله عدة أمصار و احتكاكه بمختلف الأقوام، شاهد في عاداتها ما كان يدعو للدهشة و الإعجاب في آن واحد (2). و لم يكن ابن خيرون سوى أحد هؤلاء التجار أصحاب الذوق الرفيع و الذين انتفعت بهم القيروان بعد بناءه للفنادق القيروانية الضخمة و جامع الثلاثة أبواب. ليلعب بذلك دورا كبيرا في نقل دقة الفن الأندلسي المتحضر (3).

-
1. ابن عزوز (فريدة)، "قراءة في أبحاث تاديوش لويتسكي حول فجر العلاقات بين بلاد المغرب و بلاد السودان"، كلية الآداب، تيطوان، ص. 458.
 2. جودت (عبد الكريم)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط..."، ص. 364.
 3. الجنحاني (حبيب)، "القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي"، الدار التونسية للنشر، 1968، ص. 173.

و هناك من الدراسات من ألغت عبارة صغار التجار و كبار التجار، و هذا بإشارتها إلى التجار المستقرين و التجار المتجولين. فالمستقرون، هم من مالكي الحوانيت الثابتة أين تباع سلعهم، أو من مالكي الأماكن في السوق و ملازماتها إلى المساء. أما المتجولون، فهم الذين يتعرضون إلى مضاربات من كبار التجار و التي تدفعه إلى بيع البضائع ذات القيم الضئيلة، التي لا تلفت نظر كبار التجار، و التي كانت اهتماماتهم كما سبق و أن ذكرت، تخص البضائع النادرة (1).

و بإمكانني إضافة تصنيف ثالث لهذه الفئة و التي أطلقت عليها تسمية التجار الحكام، الذين كانوا يمارسون التجارة و الإمارة في آن واحد. و قيد قيل "إذا شارك السلطان الرعية في متاجرهم هلكوا"، هذا القول ينطبق على تلك الدول التي اعتمدت على النشاط التجاري لسلب أموال الناس بعد احتكارها لهم، و هذا ما ينطبق على الدولة الفاطمية. أما بقية الدول المستقلة التي شهدتها المغرب الإسلامي في هذه الفترة لم يسجل التاريخ لحكامها ومشاركتهم الرعية في التجارة، سوى الازدهار و النمو (2). فلم تكن مشاركة الأئمة الرسميين في التجارة إلا زيادة في التقدم و الرخاء و التي مارسوها إلى أن زالت دولتهم، و من بين من برزوا في هذا المجال الإمام عبد الوهاب الذي كان ابنه الأفلح* قائما له بها، و أبا اليقضان و ابنه أبا حاتم ليسلك المدراريون ملك الرسميين في ذلك، فكان الأئمة و أمراء البيت المالكة يرصدون أموالا للتجارة، و كان في ذلك خير للتجارة و التجار، ليزر بدورهم أمراء العلويين بأسواقهم الخاصة سواء كان ذلك بممارستهم الشخصية أو الإستعانة بالوكلاء، و من هذه الأسواق، سوق حمزة و سوق إبراهيم (3).

1. جودت (عبد الكريم)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط..."، ص.146.

2. نفسه، ص.126.

* الأفلح : بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثالث الأئمة الرسميين من إباضي تاهرت، بويع بعد وفاة أبيه عام 190 هـ/ 805 م.

3. حسين (مونس)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، ج.1، ص.388.

أما الحكم الفاطمي الذي تميز وجوده في أرض المغرب عن بقية الدول الأخرى لم ينحاز عن النمط الذي سبق ذكره، حيث شارك الأئمة في التجارة و استغلوها في خدمة مصالحهم و تحقيق أهدافهم المادية، و أحسن ما يذكر في هذا الصدد المنصور الذي كان يصرح بممارسة التجارة في الحلال الطيب بنفسه، دون أن ننسى احتكارهم لتجارة الذهب. ففي القيروان و المهدية و المنصورة كانت الأسواق مرتبة تحت إشراف رجال البيت الفاطمي، فلكل خليفة أو أمير أو امرأة من أهل القصر و كيل يتاجر بجزء من أمواله أو أموالها⁽¹⁾.

و مشاركة هؤلاء الحكام والأمراء الرعية في ممارسة نشاطها التجاري يعطينا صورة واضحة عن أهمية هذا النشاط، خاصة التجارة ذات المسافات الطويلة التي كان الذهب السوداني يجلب بواسطتها، و الذي كان سببا من أسباب دخول العديد من الأمراء فيها.

و اختلاف أهداف كل دولة جعلني ألاحظ الفرق الذي بدا واضحا من خلال تحليلي للأوضاع التي عاشها التجار أثناء ممارستهم لهذا النشاط و أكتفي بوضع ملاحظتين حول دولتين، اختلفت فيها أهداف و أساليب التعامل فيها.

فإذا حاولت البحث في ثنايا تاريخ الدولة الفاطمية و حياة التجار فيها أجد أن هذه الدولة مبنية في سياستها المالية على غلب أموال الناس و سلب ما بأيديهم من خيرات بكل الطرق⁽²⁾. و لم تكن وسيلتهم الإحسان إلى التجار و تشجيعهم و تأمينهم بل عكس ذلك

1. جودت (عبد الكريم)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط..."، ص. 126.
2. عبد الفتاح مقلد (الغني)، "موسوعة المغرب العربي"، م. 1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1994، ص. 86.

و مما يؤكد ذلك تعدي الجند الفاطميين على أموال الناس، كتعدي القائد أبو مدين ابن فروخ الهيصي عام 304هـ/916م، على سكان قفصة. إضافة إلى نصالة ابن حبوس الذي قام بنهب كل من نكور، تلمسان، فاس وسجلماسة⁽¹⁾. ليرز نشاط عبيد الله و أتباعه من الكتاميين الذين استخدموا في غزو المدن و القبائل و نهب أموال أهلها. و لم يكتف بذلك بل تعدى إلى سبي الأطفال.

و من أهم هذه الوقائع ما سجل في 298هـ/910م، عند مهاجمة قبيلتي صدينة وزناتة. إن معاناة طبقات التجار من تمادي جبروت الجند الفاطمي يدعو فعلا إلى الوقوف عندها و تحليلها حيث لم يسلم كبار التجار من دسائس جندها و مؤامرات أتمتها، التي كانت أهدافها مرتبطة بالحياة السياسية و الدينية، و أكبر مؤامرة دبرت في حق التجار تلك التي سجلت عام 300-301 هـ / 912-913 م حين قام رجال عبد الله الداعي بقتل أكبر التجار الأندلسيين في القيروان، صاحب أكبر الفنادق القيروانية، و هو جعفر محمد ابن خيرون العافري، و الذي استولوا على أمواله⁽²⁾.

إن إباحة الخلفاء الفاطميين لقادتهم بنهب أموال أي بلد يشككون في ولاء أهله، وبالاغتداء على دكاكين التجار، أدى في العديد من المرات إلى وقوع قتال في المدن⁽³⁾ بين الطرفين. هذا ما كان يدعو إلى انعدام الراحة و الطمأنينة و التبشير بزوال الدولة سواء طال الزمن أو قصر.

1. حسين (مونس)، " تاريخ المغرب و الأندلس"، ج.1، القاهرة، دار مطابع المستقبل، 1980، ص.510.

2. نفسه، ص.509.

3. نفسه، ص.510.

أما بالنسبة لدولة المرابطين فلقد وجدت أن الأمر يختلف تماما، خاصة في عهد يوسف ابن تاشفين و ولده علي ابن يوسف حيث كان لحكمهم أثر في ظهور أهمية التجار. و من بين أهم الأعمال التي شجعت التجار على مزاولة نشاطهم، إلغاء الدولة للضرائب الفادحة، و أداء ما عليهم من ضرائب شرعية فقط. إذ أصبح في مقدور التاجر أن ينمي ثروته و يشارك في الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها إضافة إلى فتح منافذ جديدة لتسويق المنتجات الزراعية و الصناعية، و تنشيط حركة الصادر و الوارد، و نمو التجارة الداخلية و الخارجية و تأمين طرقها البرية و البحرية من الأخطار التي كانت تتعرض لها⁽¹⁾.

هكذا وبإمكاننا القول أنه كان للأئمة الرستميين و الأمراء المرابطين دورا لا يستهان به في إبراز هذه الطبقة من التجار التي ميزت الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الإسلامي، الذين بواسطتهم استعملت السبل إلى بلاد السودان وعمرت المدن و ازدهرت المحطات التجارية التي كان التجار يتوافدون عليها من كل الأقطار.

1. حسن (أحمد محمد)، "قيام دولة المرابطين"، ط.2، دار الكتاب الحديث، 1416هـ/1996م، ص.349. أنظر أيضا : محمود (السيد)، "تاريخ دولتي المرابطين و الموحدين"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1999، ص.110، و عبد الفتاح مقلد (الغنيمي)، "موسوعة المغرب العربي"، م.2، ص ص . 180 و 181.

ج. القافلة

يعتبر الاهتمام بتاريخ القوافل التجارية، من أهم الدراسات التي تطرح جملة من القضايا الاجتماعية والاقتصادية وحتى الطبيعية عند كتابة تاريخ منطقة ما. وإثارة مثل هذه المواضع بالنسبة لمنطقة المغرب الإسلامي يبدو واضحاً من حيث أهمية هذه القوافل التجارية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة.

لأقول أن النشاط التجاري أصبح مميزاً في التاريخ الإسلامي بالقافلة وتنظيمها، لأن نطاقها لم يبق ضيقاً بل توسع واعتمد عليها في كل الأرجاء التي امتدت إليها سيادة الدولة الإسلامية. وكما ارتبط مصطلح القافلة بمصطلح آخر هو الناقة، هذا الحيوان الذي استطعت أن أحدد له و لو باختصار بعض المميزات التي ساعدته على مقاومة قسوة طبيعة الصحراء والتأقلم معها مشكلاً بذلك العنصر الأساسي الذي به، كتب النجاح للتجارة عبر الصحراء، في هذا الجزء الغربي من العالم الإسلامي.

و قبل أن أبدأ في تحليل هذا الموضوع أعود و لر بشكل موجز إلى هذه الكلمة وما تحملها في ثناياها من معاني، من شافها أن تزيد الموضوع وضوحاً. إن أصل مصطلح القافلة هو القفول، أي العودة أو الرجوع من السفر، و لا يقال للذهابين قافلة⁽¹⁾ حتى يرجعوا. و قال ابن منظور سميت القافلة تفاقلاً بقفولها عن سفرها الذي ابتدأته⁽²⁾.

1. أبو الحسن (أحمد، بن فارس بن زكريا)، "معجم مقاييس اللغة"، (ت: عبد السلام محمد هارون)، م.5، ط.1، بيروت، دار

الجيل، 1441 هـ/1991 م، 112 ص.

2. ابن منظور، "لسان العرب"، م.5، 139 ص.

إذا كانت القافلة هي الرفقة الراجعة من السفر. و العرب سمو القافلة
الذاهبين في ابتداء الأسفار تفاؤلاً بأن ييسر الله لها القفول. فالقافلة تشمل حسب
استعمالات العرب والمصطلحات الحديثة المعنيين، الرفقة والقفال أي الراجعة
من السفر و المبتدئة فيه (1).

فالقافلة إذا هي ذلك التنظيم البشري و المادي و الحيواني الذي لجأ إليه
التاجر منذ فترة ما قبل الإسلام لبيع بضاعته داخل محيط بيئته أو خارجها
وقد ظهر ذلك واضحاً في كل من غرب آسيا و آسيا الوسطى (2).

كما ورد ذكر مصطلح القافلة في القرآن الكريم، ر ذلك في قوله تعالى : "
لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف" (3)، إشارة إلى اعتماد عرب
قريش على تجارة القوافل و بروز نفوذهم داخل شبه الجزيرة و خارجها. و كان لتوسع
العرب شرقاً و غرباً، أثر على انتقال الناقة التي كانت سبباً في نجاح و إتمام مهام هذه
القافلة في كل المناطق التي استهدفوها واستقروا فيها. ليصبح المغرب الإسلامي بعد
الفتح جزء من أجزاء هذه المعمورة التي عاشت ، أي توسع نطاق تربية الإبل
و تجارة القوافل فيها و التي سنرى في تنظيمها شيئاً يوحى بالشجاعة و روح
المخاطرة، ودقة المعرفة بمخاطر الصحراء، وحب المال و الإجماع على اتباع
سنة النبي محمد (ص)، بقوله : "تسع أعشار الرزق في التجارة".

-
1. أبي فيض (عبد الدين السيد مرتضى الحسين الواسطي الزبيدي الحنفي)، "تاج العروس من جواهر القاموس"، م. 15، باب اللام،
(دراسة و تحقيق شيرازي علي)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، 632 ص.
 2. زبير (محمد)، "تجارة القوافل في المغرب"، 161 ص.
 3. سورة قريش، الآية رقم 1 و 2.

إن التطرق إلى القافلة يقتضي مني الإشارة إلى البدو الرحل، الذين شكلوا فئة اجتماعية ذات أهمية كبرى في جميع البلدان الإسلامية، و التي يعود إليها الفضل في توسع نطاق الفتوحات الإسلامية⁽¹⁾. لقد شكلت العديد من القبائل البدوية عنصرا أساسيا في نجاح مهام القافلة، التي كانت تعبر الصحراء، و ذلك لتمييزهم عن السكان الحضر البادية بالقوة و الشجاعة و السرعة في أداء مهامهم، مما ساهم مساهمة كبيرة في مساعدة التجار المغاربة الذين كانوا يعتمدون عليهم أثناء اجتيازهم الصحراء.

ومن أهم الخدمات التي كانت تقدمها هذه القبائل، الرحل الطاعنة في الصحراء : تأجير جمالها أو بيعها، مرافقة القافلة و السهر على تغذية الجمال بالبحث عن المراعي ذات الأعشاب الخضراء، و تعبئتها وإزالة الأحمال عن ظهورها، إضافة إلى تزويدها بالماء، دون أن أنسى العمل الذي يقوم به الدليل، و الكاشف الذي يسبق القافلة إلى أرض السودان⁽²⁾. لتلعب بذلك هذه القبائل دورا فعلا في إتمام مراحل التنظيم الذي تباشر فيه القافلة سواء في المحطات التجارية الكبرى (الموانئ) أو أثناء اجتيازها لمفاوز الصحراء .

و لاكتشاف أسرار هذا الموضوع لابد من الإجابة عن السؤال التالي : ما هي المراحل والمحطات التي تمر بها القافلة في تنظيم سيرها قبل أن تخط رحالها في السودان الغربي ؟ لم تذكر المصادر العربية و لا حتى الغربية كل ما يتعلق بالقافلة التجارية والتنظيم الذي عرفته، قبل البدء في السفر و أثناءه، خاصة فيما يتعلق بالفترة التي هي موضوع هذه الدراسة، سوى تلك المعلومات المشار إليها أثناء التعرض إلى وصف التجارة الصحراوية، و التي - بالرغم من قلتها - سمحت لي أن أضع تصورا عله يحقق ما كنت أرجوه من جواب. ففي المرحلة الأولى لهذه القافلة وجدت أن السفر ينطلق في زمن معين و في مكان محدد، و في هذا يقول الإدريسي : " أن القافلة تنطلق في سيرها في زمن الخريف "⁽³⁾.

1. انظر : REY (R.C.), « Nomade et nomadisme au Sahara », recherches sur les zones arides, UNESCO, 1963, p 13.

2. زنيير (عمد)، "تجارة القوافل في المغرب"، 181 ص.

3. الإدريسي، نفس المصدر، ص. 107.

أما بعض الدراسات الغربية فتشير إلى أن القافلة تجتاز الصحراء في فترة الشتاء⁽¹⁾، و ما استنتجته هو أن هذه القافلة لا تقطع الصحراء في فصل الربيع أو فصل الصيف لعدة أسباب منها : تفادي مخاطر الصحراء الطبيعية التي تكثر فيها الرياح الموسمية في نهاية فصل الربيع و بداية فصل الصيف (مثل الشهيلى و السيروكو)⁽²⁾، و التي تتسبب في زوايع رملية مهلكة للإنسان و الحيوان معا، إضافة إلى ارتفاع درجة الحرارة التي تفوق قدرة تحمل الإنسان. أما فصل الخريف، نجد فيه انخفاضا في درجة الحرارة مع ضمان وجود الكلاء للإبل التي تشكل منها القافلة.

أما مكان الانطلاق، فهو ذلك المستودع أو الميناء أو المحطات الصحراوية الكبرى، التي هي عبارة عن مدن استقبلت البضائع و القوافل معا في اتجاه الشمال و الجنوب، لتصبح بذلك أهم المحطات التي تلتقي فيها قوافل الشمال بمختلف أصناف التجار المغاربة، قبل بداية الرحلة باتجاه أرض السودان. و من مثيلات هذه المحطات التي برزت في تاريخ تجارة القوافل عبر الصحراء، مدينة سجلماسة غربا و ورقلة في الوسط و غدامس شرقا.

يصل تجار الشمال من القاهرة، إفريقيا، تاهرت، تلمسان، طرابلس و فاس، إلى هذه الموانئ من أجل استكمال التحضيرات الأخيرة للبدء في اجتياز المجابات الصحراوية الكبرى⁽³⁾. و يكون هؤلاء التجار قد حضروا لهذه التجارة على أساس المعلومات التي وصلتهم من مدن السودان بتحديد النوعية و الكمية و السعر قبل سفرهم. هذا ما يدفعني إلى القول أن البضائع التي كانت تصدر إلى السودان لم تكن عشوائية ، بل كان يتم انتقاؤها بشكل منظم يأخذ بعين الاعتبار متطلبات السوق السودانية و حاجيات السكان عامة. و مما يدل على أن هذا التنظيم لا يختلف كثيرا عن التنظيم التجاري الذي تعرفه أسواقنا اليوم.

1. أنظر MAUNY (R.), « Tableau géographique de l'Ouest africain... », 401 p.

2. العربي (اسماعيل) " الصحراء الكبرى و شواطئها"، ص 16.

3. أنظر : GAUDIO (A.), « Les civilisations du Sahara », p.197.

خلال هذه المرحلة يبدأ التجار في الاهتمام بلوازم السفر كشتراء الجمال، و المؤن و القرب لنقل الماء التي كانت من أهم العناصر التي ميزت هذا السفر. بالنسبة للجمال، لاحظت في ذكر المواصفات الفيزيولوجية للجمال، أن كبر حجمه يساعده على تحمل الحرارة وثقل الحمولة بالموازاة مع السرعة التي يجتاز فيها هذه المفاوز. لذا تلجأ قبائل البدو إلى الاهتمام بالجمال وتسميتها ثلاثة أشهر قبل انطلاق القافلة لكي تكون في كامل قواها الجسمانية قبل السفر⁽¹⁾. هؤلاء التجار الذين يشاركون بأنفسهم في السفر أو تعيين وكلاء لهم لنقل البضاعة إلى السودان، يقومون أيضا وبشكل جماعي باختيار الدليل أو المرشد الذي يهتدي به القافلة المتوجهة من سحلماسة إلى أودغشت، و يكون من عناصر تلك القبائل التي مارست الدلالة، وهم من أهل البدو و لهم من الجرأة و القوة والمعرفة بأحوال الصحراء ما لا يتوفر لغيرهم و منها قبائل مسوفة⁽²⁾. ولها الاحتكار الشبه الكلي للطرق المتوجهة من سحلماسة جنوبا، و أنهم "سادة الطريق، و التجار يدفعون لهم حقوق"⁽³⁾.

و يقول لمبارد موريس : " أن دبلوماسية كبار التجار تؤدي إلى عقد معاهدات مع البدو الرحل أسياذ الصحراء، من أجل حماية القافلة طوال الرحلة، طبعاً حمايتها من الاعتداءات و نقص الماء. و من هذه القبائل على غرار مسوفة، نجد لمتة، لمتونة وجزولة⁽⁴⁾.

أما النقطة الأخيرة في هذه المرحلة تتعلق بتعيين الدليل من النوع الثاني، هذا الدليل لا يرافق القافلة، بل يستبقها إلى أرض السودان و يختار من نفس القبائل التي تمتاز بالقوة و المعرفة لطرق الصحراء و مجاباتها.

-
1. أنظر : MAUNY (R.), « Tableau géographique... », 401 p.
 2. أنظر كذلك : OULD BAH (A.), « Les villes anciennes de Mauritanie et leurs rapports avec le commerce au moyen âge » in « Histoire du Sahara et ses relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest africain », actes du IV^e colloque Euro-Africain, Erfoud (Maroc), du 20 au 25 oct. 1985, Bergamo, Italia, 1986, p.117.
 3. أنظر : LOMBARD (Maurice), « Les métaux dans l'ancien monde du V^e au XI^e siècle », Paris, études économiques médiévales, Mouton et Cie, 1974, p.223.
 4. أنظر : MAUNY (R.), op.cit, p.400.
 5. أنظر : LOMBARD (M.), op.cit, p.223.

و قد تطرق ابن بطوطة إلى هذا الدليل في قوله : " أن التجار كانوا يستعينون بالتكشيف" * (1). هذا الكشف هو الذي يقوم بحمل الرسائل التي يرسلها التجار إلى أصحابهم، ليكتروا لهم الدور و يخرجوا للقائهم بالماء. و بعد إتمام تحضير كل الضروريات يبدأ الانطلاق في السفر، و تعتبر هذه المرحلة أصعب مرحلة تمر بها القافلة بعد أن نظمت نفسها بشكل دقيق مسبقا.

في المرحلة الثانية و التي تهم بالسفر بعد انطلاقه، تكون القافلة قد استوفت كافة الشروط الضرورية لاجتياز الصحراء. أثناء خروجها من سجلماسة أو غيرها من الموانئ الصحراوية كورقلة وزويلة تكون القافلة محملة بالبضائع المغربية والمشرقية في سفر يدوم شهرين يشترك فيه مئات المسافرين. و هناك من القوافل من يصل عدد جمالها إلى عشرة آلاف (2).

و تتنوع جمال القافلة الواحدة من جمال مخصصة لحمل البضائع، و أخرى للمؤونة و الماء، و الباقية للركوب. كما لا يختلف عدد هذه القافلة عن ذلك الذي ذكره لومبار موريس نقلا عن ابن خلدون في فترة متقدمة مشيرا إلى : " أن القافلة المتوجهة من القاهرة إلى السودان بلغ عددها جمالها خلال القرن الرابع عشر أثني عشر ألف جمل (3). أما إذا عدنا إلى القرن الثاني عشر، فإن التجار كانوا يسوقون في تجارتهم ما بين سبعين إلى مائة جمل (4).

* التكشيف : اسم يطلق على كل رجل من مسوفة، يكتريه أهل القافلة على حد قول ابن بطوطة، للقيام بتسهيل الرحلة للقافلة وتحضير وسائل الرحلة لها في المحطات التي يتزلون بها.
1. أنظر : ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد الطنجي)، " تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار"، ج.1، المكتبة التجارية الكبرى، ص ص . 192 و 193.

2. أنظر DEVISSE (J.), « Sidjilmasa », in « L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes », 1986, p.127.

3. أنظر LOMBARD (M.), op.cit, p.225.

4. زنير (محمد)، "تجارة القوافل في المغرب"، ص 182.

لن أكون مبالغة إن حاولت تحديد العدد بين ثمانية آلاف إلى اثني عشر ألفا بل أكثر بالنسبة للطريق الغربي الذي يمر بسجلماسة، و حجت في ذلك ما عرفته تجارة الذهب من ازدهار و إقبال كبيرين لكل دول المغرب و المشرق، إضافة إلى اهتمام كل القبائل الصحراوية بكافة المحطات التجارية التي تستقبله، و العناية الكبرى بالجمال الذي أصبح يشكل سفينة لا مثيل لها في مثل هذه الظروف. و لتحديد فترة الرحلة أقول أنه نظرا لأهمية البضاعة التي كانت القافلة تشد الرحال من أجلها، أي جلب ذهب السودان عند انطلاق القافلة في رحلتها يجب أن تكون الفترة المحددة لذلك هي وقت السحر، و تستمر حتى طلوع الشمس واشتداد حرها، لتتوقف في وقت العصر ثم تستأنف المسير إلى أن يحل الظلام، لتبدأ الرحلة من جديد عند بزوغ الفجر⁽¹⁾.

لقد ذكر الإدريسي هذه العملية بشكل واضح مشيرا إلى أن هذه الطريقة هي نمط " سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان، لأن الشمس تقتل بحرّها من تعرض للمشّي في القافلة عند شدة القيظ و حرارة الأرض"⁽²⁾. و نظرا لصعوبة المسلك باتجاه بلاد السودان كان اختيار فترة الرحيل من أهم الأمور التي كان التجار يولونها اهتماما كبيرا من أجل تفادي المخاطر واجتياز الصحراء بأمان. و الإشارة البسيطة التي ذكرها الإدريسي، أعطت توضيحا دقيقا للفترات الزمنية التي كانت القافلة تحددها لبداية السفر أو توقفه، كما فتحت مجالا واسعا لفروع دراسة تعتبر أساسا في حركة القوافل في الصحراء. هذه الدراسة تتمثل في علم الفلك الذي كانت مبادئه معروفة عند العرب الحضري، أما البادية فاقترنت على ما توارثته الأجيال بما يدرك بالعين، فكانت للعرب اهتمامات بالغة بعلم الأنوار لمعرفة حال الجوّ، وتساقط المطر التي تحمي الأرض، التي تتغذى منها إبلهم و ماشيتهم التي تقوم عليها حياتهم، إضافة إلى صلة هذا العلم الوثيقة بالنجوم، فكانوا يتأملون النجوم في السماء الصافية بالصحراء للاعتداء بها و لمعرفة أوقات الرياح⁽³⁾. خاصة

1. شنايت (العيفة)، "دولة بني مدرار سجلماسة و دور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري"، بحث لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، 1991/1990م، ص 146.

2. الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، ص 108.

3. عرابي (سمين)، "علوم الفلك و الرياضيات و الجغرافيا عند العرب و المسلمين"، ط 1، دار الكتاب الحديث، 1419 هـ / 1999م، ص 7.

تطلع أهل البادية إلى معرفة الكواكب الكبرى الثابتة، و مواقع طلوعها و غروبها، لأنهم كثيرا ما أظطروا إلى قطع الفيافي و القفار ليلا مهتدين برؤية الدراري، فلولاها لظلت جيوشهم و هلكت قوافلهم في الكثبان و البراري. و يؤكد ذلك في قوله تعالى " و هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر و البحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون " (1). و من بين أسماء الكواكب الثابتة التي كانوا يهتدون بها و التي بلغ عددها عند عرب البادية نحو أكثر من مائتي و خمسين كوكبا "الفرقدين" - "الدبران" - "الثريا" - "الشعرين" (2).

و إذا كانت القافلة تهتدي ليلا بالنجوم أي بالاعتماد على الكواكب الثابتة فلقد وجدتها تهتدي نهارا بنجم آخر يسمى الشمس و الذي ارتبط ضوؤه بتحديد مواقيت الصلاة والذي كان عرب البادية يعرفونه جيدا. و من بين أهم الأوقات التي كانت تعتمد عليها القافلة في سيرها وقت السحر، أو وقت الفجر، وقت الزوال أو القيلولة أو القائلة كما ذكرها الإدريسي (3) ثم فترة العصر. و لتحديد هذه الفترات فقهيا، اعتمد الأستاذ بونايطرو* على معطيات الشيخ العلامة محمد بن أحمد ميارة ** قائلا : "أن وقت العصر يبدأ بانتهاء فترة الظهر أي عند نهاية ظل العمود بفترة تكفي قضاء صلاة أربع ركعات. أما بالنسبة لوقت صلاة الفجر فيبدأ بالضبط عند ظهور الخيط الأصفر الذي يلي مباشرة الخيط الأبيض*** من الفجر". و الملاحظ هنا حسب قول الأستاذ بونايطرو دائما أن هذه الطريقة الفقهية المتبعة في تحديد مواقيت الصلاة، غير معمول بها اليوم، لأن التعاريف المعمول بها لتحديد وقت غروب الشمس و شروقها لا يعود إلى ظاهرة بزوع نور الشمس أو إختفائه و إنما يعود إلى ظهور سلسلة من النجوم، كل حسب قوة ضياءها. و من أمثلة ما قدم الأستاذ بونايطرو، أن وقت صلاة العشاء مثلا يعلن عنه مؤخرا بفارق زمني يختلف من فصل إلى آخر ففي فصل الشتاء يعلن عن صلاة العشاء بعد عشر دقائق من وقتها الفقهية، أما في الصيف فيعلن عنها بعد خمسة و ثلاثين دقيقة، و هكذا بالنسبة لصلاة الفجر.

1. سورة الأنعام، الآية 98.

2. نلينو (كارلو)، " علم الفلك - تاريخه عند العرب في القرون الوسطى -"، روما، 1911، ص. 107.

3. الإدريسي، المصدر السابق، ج. 1، ص. 108.

* الأستاذ بونايطرو لوط : باحث في علم الفلك، و مدير المرصد الوطني لعلم الفلك ببوزريعة/الجزائر.

** من أتباع المذهب المالكي و هو صاحب كتاب " الدار الثمين و المورد المعين"، الذي تناول فيه مواقيت الصلاة فقهيا.

*** الفارق الزمني بين الخطين أي الأبيض و الأصفر عشر دقائق. و نعني بالخيط، الضوء. و عن تحدي مواقيت الصلاة كاملة أنظر الملحق.

و يمكنني من خلال ما سبق ذكره، أن استنتج أن علم الفلك كانت له أهمية معتبرة في المعارف التي كان يتزود بها التاجر أو الدليل أو رجل البادية. كما كان علم الفلك من أهم العلوم التي أعطت للوقت قيمته و أعطت للحياة نظامها. و مازال العديد من الدارسين يبحثون عن السبل الحقيقية لهذا العلم الذي مازال يخفي أسراراً كثيرة عن القافلة و كيفية تنقلها في الصحراء خاصة في فترة العصور الوسطى أي فترة ازدهار العلوم الإسلامية التي أعطت لهذا العلم قاعدة رياضية وفيزيائية يصعب إهمالها. لتبقى هذه المعلومات الفلكية إحدى العوامل التي سهلت مهمة التجار في نقل بضائعهم، و عدم معرفتها يدفع التجار إلى مواجهة مخاطر الصحراء العديدة.

لم تنكر الحوادث اليومية التي تعيشها الصحراء الكبرى هذا الواقع، عندما يشار إلى فقدان السياح بظل الطريق و هلاك الأشخاص إما من شدة الحرّ و جفاف الجسم أو مما يسمى بالضربات الشمسية التي أكد العلم الحديث أن جسم الإنسان لا يقوى فعلاً على مقاومة الحرارة الشديدة، و لا شدة العطش أو الزوابع الرملية المهلكة، دون اللجوء إلى أي شكل من أشكال الوقاية.

من الروايات التي أشارت إلى عملية الوقاية إضافة إلى التي ذكرها البكري، أن التجار كانوا يسافرون في "خيم من الجلد" لكي لا يختنقوا من تلك الزوابع الرملية الشديدة⁽¹⁾. والاعتقاد يدفعني إلى القول أن هذه الخيم هي التي يطلق عليها بالعربية اسم "الهودج".

1. أنظر. MAUNY (R.), « Tableau géographique... », p. 403.

ولم تتوقف مخاطر الرحلات عبر الصحراء على ما ذكر سالفاً، بل تعداه إلى غارات القبائل الصحراوية التي تكون سبباً في تعطيل القوافل.⁽¹⁾ و بما أن معظم هذه المسافة عبارة عن مفاوز قليلة المياه و المراعي، أي عبارة عن كثبان رملية واسعة، غالباً ما تشكل مأوى للمعتدين الذين ينظمون غارات مفاجئة على القوافل التجارية⁽²⁾. و تجرد بذلك من محتويات ثرواتها، وغالباً ما يحدث هذا أثناء العودة، أي عندما تعود القافلة و هي محملة بالتير.

و من الروايات التي تثير الانتباه أيضاً، تلك التي ذكرها موني "MAUNY" نقلاً عن تاريخ الفتاش : " أن تلك الغارات كانت تتم بعد باختفاء المغيرين داخل البئر، و قطع جبل الدلو ليحرموا القافلة من التزود بالماء و بالتالي هلاكها بالعطش، ثم يتم السطو على ممتلكاتها"⁽³⁾، هذا ربما ما أدى إلى التحلي عن هذا الطريق حسب نص ابن حوقل حين يقول : " و فيها الطريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم و مفردتهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة. وقصدهم أيضاً العدو و أهلكتهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق و تركوه إلى سحلماسة"⁽⁴⁾. لذا أجد أن مسئولية الدليل، كانت صعبة و مهمة في آن واحد، أي أن ينجح في اختيار المسلك الصحيح و في اجتياز الصحراء دون تسجيل حوادث تعود بالخسارة على القافلة، و أن يحيط الرحال في المناطق ذات المراعي الكثيفة و أن ينتقل بين المناطق التي تحتوي على الماء، دون تعريض القافلة إلى أية عملية تثقل من تكاليف السفر، كذبح الجمال أو سرقة الثروات أو ضياع جزء من القافلة بسبب التيه في الصحراء. و في هذا الصدد كذلك يقول ابن حوقل : "من أوصاف هذه القبائل، المعرفة بأوضاع البر وأشكاله والهداية فيه و الدلالة على مياهه"⁽⁵⁾.

1. زنبير (محمد)، نفسه، ص 182.

2. أنظر. LOMBARD (M.), « les métaux dans l'ancien monde... », p.223.

3. أنظر. MAUNY (R.), « Tableau géographique... », p 402.

4. ابن حوقل، "صورة الأرض"، ص 98.

5. نفسه، ص 98.

و من الظواهر الطبيعية التي كانت القافلة تتجنبها أثناء اجتيازها لمفاوز الرمال المتحركة، و لا نستغرب أمرا كهذا في الصحراء الكبرى، خاصة و أنها تشكل جزء من مميزاتها الطبيعية و الخطيرة، والتي يعرفها البدو الرحل و تجار القوافل. و لقد دفعني التفكير في هذه الظاهرة ما ذكره البكري حينما وصف الطريق الممتدة من تامدلت إلى أودغشت قائلا : "من تامدلت إلى بير الجمالين مرحلة و هذه البير عمقها اربع قامات من أنباط* عبد الرحمن بن حبيب و منها إلى شعب ضيق لا تسير فيه الإبل إلا متتابعة مرحلة" (1).

هذا النص يؤكد انحراف القافلة عن طريق الرمال الواسعة و لجوئها إلى الممرات الضيقة و الصعبة المسلك، خاصة عندما يقول : "ثم تسير في جبل يسمى أزور ثلاثة أيام وهو محجر تحفى ** فيه الإبل" (2).

و هنا يدفعني الأمر إلى التساؤل عن الأسباب التي دفعت القافلة إلى أن تسلك هذا الطريق بالرغم من كونه محفوفًا بالمخاطر، تؤثر على الإنسان و الإبل معا ؟ و الجواب عنه يدفعني إلى الاعتقاد أن السبب يعود إلى أن هذا المسلك يعتبر الوحيد الذي يؤدي إلى أودغشت أو لأن مخاطره يمكن تفاديها مقارنة بمخاطر الرمال المتحركة، خاصة و أن الدراسات العلمية المختصة بالجمل اكتشفت أن هذا الحيوان عديم الذكاء، اعتمادا على عدة ملاحظات أشارت فيها إلى وضع الإبل التي تقع في شرك الرمال المتحركة دون أن تعمل على تفاديها كبقية الحيوانات الأخرى. فالرغم من رؤيتها لأول حيوان يقع فيها، إلا أنها لا تبذل أية محاولة لتجنب ذلك (3).

* هي الآبار التي بناها عبد الرحمن بن حبيب.

1. البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب"، ص.156.

** أي أن أظلاف الإبل تصبح طرية و غير صالحة للسير، هذا ما يجبر القافلة على التوقف لمدة يوم أو يومين لمعالجتها، لأن علاج الأظلاف يتم باستخدام القطران و قشور الرمان.

2. البكري، نفسه، أنظر كذلك دوفيس، T.1، «Tegdaoust – Recherches sur Audaghust-», par DEVISE (R.), SERGE (R.) et DEVISSE (J.), Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1970, p.33.

3. محمود (محمد عبد العزيز)، "الجمل العربي"، ص.42.

من المعقول جدا أن تتعرض هذه القافلة إلى مثل هذه المخاطر و هي في طريقها إلى السودان مجتازة المفاوز الكبرى، و السبب في ذلك يعود أولا إلى اجتياز هذه الرقعة الجغرافية، التي كثيرا ما أثارت مخاوف المغامرين و التي كانت دائما توحى بروح المخاطرة والمغامرة، إضافة إلى المدة الزمنية التي تقضيها القافلة في رحلتها، و هي شهرين كاملين حسب قول لومبارد "LOMBARD"، تكون فيها سرعة الجمل من 3 إلى 3.5 كلم/س^٣. لتقطع بذلك القافلة مسافة 35 كلم يوميا. أما المهري* الذي يخصص للتكشيف يقطع مسافة 120 كلم يوميا. هذا ما يجعله يسبق القافلة إلى أرض السودان^(١). و نعرف اليوم أن المسافة التي تربط بين تافيلالت و جنوب موريطانيا إلى غاية السنغال و مالي والنيجر، تعد بآلاف الكيلومترات لذا لا يجب على المرء أن يتعجب عندما تحصى مثل هذه المخاطر في مثل هذه البيئة، بقدر ما يستوجب التعجب من أولئك الذين اجتازوا هذه المفاوز.

و عن الأسباب التي دفعتهم إلى اجتياز هذه المخاطر، فإن كان الهدف هو الحصول على الذهب، لا يصعب علي مقارنتهم بأولئك الذين يخاطرون اليوم بحياتهم من أجل الكسب السريع، لكن هناك اختلاف كبير، و هو أن تجار البربر و العرب اندفعوا تحت راية الإسلام من أجل الكسب وفق نصوص هذه الشريعة، أما الكسب اليوم فهو مبني على أسس الحضارة المادية التي جردت التاجر من كل الأخلاقيات التي فرضها عليه المجتمع و مبادئ دينه الحنيف.

* اسم من الأسماء التي تغلق على الجمال، و المهرية، وهي المنسوبة إلى مهره ميدان و هو شيخ قبيلة. و من أهم هذه الأسماء : عايش و هو المستخدم في الحروب، و راحلة لنقل البضائع، و الهجن هو الجمل المستخدم في الركوب و السياح. كما يطلق على قافلة من الإبل أو مجموعة منها "القطار". و يعني هذا الاسم الحركة التجارية التي يقوم بها البدو على ظهور الجمال.

1. أنظر. p.224, « les métaux dans l'ancien monde... », LOMBARD (M.).

أما آخر مرحلة فتبدأ بدخول القافلة أرض السودان، تكون فيها القافلة قد اجتازت كل المخاطر كما تكون قد دفعت الحقوق للقبائل المشرفة على المسالك، وقللت من عدد جمالها التي نحرت و بقرت بطونها لشرب ما في بطنها من الماء بعد أن قل في الآبار وجف ما في القرب.

هذه المرحلة التي تبدأ بتحضيرات سكان مدن السواحل، مثل أودغشت التي تكون في انتظار القافلة بشغف و سرور، لما تحملها هذه القافلة من بضائع تبهر الناظر. بضائع الشمال التي ينتظرها السكان السودان لمدة سنة كاملة، الذين لا يتركون هذا الحدث يمر دون الاحتفال به باستخدام الطبل⁽¹⁾. هذه الوسيلة التي أصبحت تميز تجارة الذهب داخل إفريقيا⁽²⁾. و على مشارف الصحراء. هذا الاستقبال يتم على مسافة أربعة أيام على المدن الساحلية و يتم من أجل استقبال القافلة، بالماء، وما هؤلاء المشككين لموكب الاستقبال و المنظمين للاحتفال، إلا أصحاب تجار الشمال الذين يكون الدليل (التكشيف) قد أخبرهم مسبقا.

بعد دخول أرض السودان، و بعد رحلة دامت شهرين كاملين، تنقسم القافلة إلى قسمين، وهناك من يواصل الرحلة جنوبا إلى غاية مستودعات الذهب. و هناك من يواصل الرحلة من التجار ووكلائهم إلى الجنوب في مسيرة تستغرق 20 يوما، أي إلى غاية السينغال مثلا للمقايضة مع السكان المحليين، وهم عراة يعيشون في حفر* في الأرض. و تتم هذه العملية بواسطة التجارة الصامتة⁽³⁾. وهناك من يبقى ينتظر في تلك المراكز التجارية، (أودغشت، كومي صالح، جاو)، إلى غاية عودة الوكلاء⁽⁴⁾.

1. أنظر. LOMBARD (M.), « Les métaux dans l'ancien monde .. », p.224.

2. أنظر. MAUNY (R.), « Tableau géographique.. », p.403.

* و هي المواضع التي كانوا ينقبون فيها عن الذهب، عن هذا الموضوع، أنظر بوفيل "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.151 و 152.

3. حسن (ابراهيم حسن)، "انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية"، ص.75.

4. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.150.

لتعود القافلة فيما بعد، أي بعد إتمام كل الصفقات التجارية إلى مدن المغرب محملة بالتبر و البضائع الأخرى. لكن هذه المرة في مدة زمنية أقل، أشار إليها حسن إبراهيم حسن أنها تصل إلى شهر ونصف⁽¹⁾. كما يتقلص عدد جمال هذه القافلة حيث يكون أقل بكثير من عددها ذهابا، لأن التجار كانوا يبيعونها تفاديا لتكاليف رعايتها⁽²⁾.

عندما تطرقت إلى دراسة المرحلة الأخيرة من الرحلة التي تقضيها القافلة في أرض السودان راودتني أسئلة تتعلق بكميات الذهب التي كانت تنقلها القافلة أثناء عودتها مقارنة بضخامة حجمها ذهابا و تقلصه إيابا، هذا ما اقتضى مني التطرق إلى هذا العنصر في أحد فصول هذه الدراسة. لتكون بذلك القافلة قد حققت نجاحا كبيرا في خلق هذا النمط من التجارة عبر الصحراء بشكل يستدعي العناية أكثر من طرف الباحثين، لأن المعلومات المتواضعة التي ذكرت في هذا التحليل ما هي إلا بداية لدراسات تشعبت ميادينها وتنوعت مواضيعها.

1. حسن (إبراهيم حسن)، "انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية". ص.75.

2. أنظر : p.223. « les métaux dans l'ancien monde... », LOMBARD (M.).

3. الفتوحات الإسلامية

1. الفتح الإسلامي للمغرب

اكتمل الفتح و تحقق النصر بشرطين أساسيين و هما إرادة الله التي شاءت أن يخرج الإسلام من مكة لبلوغ أهداف لم يسبق أن حققتها أي ديانة سماوية من قبل، و تعاليم القرآن الإنسانية التي جعلت من القائد الفاتح ذلك الحريص على رسالة حاول إبلاغ مضمونها بكل ما يملكه من شجاعة و قوة و حنكة حربية و حسن الخلق. ليكون الرسول (ص) السباق في الاتصاف بهذه الخلق التي كان الإسلام لا ينشر إلا بها و لا يستقر إلا على أسسها، لأن الإسلام هو النعمة التي أتمها الله على عباده فكيف بإمكانه مخالفة مواصفات الإنسانية المثلى.

هذه النعمة التي أتمها الله على العرب بعد فتح مكة، أتمها أيضا على البربر بعد فتح شمال إفريقيا، التي أخذت من عقبة قدوة ليلغ الإسلام قلوبهم، فقرة إيمان عقبة الذي وهب نفسه للإسلام مع أصحابه لم تزد البربر إلا انفتاحا و ميلا هذا الدين الجديد الذي بسماحته وبساطته و إنسانيته اطمئن له القلب و ارتاح له البال و فتحت له أبواب مغفرة الله و ثواب الآخرة بدون مقابل عكس الديانات الأخرى⁽¹⁾.

1. مؤنس (حسين)، "الإسلام الفاتح"، ط1، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1408 هـ // 1987 م، 22 ص.

عدم فهم العديد من الناس و القراء لهذه الحقيقة، جعلهم يسلمون بفكرة أن فتح شمال إفريقيا لم يتحقق بفعل الاندفاع الذي يسببه الحماس الديني، بل بمجرد رغبة الفتح⁽¹⁾. وكثيرا ما يواجه الباحث مثل هذه الأحكام التي تصدرها العديد من الدراسات الغربية بشأن بعض النصوص العربية التي تشير إلى المراحل التي تم فيها فتح شمال إفريقيا. فتراجع بعض الفاتحين إلى الورا أو حصولهم على غنائم ما هي إلا وسيلة من الوسائل التي أستخدمها الإسلام قبل البدء في المراحل الحاسمة لفتح العديد من الأقاليم و التي بإمكاننا أن نسميها بمراحل جسد النبض.

لم يكن بناء قاعدة الفسطاط الجديدة من طرف عمرو بن العاص إلا سببا من أسباب فتح برقة، لتأمين هذه القاعدة و حماية المكاسب العربية بمصر، و لم يكن توقيف الخليفة عمر لمواصلة عملية الفتح، سوى خوفا على مصير المسلمين في أرض بجهولة⁽²⁾، و تأكيدا على أن الفتوحات الإسلامية لم تكن جزافية، ليس من باب خدمة مصالح القادة الفاتحين و لكن من باب توطيد الأركان الصحيحة لعملية الفتح. أما مصالحة ابن أبي سرح بطريق إفريقية على ألفي ألف دينار وخمسين مائة ألف دينار⁽³⁾ مقابل انسحابه سنة 92 هـ/710 م تدخل في إطار حملة الغنائم⁽⁴⁾، التي أكسبت بيت مال المسلمين أموالا طائلة.

و كان لنجاح الفتوحات الإسلامية لأقطار المغرب حوالي سنة 750 م أن جعلها تحت سيطرة العرب بالرغم من وجود بعض المعارضات من طرف الأهالي⁽⁵⁾. هذا النجاح الذي يرجعه البعض إلى ظروف البلاد و إلى طبيعة المسيحية فيها و إلى طيبة أهلها ثم إلى سياسة الدولة الأموية التي أتمت الفتح و أدخلت البلاد في نطاق الدولة الإسلامية⁽⁶⁾.

-
1. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير" ط.2، (ترجمة الهادي أبو لقمة و محمد عزيز)، منشورات جامعة قار يونس، بن غازي، 1988، ص. 115.
 2. لقبال (موسى)، "المغرب الإسلامي"، ط.2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1981، ص. 18.
 3. البلاذري (أحمد ابن يحيى جابر)، "فتوح البلدان"، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، 1956، ص. 268.
 4. لقبال (موسى)، نفسه، ص. 21.
 5. أنظر : DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique Occidentale française », 2^e éd. Paris, Librairie Delagrave, 1937, p.50.
 6. حسن محمود (أحمد)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، حسن محمود (أحمد) و حسن محمود (مكي)، ط.1، القاهرة، 1419 هـ / 1999م، ص. 75.

كما نجد أن بعض الباحثين قد رد سهولة فتح شمال إفريقيا إلى عوامل عدة أكثر تفصيلا من سابقاتها، فمنها الحضارية، انطلاقا من مفهوم أن العرب بدؤوا، ومن شأن البدو التغلب على الحضارة.

أما العوامل البيئية تتمثل في التقارب و التشابه بين بيئة العرب الفاتحين وبيئة المغرب و إفريقيا، حيث لم يواجهوا أي حاجز من شأنه أن يعرقل عملية الفتح التي انطلقوا فيها، إضافة إلى العامل الاجتماعي الذي رأى فيه العرب رابط النسب و الصلة مع البربر، مما سهل عليهم الاندماج الاجتماعي دون أن أنسى العامل النفسي أو العنصري اللذين كان لهما أثر في تسهيل عملية الفتح⁽¹⁾.

من البساطة أن يحكم على هذه العوامل أنها شيء بديهي يحدث و الأقاليم التي تفتح، لكن بالنسبة للمغرب هناك ما يميزه خاصة إذا حاولت إدراج العامل الاقتصادي هذا العامل الحساس الذي جعل الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب تسيل الخير الكثير، عندما تترن هذه العبارة بمصطلح الغنيمة أو الثروة، حيث تصبح المحرك الأساسي لمعظم عمليات الفتح التي عاشتها المنطقة، و أكثر من ذلك عندما يتعلق الأمر بفتح السودان.

وإن حاولت طرح هذه المسألة أجد نفسي بين نصيرص تؤكد من جهة أن فتح شمال إفريقيا لم يكن سوى مرحلة من المراحل التي مرت بها عملية نشر الرسالة المحمدية ونصوص غربية من جهة أخرى، التي وضعت تصورا كاملا لأسباب فتح المسلمين للسودان الغربي، هذا التصور الذي يتمثل في أن المسلمين الفاتحين كانوا يعرفون مسبقا ثروات السودان الغربي التي تشمل معدن الذهب، لتفسر بذلك حملات الفتح التي شهدتها هذه المنطقة على أنها تهدف إلى الاستيلاء عليها و استغلال ثرواتها لصالح المسلمين.

1. الكعي (المنحي)، "أسباب توطيد الإسلام بإفريقيا و المغرب"، "مجلة الثقافة"، السنة الرابعة عشرة، العدد 84، 1984، ص ص. 55 و 57.

وهذا ما فسرّه الباحثون عند دراسة العامل الاقتصادي و هو أن البدو ، كغيرهم ، عندما يكونون في جفاف و فقر، يبحثون عن ثروات و عن خيرات، ليرز بذلك الدافع الاقتصادي القوي على حساب الدافع الديني الضعيف و كأنما ليس هو الأساس⁽¹⁾.

و من الصعب إصدار مثل هذه الأحكام على دخول الإسلام إلى إفريقيا والسودان الغربي خاصة لأن ذهب السودان لم يكن السباق إلى خزائن المسلمين حيث كان هناك ذهب مصر و سوريا و بلاد فارس، و كنوز الكنائس و الأديرة و المقابر الفرعونية القديمة إضافة إلى استغلال المسلمين للمناجم القديمة بآسيا (لقوقاز، أرمينيا، سواحل الهند، إفريقيا الشرقية و النوبة)⁽²⁾.

ب. الفتح الإسلامي للسودان :

إن الكلام عن السودان و فتحه، يدفعني للعودة إلى أول احتكاك للعرب بهذه المناطق (السودان الغربي)، و هذا انطلاقاً من نظريات مؤكدة سلمت بها كل الدراسات العربية منها والغربية، على أن معرفة جنوب الصحراء لم تأت إلا على يد العرب⁽³⁾.

لكن قبل مجيء العرب فتحت الصحراء أبوابها للبربر بعد دخول الجمل إلى شمال إفريقيا انطلاقاً من القرن الثاني بعد الميلاد لتشهد بعد ذلك تربية الجمل توسعاً لا مثيل له، على يد قبائل لمتة، لمتونة، جزولة، و المثلثون⁽⁴⁾. هذه القبائل البربرية التي عرفنا كم كان لها دور كبير في توسيع نشاط تجارة القوافل عبر الصحراء و ربط شمال إفريقيا بالصحراء الكبرى، خاصة الجزء الغربي منها المتمثل في السودان.

1. الكعي (المنجي)، نفسه، ص 56.

2. إسكندر (توفيق)، " بحوث في التاريخ الاقتصادي"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، المقدمة، ص 4.

3. زنير (محمد)، " تجارة القوافل في المغرب"، في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث و الدراسات العربية، بغداد، 1404هـ / 1984 م، ص 165.

4. أنظر : LOMBARD (M.), « Les métaux dans l'ancien monde », 207 p.

هذا ما يدفعني إلى ذكر الدور الذي لعبه المرابطون في فتح السودان و نشر الإسلام فيه و توسيع حركة التجارة بينه و بين المدن الصحراوية التي كانت تشكل المحطات التجارية المغربية الكبرى. هذا التوسع البربري نحو الجنوب يبرز بشكل واضح ما بين القرن الرابع و الثامن للميلاد، حيث تم الاتصال بالسودان الغربي بالقرب من منعطف نهر النيجر أو ما يسمى بنيل السودان⁽¹⁾.

إلا أن الأهم في هذه الدراسة يتمثل خصوصا في فتح العرب و البربر هذه الرقعة الجغرافية و جعلها فيما بعد ملحقة اقتصادية إسلامية. لقد صعبت علي المقارنة بين النصوص التي تؤكد أن سبب توجه العرب نحو السودان مصدره معدن الذهب، و النصوص التي تجعل من حملات عقبة تأكيدا على طبيعة الدعوة الإسلامية العالمية التي دفعت الفاتحين إلى التوغل في كل الجهات، منها الصحراء الإفريقية التي لم تشكل حاجزا على العرب الفاتحين الذين تعودوا على حياة الصحراء و متاهاتها⁽²⁾.

و من بين هذه النصوص، تلك التي تشير إلى أن العرب قبل القرن الثامن للميلاد كانوا على دراية تامة أن غانة هي بلاد الذهب من خلال نصوص مصادر كل من الفزاري، اليعقوبي و ابن الفقيه و غيرهم. و لتبرير هذه الأحكام تتم الإشارة إلى تلك الحملات التي وجهها عقبة جنوب طرابلس و المغرب الأقصى ما بين 44 و 62 هـ / 664 و 681 م⁽³⁾.

1. Ibid, p.207.

2. زنيير (محمد)، "تجارة القوافل في المغرب"، ص 165.

3. أنظر : LOMBARD (M.), op.cit, 207 p.

إلا أن المتتبع لعملية فتح عقبة ابن نابع لكل من فزان و كوار يكتشف أنه لم يقصد الحصول على ثروة الذهب و لا حتى البحث عن مواقعه، بل كان هدفه تأديب الملوك و فتح ممالكهم للإسلام. و يقول البكري في هذا الصدد : " سار بنفسه في أربع مائة فارس و أربع مائة بعير و ثمانمائة قربة ماء حتى قدم ردان و افتتحها و أخذ ملكهم فجدع أذنه فقال لما فعلت هذا و قد عاهدني المسلمون، قال أدبا لك إذا أمسست أذنك ذكرت فلم تحارب العرب". و عن ملوك كوار يقول : " فمضى أمامه على قصور كوار فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها و فيه ملكها فأخذه و قطع أصبعه فقال لما فعلت هذا بي قال أدبا لك إذا أنت نظرت إلى أصبعك ذكرت فلم تحارب العرب" (1).

أما الصوص التي تشير إلى فتح السودان انطلاقا من السوس و درعة هي التي كانت محل نقاش العديد من الدراسات، خاصة تلك التي تشير إلى تأسيس سجلماسة عام 728م وتنظيم أول غارة عربية على السودان سنة 734م بقيادة حبيب ابن أبي عبيدة الفهري، الذي أنجز الطريق الرابط بين تامدلت و أردغشت خلال 745م (2).

لكن توجه حبيب ابن أبي عبيدة هذا من السوس نحو الصحراء باتباع طريق لمتونة الذي يصل بين درعة و أدرار و من موريانيا ليصل إلى السودان فسر حسب أهداف العديد من الدراسات فغالبيتها أرجعتها إلى رغبة العرب في الاستحواذ على ذهب غانة بعد التأكد من أنها فعلا هي أرض الذهب، و دليلها في ذلك هو عودة حبيب ابن أبي عبيدة بعد غارته على السودان بكميات معتبرة من الذهب (3). لكن هذا لن يكفي لتقبل مثل هذه الأحكام، ويستوجب الأمر من إدراج العوامل الأخرى التي من شأنها تفسير الوضع بشكل مخالف. و الملاحظ هنا هو عدم تقبل هذه العوامل لوحدها لإصدار مثل هذه الأحكام، لذا يجب العودة إلى إلى عوامل أخرى من شأنها أن تزيد الأمر وضوحا.

1. البكري، "العرب في ذكر إفريقيا و المغرب"، ص.13.

2. MAUNY (R.), « Tableau Géographiques... », p.521.

3. MAUNY (R.), « Les siècles obscurs de l'Afrique Noire », librairie Arlème Fayard, 1970, 141 p.

و من أهم هذه العوامل نجد :

- عالمية الدعوة الإسلامية التي استهدفت كل الأقطار؛
- تأقلم العرب و بيئة الصحراء و التي لم تخالف بيئة شبه الجزيرة العربية موطنهم الأصلي؛
- سرعة انتشار الإسلام بين القبائل البربرية؛
- قوة إمبراطورية غانة و عدائها للقبائل البربرية .

و تكامل هذه العوامل حسب رأيي يظهر بارزا بعد ظهور المرابطين و دخولهم إلى السودان و نشر الإسلام هناك. و التزعة الدينية لهؤلاء الملتزمين أراها استمرارية لعملية فتح عقبة للسودان من جهة، و تأكيدا على أن الجانب المادي يأتي في المرتبة الثانية بعد تحقيق الهدف الديني.

4. أهم إمبراطوريات المغرب و السودان الغربي

أ. إمبراطورية المرابطين

إن الكلام عن المرابطين يدفعني إلى إثارة عدة مواضيع، لعبت فيها هذه الدولة دورا فعالا جعلها تعطي لظهورها هذا طابعا خاصا ، يختلف كثيرا عن بنية الدول المستقلة التي عرفها المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة ما بين القرن 3-5 هـ الموافق لـ 9-11 م، و من أهم هذه المواضيع التي يرتبط ذكرها بالمرابطين، موضوع الفتوحات الإسلامية الذي يعتبر النقطة الحساسة في تاريخ المغرب الإسلامي . ذلك أن هذه الفتوحات التي انطلقت من مفاوز الصحراء الكبرى قد أعطت دفعا جديدا و تكملة للفتوحات التي باشر فيها العرب بعد فتح شمال إفريقيا، هذا من جهة. و من جهة ثانية، طابع الدعوة التي جاءت بها هذه الحركة في استكمال عمليات الفتح نحو الجنوب، أي إفريقيا الغربية، خاصة منها منطقة السودان الغربي التي تعيش بظهور المرابطين تحولا جذريا عن تلك العملية المسالمة لعمليات الفتح و التي حسب رأيي تعود إلى طابع التجار الإباضيين الذين كان هدفهم قبل كل شيء هو الاستقرار ثم البحث عن امكانية استغلال ثروات البلاد من الذهب و ترويج التجارة لتأتي بعد ذلك الدعوة، التي كان يحملها التاجر يوميا في مظهره و طريقة معاملاته مع الأفارقة. هذا ما دفع العديد من المؤرخين و النصوص الغربية إلى محاولة تقسيم الإسلام في إفريقيا الغربية إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى:

و هي ما قبل القرن 11 م، و الثانية بعده، أي بعد قيام دولة المرابطين الذين جاءوا فيها بالحرب المقدسة التي قطفت ثمار العمل الطويل و الدؤوب للتجار الذين سبقوهم، و الذين

كانوا يخشون توسع المرابطين الذين حسب رأيهم أوشكوا أن يجهضوا التوازن السياسي والاقتصادي للمنطقة و أن يحدثوا اضطرابا في التدخل البطيء الذي كانت تعيشه مؤسساتهم الدينية والتجارية، لكن سرعان ما تتظافر الجهود في وحدة متكاملة من أجل الانطلاق في الغزو الروحي للمجتمعات السودانية (1).

بالفعل جاءت حركة المرابطين بمثابة دفع جديد لعمليات الفتح التي انطلقت فيها القادة العرب الفاتحون. و يبرز هذا في دعوة عبد الله بن ياسين عند دعوة أتباعه لمواصلة الجهاد ومحاربة المنكرات والتي أمثلها بدعوة عقبة ابن نافع في بناء القيروان، و دعوة طارق ابن زياد في محاربة المسيحيين. و تتمثل دعوة عبد الله ابن ياسين في مضمون هذا النص : " اخرجوا على بركة الله تعالى و انذروا قومكم، و خوفوهم عقاب الله، و أبلغوهم حجته، فإن تابوا و أنابوا، و رجعوا إلى الحق و أقلعوا عما هم فيه فأخلوا سبيلهم، و إن أبوا ذلك و تمادوا في غيهم و لجوا في طغيانهم استغثنا بالله تعالى عليهم و جاهدنا هم حتى يحكم الله بيننا" (2). و كان لقبيلتي لمتونة وجدالة* الدور الكبير في نشر الإسلام بين سكان السودان الغربي، لما تتميز به من حماس ديني في تحويل الناس إلى الإسلام، و قوة بدنية ميزتهم عن بقية سكان شمال إفريقيا. و هي ميزة امتاز بها فيما بعد تقريبا كل سكان الصحراء. و تعود قوة سكان الصحراء إلى عدة عوامل منها نمط المعيشة كما يذكر البكري : " طعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب و السمن و شراهم اللبن، قد غنوا به عن الماء يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماء و قوتهم مع ذلك مكينة و أبدانهم صحيحة" (3). هذه الصفات جعلت الإنسان يتأقلم مع بيئة الصحراء، كما تعتبر عاملا من عوامل نجاح الرجل المغربي عامة و البربري خاصة عند ممارسة

1. TRIAUD (J.L.), « Islam et Sociétés soudanaises au moyen âge », Paris, Recherches Voltaïques 16, CNRS, 1973, P.61.

2. حسن (إبراهيم حسن)، "انتشار السلام في ما يلي الصحراء الكبرى"، قسم الدراسات التاريخية و الجغرافية، 1957، ص 6.

* جدالة و لمتونة، من شعب صنهاجة الجنوب، المثلثين.

3. البكري، المصدر السابق، ص 170.

النشاط التجاري و الاستمرار في نشر الإسلام داخل المغرب و خارجه، ليكون المرابطي رجلا من هاته الجماعة التي انطلقت شمالا و جنوبا مبرهنا على عدم وجود ما يسمى بالخواجز الطبيعية والبشرية التي من شأنها توقيف الرغبة في إقامة الدين وإصلاحه أو الرغبة في إقامة الحضارة وتوسيعها. و لم تتوقف دولة المرابطين عند حد معنى الرباط الذي هو أساس نشأتها بالدفاع عن دولة الإسلام و حمايته بتجميع العباد المجاهدين على الحدود و تجهيزهم بالعدد و العتاد⁽¹⁾، بل توسعت مشاريعها شأنها في ذلك شأن كل الدول الإسلامية في مشارق الأرض و مغاربها. فبمجرد أن يتحقق الفتح أو الإصلاح يظهر التوسع في المنشآت العمرانية والحضارية.

و لقد حاولت في هذا الجانب التركيز أكثر على الحياة الاقتصادية و التي من شأنها إبراز الدور الحقيقي للمرابطين في توفير الشروط الحسنة التي ستسمح لذهب السودان أن يسلك طريقه شمالا بالغا كل أهدافه. كما تجب الإشارة إلى مدى استغلال الدولة لذهب السودان الذي ساهم مساهمة فعالة في تقوية نفوذ هذه الدولة و إبراز شأنها داخل المغرب و خارجه. و أول إشارة ستكون موجهة لقوة التجارة المرابطية، و التي تنطلق من سيطرة قبائلها الرئيسية على مساحات شاسعة من الصحراء وتحكمها في الطرق التجارية العالمية. و من أهم هذه القبائل قبيلة لمتونة التي لم تقاوم خضوعها للمرابطين⁽²⁾ و التي كانت تحتل موقعا ممتازا بسيطرتها على الطريق التجاري الذي يسير بمحاذاة البحر المحيط، و التي كانت ساعدا أيمنا في تنشيط حركتها التجارية و نموها الاقتصادي خاصة كونها المشرفة على طريق غانة (مصدر الذهب)، الذي هو ضمن ديارها، لتكتب لها السيادة على القبائل جميعا بعد وفرة المال و العدد و احتلال الموقع الممتاز⁽³⁾.

1. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ج4، المرابطون، ص. 183.

2. نفسه، ص. 185.

3. حسن (عمود أحمد)، "قيام دولة المرابطين"، ص. 46.

لكن هذا لم يقلل من شأن قبيلة جدالة، التي كانت أول من غزاها المرابطون كونها أقرب مواطن صنهاجة إلى الرباط و المهدي الأول لعبد الله ابن ياسين⁽¹⁾. هذه القبيلة التي اتخذت من أوليل مركزا لها حيث يكثر الملح الذي تنقله القوافل شمالا و جنوبا، كانت هي الأخرى أقوى القبائل باتجاه الجنوب، إلى غاية مصب نهر السنغال، كما كانت هي أوفر مالا و أكثر استقرارا لقربها من بلاد السودان و لانفتاحها على أهم المواقع الاستراتيجية التي كان معدن الذهب يسلكها باتجاه الشمال حيث تقرب من غانة و سغانة و أودغشت و طريق سجلماسة⁽²⁾.

إضافة إلى مسوفة التي تعتبر أكبر قبائل الصحراء الملتصين الصنهاجية⁽³⁾ و ما ميزها كذلك هو سيطرتها على الطريق الحيوي للتجارة السودانية، حيث تمتد في منطقة قاحلة تقع بين سجلماسة في الشمال و أودغشت في الجنوب لتصل ببعض بطونها إلى غاية تادمكة و كوكو شرقا⁽⁴⁾ لن تزيد هذه القبائل الثلاث التي تحول رجالها من مربي الجمال و العيش على نتاجها إلى المحاربين في سبيل الله، سوى دفعا عسكريا و اقتصاديا لدولة المرابطين، خاصة بعد أن أصبحوا أبطال الإسلام المعرض للانحصار و مدافعين عن تعاليمه المقدسة و حكاما على مجال مزدوج، المجال الأوروبي و المجال الإفريقي⁽⁵⁾.

إن تحقيق المرابطين لهذا النجاح التجاري الذي سوف يصبح بمثابة قوتهم الاقتصادية إضافة إلى المراكز و الطرق التجارية التي كانت تحت سيطرة القبائل السالفة الذكر يظهر بشكل

-
1. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ص 185.
 2. حسن (محمود أحمد)، "قيام دولة المرابطين"، ص 47.
 3. زغلول، نفسه، ج 4، ص 196.
 4. حسن (محمود أحمد)، المرجع السابق، ص 47.
 5. مارسيه (جورج)، "بلاد المغرب و علاقاتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى"، (مراجعة أبو ضيف أحمد)، الإسكندرية منشأة المعارف، ص 265.

واضح الأهداف التي دفعتهم إلى ضم المركزين الأساسيين للتجارة عبر الصحراء، و هما : سحلماسة و أغمات، التي كان من الضروري ضمها إلى حظيرة المرابطين، فبعد 446هـ/1054م- 1055م. و بعد الاستيلاء على سحلماسة توجه يحيى ابن عمر و عبد الله ابن ياسين نحو أودغشت للاستيلاء عليها. ليكون بعد ذلك للمرابطين السيطرة و المراقبة الكلية على النقل التجاري للقوافل عبر الصحراء، إضافة إلى أن الإستيلاء على أودغشت و سحلماسة يعد انتصارا في المجال السياسي و الديني و الاقتصادي على حساب السودانيين و قبائل زناتة. و يزداد هذا الانتصار توسعا بعد الاستيلاء على اغمات في 71 من ربيع الثاني من عام 450 هـ الموافق لـ 1058م، والتي تعتبر من أهم المدن ثراء باعتبارها أكبر مركز تجاري كانت تستفيد منه قبيلة زناتة ومغراوة⁽¹⁾. إضافة إلى أنها ذات علاقات و ثقة مع سحلماسة (باب تجارة السودان)، و مدينة فاس حيث يمر الطريق بينهما بعدد من المراكز التجارية المزدهرة مثل بلد زواغة الذي يجمع فيه تجار فاس و البصرة وسحلماسة و مغيلة و أوزقور التي يسكنها ربيعة الأندلس و ورزيغة⁽²⁾.

و مما زاد من التفوق الاقتصادي للمرابطين تلك السياسة التي انتهجوها في المجال المالي خاصة عندما أبطل يوسف بن تاشفين كل الضرائب التي فرضت على المغرب الكبير ما عدا الزكاة، لأنها من فرائض الإسلام إضافة إلى الخراج و الجزية من أهل الذمة و خمس غنيمة الحرب، و هذا ما شجع التجار الذين أقبلوا على ممارسة أعمالهم التجارية في حدود الواجبات التنظيمية والدينية منعا للاستغلال و الاحتكار و الغلاء و أعمال الربا⁽³⁾.

1. أنظر : LAGARDERE (V.), « Les Almoravides jusqu'au règne de Yusuf b. tasfin : 1034-1106 », L'harmattan, Paris, pp.61-69.

2. زغلول (سعد)، المرجع السابق، ص. 509 .

3. نجيب (زبيب)، "الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس"، (ت: أحمد بن سودة)، ط1، بيروت، لبنان، دار الامير للثقافة والعلوم، 1995، ص. 241.

و نظرا لملاءمة الحياة الاقتصادية لكل الإنجازات السياسية و الدينية، ذهب العديد من المحللين إلى تفسير أن أسباب دخول المرابطين إلى السودان كانت أهدافا مخططة مسبقا وهذا في قولهم أن تحديد الأهداف الاقتصادية و البحث عن تحقيقها لن يأتي إلا بالبحث عن طريق نشر دعوة دينية أو تنظيم غارة عسكرية. و ما الانهزامات التي تكبدتها إمبراطورية غانة على يد أبو بكر ابن عمر سوى تفسير آخر على أن حملة المرابطين لم يكن لها هدف سوى الصراع من أجل احتكار طرق الذهب السوداني⁽¹⁾.

و دليل هذه الكتابات يستنبط من الإنجاز الأكبر الذي عرفته هذه الدولة على أرض المغرب، بعد أن توسعت حدودها شمالا و جنوبا، و الذي يتمثل في سك العملة من هذا المعدن الخالص أي ذهب السودان الغربي، علما بأن هذا الذهب لن يغذي مراكز ضرب العملة في المغرب الإسلامي فقط بل كل من مراكز الضرب بإسبانيا و أوروبا عامة، إضافة إلى أنه سوف يسمح بربط علاقات اقتصادية بين كل من السودان الغربي و المغرب و العالم المسيحي⁽²⁾. و أنشأ بذلك مركز لسك النقود في أود غشت أقربها من السودان حيث يسود الذهب عليها بكثرة عن طريق القوافل المتجهة شمالا⁽³⁾. و بعد الاستفادة الكاملة من ذهب السودان الذي تجمع عندهم بكثرة، ضربت الدنانير الذهبية ذات العيار الممتاز في سجلماسة، و أغمات و مراكز فاس و نول لمطة و تلمسان، التي اكتسبت شهرة دولية.

1. أنظر : CISSE (D.A.), « Histoire Économique de l'Afrique Noire - Economie et Societes Medievales de l'Afrique Noire Subsaharienne - de 622 a 1794 Tome I, Paris, L'Harmattan, 1980, pp.18.

2. Ibid, pp.22.

3. محمود (السيد)، "تاريخ دولة المرابطين والموحدين"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1999، ص.110.

بين مدن الغرب المسيحي ابتداء من القرن 11م. و لعل السبب يعود إلى أن الذهب الذي ضربت منه هذه الدنانير هو أجود أنواع الذهب و أنقاها أي ذهب غانة⁽¹⁾ كما سبق و أن تطرقت إلى تصنيفه.

إن شيوع هذه الثقة في الدينار المرابطي ضمن التجارة الدولية لا يعود فقط إلى نقاوة هذا المعدن المستخدم، بل إلى ارتفاع قيمته الشرائية و ثباتها، بسبب كثرة التداول و المعاملات، فوصل إلى القسطنطينية و كاد أن يصبح عملة دولية لانتشاره الواسع، و يذكر ابن قربة في مقاله هذا أن التجار المغاربة الوافدين على الإسكندرية كانوا يحرصون على أن يتقاضوا أثمان سلعهم بالدنانير المرابطية، كما أنه ثمة وثيقة صينية مؤرخة سنة 583 هـ/1187م تقول أن Mulapni، وهي محرفة عن كلمة مرابط بالعربية تعني المركز التجاري لأقطار المغرب الأقصى⁽²⁾. هذا ما جعل فعلا سنة 464هـ/1072م و هو العام الذي ضرب فيه الدينار الذهبي المرابطي على يد أبي بكر ابن عمر، و كأنه عام تأسيس للدولة المرابطية في شكلها المدني، خلافا عن دولة عبد الله بن ياسين و خلفائه و هي الدولة الفقهية البدوية⁽³⁾. و استطاعت هذه الدولة خلال عشر سنوات وبفضل هذا الدينار المرابطي، أو كما يسمى " Marabutine " أو " Marabutino " أو " Maravedi " إعادة إحياء اقتصاد الغرب المسيحي ليتأكد هذا بعد النهضة التي عاشتها تجارة العالم الإسلامي والمشاركة الفعالة للدينار في الحركة النقدية، والاختفاء الشبه الكلي للعملة النحاسية، و هذا بقولهم أن العملة الذهبية الجيدة قد طردت العملة النحاسية السيئة⁽⁴⁾.

1. ابن قربة (صالح)، "انتشار المسكوكات المغربية و أثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى"، في "سلسلة الندوات

والمناظرات"، رقم 48، الرباط، منشورات كلية العلوم الإنسانية، ص 175.

2. زغلول (سعد)، المرجع السابق، ج 4، ص 261.

3. CISSÉ (D.A.), « Histoire économique... », p.25.

4. Ibid, p.25.

و إن كان هذا الانتصار الذي حققه المرابطون في المجال الاقتصادي خاصة النقدي و التجاري منه، من بين الأهداف التي دفعهم إلى غزو السودان، فلا حرج في القول أنهم كانوا على حق و لو ولد ذلك بين جوانبهم الطمع و حب المال. و إن التحمس الشديد الذي دفع المسلمين إلى توجيه حملاتهم ما بين 116هـ/734م و 133هـ/750م، نحو السودان، و التي اعتبرها بعض المؤرخين أشد المغامرات خطرا من الحملات التي قادها سبتينيوس فلاكس و يوليوس ماترنس على طول الطريق الأيسر إلى فزان ⁽¹⁾، كان بمثابة التأكيد على أن الوازع الديني و لو اقترن بحب المال لا يتخلى عن مبادئه الأصلية، و انتشار الإسلام في السودان الغربي و دخول أقطاره تحت سيادة العالم الإسلامي، يشير إلى أن المجد الذي حققه هذا العالم في المجال المادي ما هو إلا مرحلة من المراحل التي مرت بها الفتوحات الإسلامية في مختلف الأمصار، كل حسب ظروفها و عواملها البشرية والمادية.

1. بوفيل، " تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير "، ص. 132.

ب. إمبراطورية غانة

لم يعد تاريخ غانة و إمبراطوريتها ذلك التاريخ الغامض الذي يصعب تحليله أو دراسته بسبب ندرة المصادر و المراجع التي عالجت الموضوع، حيث أصبح من الممكن اليوم البحث في تاريخ هذه المنطقة بعد ظهور الدراسات الأثرية و كذلك الروايات و كتب الرحلات التي تناولت تاريخ المنطقة بشكل يثير الإعجاب و الفضول العلمي. و من بين المؤلفين الذين أشاروا إلى غانة في كتب رحلاتهم أو مؤلفاتهم، ابن حوقل⁽¹⁾ خلال القرن 10 م، البكري⁽²⁾ في القرن 11 م، الإدريسي⁽³⁾ في القرن 12 م، ياقوت الحموي⁽⁴⁾ في القرن 13 م، ابن سعيد المغربي⁽⁵⁾ في القرن 13 م، ابن خلدون⁽⁶⁾ في القرن 14 م. و يعتبر كتاب البكري من أهم المصادر العربية التي أفادتني بمعلومات قيمة حول غانة و معدن الذهب و عادات و تقاليد أهلها، إضافة إلى بعض مميزات وضعها الاقتصادي⁽⁷⁾. هذا الوضع الذي كان فيه معدن الذهب أساس نشأته و قوة ملوكه⁽⁸⁾.

-
1. ابن حوقل، "صورة الأرض".
 2. البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب"، جزء من كتاب المسالك و الممالك.
 3. الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق".
 4. الحموي، "معجم البلدان".
 5. ابن سعيد المغربي، "كتاب الجغرافيا".
 6. ابن خلدون، "العبر".
 7. البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب"، جزء من كتاب المسالك و الممالك، ترجمة دي سلان، باريس، 1965، ص.174.
 8. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent Africain ... », p.85.

عاصرت غانة الواقعة بين نهر السنغال و النيجر، عدة ممالك منها :

- جاو،
- الهوسا،
- اليروبا،
- صوصو،
- كانمبو،
- التكرور غربا،
- الماندينج جنوبا.

والملاحظ هنا أن معظم هذه الممالك لم تحض بذكر واسع في المصادر العربية⁽¹⁾، و اقترن اسم غانة في جل المصادر العربية بمعنى اسم الذهب الذي شاع انطلاقا من القرن الثامن و التي لم تكن في الواقع سوى مملكة محتكرة للطرق التجارية و ليست منتجة للذهب⁽²⁾. ويذكر حسن ابراهيم حسن نقلا عن القزويني : " أن التجار يدخلون من غانة إلى بلاد التبر، و لولاها تعذر عليهم ذلك " ⁽³⁾.

إن أصل كلمة غانة لم يفصل فيه لحد الآن، فهناك من الدراسات من أعادته إلى تسمية لقب ملوكها كايا ماغان * " Kaya Maghan "، و التي تعني ملك الذهب أو سيد الذهب⁽⁴⁾، و تشير المصادر العربية في هذا المعنى قائلا : " غانة سمة للملوكها " ⁽⁵⁾.

-
1. أنظر : CISSOKO (S.M.), « Histoire de l'Afrique occidentale – Moyen âge et temps modernes », Présence Africaine, Paris, 1966, P.6.
 2. أنظر : POSNANSKY (M.), « The Origins of West African Trade », Ghana University press, Accra Tema Ghana, 1971, P.5.
 3. حسن (إبراهيم حسن)، " انتشار الإسلام و العروبة فيما يلي الصحراء الكبرى "، قسم الدراسات التاريخية و الجغرافية، 1957، ص 205.
 4. كايا ماغان : ترادف كلمة : إمبراطور أو الرجل المحارب.
 5. JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », P 85.
 6. الحميري (محمد عبد المنعم)، " الروض المعطار في خبر الأقطار "، (ت: إحسان عباس)، ط.2، مكتبة لبنان، 1984، ص 426.

و يذكر سيسوكو "Cissoko" نقلا عن الخوارزمي، في معنى آخر : " أن اسم غانة كان يعني بلاد السودان" (1). و من جهة أخرى أطلق عليها أيضا اسم مملكة "الواجادو"، نسبة إلى الاسم الأول الذي كان يلقب به كبار آلهتهم "واقادو بيدا"، " Wagadou Bida " وهو الإله الشعبان الذي كان يحمي قبائلهم و يحرس كنوزهم و ثرواتهم، ويعمنحهم بركات السعادة والنجاح والتقدم (2). ولا يزال هذا الاسم " بيدا " " Bida " إلى يومنا هذا يطلق على الفتيات في هذه المنطقة.

بالرغم مما سبق ذكره، فإن معنى كلمة غانة لم يفصل فيه نهائيا، و مازال الشك قائما حول أصلها. فبعض الدراسات الحديثة تضيف معنى آخر هو " أغانا"، الذي هو في الأصل تسمية بربرية تعني المناطق التي تفتقر إلى الغطاء النباتي و التي تشير إلى المناطق الساحلية لقبائل السونينسك، و الحجة التاريخية في ذلك هو أن هذا الاسم أعطى ميلاد بلاد غينيا " Guinée " خلال العصور الوسطى (3). و الأهم في ذلك هو أن الحاكم أو الإمبراطور كان يلقب بتونكا " Tounka " الذي يعني الأمير، كما كان يلقب أيضا ماغا " Magha " أو (ماغان) " Maghan " الذي يعني السيد، أو (كايا ماغان) " Kaya Maghan " الذي يعني (سيد الذهب) أو (سيد الإقليم)، ويسمى أيضا " Ghana " غانا الرجل المحارب و هذا الاسم الأخير أصبح ثابتا أو توسع ليشمل كل الإمبراطورية " أي إمبراطورية غانة". و بالنسبة لعاصمتها، يقول أحمد شلي : " إذا كانت غانة القديمة تقع جنوبي موريطانيا الحالية، فإن عاصمتها كانت تسمى " كومي " ولقد كشفت الأبحاث الأثرية على أطلال مدينة بالقرب من كومي صالح* يعتقد أن تكون كومي عاصمة غانة القديمة (4).

1. CISSOKO (S.M.), op.cit, P.8.
2. جوزيف (جوان)، "الإسلام في الممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء"، ترجمة مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية، ط.1، 1984، ص 37.
3. GHANA, in Encyclopédie « Universalis » France, S.A.1999. p.4.
4. شلي (أحمد)، "موسوعة التاريخ الإسلامي"، ج6، ط.5، مكتبة النهضة المصرية، 1990، ص.102.

ولم يكن تحديد معنى كلمة غانة فقط مثار جدل المؤرخين، بل حتى ظهور هذه الإمبراطورية و تاريخ بدايتها و أصل سكانها مازال محل نقاش وبحث. و يبقى بذلك تاريخ إمبراطورية غانة من الدراسات التي تحتاج إلى مزيد من البحث والتمحيص.

يكن أصل الجدل في أن تأسيس غانة يعود إلى جماعة من البيض وفدوا من الشمال أصلهم من صنهاجة⁽¹⁾، و يذكر " Delafosse " في هذا الصدد : " أن تأسيسها يعود إلى الجماعات السامية التي هاجرت من منطقة "دياكا" "Diaka" * أو "مسينا" " Masina " باتجاه منطقة "أوكار" **, لتتصل بجماعات "الونقارة" "Ouangara" التي مكثت في المنطقة قرونا عديدة، لتأتي جماعة سامية أخرى من منطقة توات، لتشكل مستعمرة ذات أهمية قبل اتخاذها موطنًا من طرف الونقارة و التي تعطي ميلاد جماعات سراكولي "Sarakolli" التي أسست في أوكار خلال الألف الأولى للميلاد ما يعرف بغانة، و التي كان أول ملوكها من البيض⁽²⁾. ومن المؤرخين من أعاد أصولها إلى الفرس، ليذهب البعض إلى القول أن هذه الجماعات من اليهود الذين هاجروا إلى هذه المناطق عقب تدمير الإمبراطور تيطس للمعبد*** و طرد اليهود من فلسطين⁽³⁾.

و في الفترة الإسلامية أي عندما دخل العرب إلى غانة عام 116 هـ/734 م كان الحكم في يد البربر، و بعد مقتل آخر ملك بربري حكم غانة حوالي سنة 174 هـ/790 م، خلفه ملك الواجادو **** أحد عناصر السونينك، من قبيلة سيسى " CISSÉ "، و في عهده توسعت الإمبراطورية لتشمل المناطق الواقعة شمال السنغال، ونهر النيجر، حتى تخوم الصحراء،

1. شلي (أحمد)، نفسه، ص. 103.

* دياكا : تقع غرب نهر النيجر.

** أوكار : تقع بين غانة و أودغشت.

2. DELAFOSSE (M.), « Histoire De l'Afrique Occidentale Française », p.56.

*** وقع ذلك سنة 7 م.

**** يدعى تونقارة " Tounkara " بواسطته وحدث كل قبائل السونينك.

ليزداد هذا التوسع اكثر بعد 380م/ 990 م ، بعد الاستلاء على أود غشت*، التي كانت عاصمة مملكة إسلامية تحكمها قبيلة لمتونة البربرية⁽¹⁾. وهذا الانتصار يسجل قوة غانة** وتوسعها، حيث أصبحت تشرف على مناجم الذهب في جالام " Galam " او على التكرور غربا ، إضافة إلى المناطق المجاورة لكل من جني " Djenné " وتومبكتو و على بعض القبائل البربرية في الصحراء⁽²⁾.

قوة غانة الاقتصادية :

قبل الإجابة على السؤال الاقتصادي المتمثل في ازدهار غانة و نمو ثروتها، لا بد من العودة و لو بشكل موجز إلى أهم التنظيمات التي ميزت سلطة غانة و جعلتها تتفوق اقتصاديا على بقية الممالك الأخرى لفترة طويلة من الزمن. و أول ما يمكن الإشارة إليه هو التنظيم العسكري، الذي استبعد كل احتمال وقوع هجوم إسلامي على الإمبراطورية قبل ظهور المرابطين. و يظهر هذا واضحا خاصة بعد حملة الحبيب ابن أبي عبيده عام 116 هـ/ 734م، حيث استطاعت غانة بواسطة سلاح الفرسان أن تضمن السيطرة الكلية على كل المناطق التي استحوذت عليها، خاصة على تلك الجماعات السكانية التي لم تعرف بعد كل التنظيمات الحديثة⁽³⁾.

* مدينة تقع بين صحراء لمتونة و السودان، تبعد عن غانة بإثنى عشر مرحلة، و عن ورقلة بإحدى و ثلاثون مرحلة، و عن سجلماسة بنحو خمسين مرحلة.

1. شلي (أحمد)، "موسوعة التاريخ الإسلامي"، ج.6، ص.105.

** قدر جيشها بنحو 200 ألف محارب، و يتشكل من 40 ألف من رماة السهام.

2. JOLLY (J.), « Histoire du continent Africain », T1, P.108.

3. GHANA, in « E.U », P.4.

أما التنظيم الإداري فكان مميزا حيث قسمت الإمبراطورية إلى مقاطعات وممالك " كديارا " و " صوصو " إضافة إلى قرى و نواحي. و كانت الممالك تسير من طرف ملوك إقطاعيين. كما كانت هذه الممالك تدفع لهم الضرائب و تقدم لهم الجيوش المحاربة. وهناك أمراء من الأسرة الحاكمة يسيرون ممالك إقطاعية أخرى ⁽¹⁾. بهذه الطريقة استطاع الملك أو الإمبراطور الغاني أن يؤسس الإمبراطورية و يسيرها بإحكام، خاصة كيفية حصوله على ثروة الذهب. تشير بعض المصادر العربية إلى مملكة غانة قائلة : " و لملك غانة مملكة واسعة نحو شهرين في مثلها، و في بلاده يوجد الذهب الكثير و هو يعم جميع بلاد الدنيا، و أفضل الذهب بمملكته ما كان ببلد " غيارو " ⁽²⁾.

واستقطبت هذه الثروة التي كانت من الأراضي المجاورة لغانة إليها التجار العرب و البربر حيث كانت حياة هؤلاء تتوقف على طبيعة النظام الذي كان يسود الإمبراطورية. وكانت عملية دفع الضرائب للإمبراطور تضمن لهم الأمان و حسن الضيافة ⁽³⁾.

و بالتالي لعب هؤلاء التجار دورا هاما في النمو التجاري و كانت غانة التي لعبت الدور الوسيط بين مناطق الذهب جنوبا و الملح شمالا، لا تملك الذهب في أراضيها، بل كان يستخرج من بامبوك في أعالي الفاليم و بوري أعالي النيجر ، و كانت تعتمد على تجار السونينك الذين كانوا يحتكرون الذهب و الذي بواسطتهم يصل إلى التجار العرب و البربر الذين ينتظرونه في مدن الساحل، كأودغشت مثلا ⁽⁴⁾.

1. CISSOKO (S.M.), « Histoire de l'Afrique occidentale... », P12.

2. الحميري، " الروض المعطار في خبر الأقطار "، ص.462.

3. DAVIDSON (B.), « The Growth of African civilisation », p.39.

4. Ghana, in « Encarta 2000 » p. 5.

و ازدهار غانة في هذا المجال يدفعني إلى ذكر مدينة أودغشت التي لعبت دور الوسيط المميز على طريق الذهب و الملح، و التي دفعت ملك غانة في نهاية القرن العاشر أن يستولي عليها⁽¹⁾، لتشكل بعد ذلك همزة وصل بين عالم حوض المترسط و إفريقيا. وكان هذا الموقع يدر لها أرباحا طائلة سمحت لها خلال القرن الحادي عشر أن توسع من نشاطاتها الاقتصادية، خاصة منها الزراعة، التجارة و الحرف التي أصبحت تميز حياة غانة فيما بعد⁽²⁾. كما ربطت هذه المدينة علاقات جيدة مع الحكم المغربي في سجلماسة، حيث كانت تصدر العنبر و التبر و الصمغ و بعض المصنوعات الجلدية، و تستورد الملح و الحلي و النحاس⁽³⁾. أما التجار العرب و البربر فكانوا ينقلون بدورهم العديد من البضائع إلى أسواق غانة، كالأقمشة، الملح، التمور، التين المجفف والصدف، إضافة إلى النحاس وبعض الحلي⁽⁴⁾.

و من أهم المدن التي كان يستقر فيها التجار البربر، غنديورو " Gandiorou " التي تقع بالقرب من مدينة كايس " Kayes "، حيث كان يلتقي فيها تجار البربر و تجار الونقارة، واشتهرت بتجارة الذهب و الرقيق لتصبح خلال القرن 12 م، مركزا لاستقرار العديد من العائلات الإسلامية. دون أن أنسى مدينة بريسه - سيلا " Barissa-Silla " التي عرفت هي الأخرى ازدهارا في تجارة الذهب و ملح أوليل ولرقيق⁽⁵⁾.

1. أنظر. « Les mémoires de l'Afrique des origines à nos jours », p. 184.

2. أنظر. CISSOKO (S.M.), op cit, p. 15.

3. أنظر. JOLLY (J.), op cit, p. 108.

4. أنظر. DELAFOSSE (M.), op cit, p. 58.

5. أنظر. CISSOKO (S.M.), op cit, p. 20.

و من خلال ما ذكر يمكن لي أن أستنتج أن غانة استفادت من عدة عوامل ساهمت في بروزها منها : سيطرتها الشبه كلية على تجارة الذهب التي سمحت لها أن تصبح أعظم إمبراطورية عرفتها إفريقيا الغربية خلال العصور الوسطى. كما يمكن أن أقول أن وفود التجار العرب والبربر على هذه الإمبراطورية، ساهم بشكل كبير في رفع إنتاج الذهب و تدعيم خزائن هذه الإمبراطورية بهذا المعدن الثمين، من خلال الضرائب التي كان يفرضها ملك غانة على هؤلاء التجار أثناء إجتيازهم لأراضيهم. كما استطاعت إمبراطورية غانة أن تتصل بعالم بحر الروم، الذي استفاد هو الآخر من ذهب السودان الغربي، و الذي ساهم بشكل كبير في تفسير الحركة التجارية خلال العصور الوسطى. و في الأخير يمكن أن أستنتج أيضا أنه بالرغم من قوة هذه الإمبراطورية، إلا أنها سرعان ما سقطت تحت ضربات المرابطين، الذين أظهروا منافسة شديدة لغانة، خاصة بعدما استرجعوا أودغشت سنة 446 هـ/1054 م و توسع نفوذهم إلى غاية مناجم الذهب بيامبوك⁽¹⁾.

ولقد قيّم بوفيل سقوط هذه الإمبراطورية قائلا : " إن الإمبراطورية الإفريقية الكبرى التي ظهرت في العصور الوسطى تختلف عن الدول الحديثة التي تنظم الأمم حيث لم تكن متجانسة"⁽²⁾، و يضيف أيضا نقلا عن ترمينغهام : " أنها تجمع غير منتظم من جماعات مرتبطة بالقرب ليس لها إلا القليل من الأمور المشتركة، ما عدا الاعتراف الأسطوري بسيد أعلى، هم تابعون له و هو بعيد عنهم، بحجة عدم امتلاكها لحدود دقيقة، و لأن الحاكم لايعني السيطرة على الأرض بقدر ما يعني العلاقة التي تربطه بالتجمعات الاجتماعية التي يمكن أن يأخذ منها الرجال في وقت الحروب بأخذ منها الخدم للعمل في قصره و مزارعه و إبقاء مخازن حبوبه مملوءة"⁽³⁾. و هذا ما دفعها لتنشأ بسرعة و تتوسع قبل أوانها ثم تتلاشى، و ينطبق هذا على إمبراطورية غانة بالرغم من طول فترة حكمها، ثم مالي و السنغاي أخيرا.

و مهما تعددت التحاليل و الرؤى حول إمبراطورية غانة، فإنه لا يمكن أن أنكر أنها سجلت بأحرف من ذهب تاريخ السودان الغربي و علاقاته بالمغرب الإسلامي بمنافستها الشديدة للمرابطين مع احتكارها للجزء الأكبر من مناجم الذهب التي عرفها السودان الغربي.

1. أنظر : DELAFOSSE (M.) , op.cit , p.59.

2. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.11.

الفصل الثاني

معدن الذهب و الأهمية
الاقتصادية للمغرب

1. - ذهب السودان الغربي

- أ. تعريف معدن الذهب
- ب. مواطن ذهب السودان الغربي
- ت. طرق استخراجة

2. - التنافس المغربي على مسالك ذهب السودان

- أ. الأغالبة
- ب. الرستميون
- ت. الفاطميون
- ث. المرابطون

3. - معدن الذهب و سك النقود

- أ. ذهب السودان و العملة المغربية
- ب. الدينار الذهبي المغربي

4. - مراكز ضرب الدينار الذهبي المغربي

- أ. سجلماسة
- ب. أغمات
- ت. تلمسان
- ث. سبتة
- ج. مراكش

1. ذهب السودان الغربي

أ. تعريف معدن الذهب و مصطلح التبر

قبل البدء في تعريف معدن الذهب من الجانب العلمي و العودة إلى خواصه الكيميائية، التي تميزه عن بقية المعادن الأخرى، لا بد من العودة إلى التاريخ و ما سجله ولو باختصار عن هذا المعدن، الذي اعتبر المحرك الأساسي لكل الحضارات، القديمة منها أو الحديثة⁽¹⁾. حيث ارتبط هذا المعدن بالطقوس و المعتقدات التي اعتبرت الذهب واقيا من قوى الشر. و من جهة أخرى كانت الرغبة في البروز. تظهر السلطة و الثراء من بين العوامل التي ألهمت رغبة الإنسان في الاستحواذ على هذا المعدن النفيس.

أن تاريخ الذهب، هذا المعدن الذي يسمى في اللغة العربية "النظار"⁽²⁾ أو "العسجد"، يدفعني إلى أن اطرح تساؤلا سبقني إليه العديد من الدارسين لهذا الموضوع. وهو كالتالي : من علم رجل "Cromagnon" أن يزين حليه المصنوعة من الأصدا ف و أسنان الحيرانات منذ 30.000 سنة ق.م. بهذه العدسات الصفراء اللون⁽³⁾ التي سيطلق عليها يوما ما اسم الذهب أو النظار ؟

إن حدة الدهشة تخف عندما أجد أن الفراعنة قد جعلوه منذ 2700 سنة رمزا للأسرة الحاكمة: بعد أن أبدعوا في طرق استغلاله، ليصبح معدنا مترونا بالآلهة المعبودة وسلطة الملك⁽⁴⁾. لذا يجب أن يزين كل رموزه من آواني و تحف وأوسمة ليتطور و يصبح فيما بعد رمزا للحياة الأبدية أي الخلود بتغليف جثث الموتى و الأواني التي ينسجها الفرعون معه إلى العالم الخفي متيقنا أن الذهب سيبعد كل مكروه قد يصيبه أو قد يحل بأحد أفراد الأسرة الحاكمة.

1. أنظر SÉROUSSI (R.), «L'Histoire de l'Or », Paris, éditions France-Empire, 1998, p.45.

2. أبو الحسن (ابن على الحكيم)، " الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة"، ص.22.

3. أنظر LEPIDI (J.), « L'OK », Paris, 6^{ème} éd, Que sais je ?, Presse Universitaire de France, 1997. p.5.

4. أنظر SÉROUSSI (R.), cp.cit, p.40.

إن هذا الاهتمام الذي حظي به معدن الذهب عبر التاريخ تؤكد الحفريات وكذا الكتابات القديمة، منها الخط الهيروغليفي هو الآخر منح مكانة لهذا المعدن حيث يرمز الطوق الذهبي إلى الجمال والقوة.

و كما استمر الإنسان في التمسك بهذا المعدن و التنقل بين أسرة الأنهار القديمة و الحديثة من أجل التقاط تلك الحبيبات البراقة، استمر أيضا في الإبداع و التفنن ليجعل منه تحفة ليست كبقية التحف تجلب الأنظار و تبهر العقول، مالكة روح كل من يقترب منها أو يكتسبها. هذا ما تؤكد المعتمدات الإفريقية التي تعتبر الذهب جانا يسكن جسد الفرد الذي يعثر عليه و يلزمه إلى أن يفارق الحياة، بل حتى و هو في قبره ⁽¹⁾. كما سجل التاريخ براعة "Phidias" ⁽²⁾ الذي خلّد مجد الإغريق من خلال التحف التي غلفها برقائق الذهب، و من أهمس تلك الأعمال : تمثال "Athéna" و "Zeus" سيد الآلهة.

أما بالنسبة للرومان، فقد اتخذ معدن الذهب عندهم شكلا مميزا نوعا ما وهذا بتطور نظرة المجتمع إلى معدن الذهب بعد آلاف السنين من اكتشافه، فالمساييح الزيتية المغلفة بالذهب والأواني الذهبية أو الحلي ذات شكل الزواحف، لا تعني سوى نبل العائلة ومدى غناها وتميزها عن بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى ⁽³⁾.

وفيما يخص المسلمين، فقد ورد ذكر الذهب في مواقع عديدة و اقترن ذكره دائما بمظاهر القوة و السلطان و حب الدنيا. و من ذلك قوله تعالى : "زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطر المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسرمة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا و الله عنده حسن المآب" ⁽⁴⁾.

1. أنظر MEYER (L.), « Les Métaux précieux dans l'art d'Afrique noire », Paris, Ed. Sépia, 1997.

2. فيدياس : أكبر نحّات الإغريق خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ذكرت العديد من المصادر أن هذا الأخير قام بتحويل كمية كبيرة من الذهب المخصص لتمثال أثينا لصالحه، فانهى به الأمر إلى الموت داخل السجن.

3. أنظر SÉROUSSI (R.), « op.cit », p.59.

4. سورة آل عمران، الآية 14.

أن التاريخ يؤكد هذه الحقيقة، فبعد استحواذ المسلمين على مصادر الذهب الموجودة في بلاد فارس وكنائس المسيحيين وأهرامات الفراعنة، إضافة إلى الذهب الإفريقي عامة عظمت شوكتهم وتوسع سلطانهم وبرزت قوتهم بين الأمم و الديانات السماوية الأخرى فأسسوا إمبراطورية سياسية مترامية الأطراف تمتد من المحيط الهندي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، مطبوعة بتفوق اقتصادي جعل الأمة الإسلامية جمعاء تستفيد من نور هذا الدين الجديد. وما سلك عملة من معدن الذهب إلا دليل على وفرة وحسن استغلاله من طرف، هذه الإمبراطورية، التي سرعان ما نشب النزاع بين العديد من إماراتها سواء من أجل الإشراف على مسالكه أو تجارتها، وهذا ما عاشه المغرب الإسلامي طيلة فترة ازدهار تجارة معدن الذهب⁽¹⁾.

لقد أردت من خلال هذه الإشارات التاريخية الإجابة عن بعض الأسئلة التي شغلني منذ أن توسعت في عناصر بحثي، ألا وهي العودة ولو باختصار إلى بدايات هذا المعدن والتي تعددت حوله الآراء و تعددت فيه المصادر التي تشكل دراسات ذات أهمية لمن أراد فعلا العودة إلى ذلك. لكن بالرغم من أن الموضوع تاريخي، إلا أنه لم يمنعني من العودة إلى الدراسات العلمية لتحليل جانب من جوانب هذا المعدن وهي عديدة ومتشعبة.

و إنجاز هذا العمل اقتضى مني البحث عن أهم المؤسسات التي تهتم بهذا المعدن من الجانب العلمي، فكان الجواب متمثلا في العودة إلى إحدى مخابر الوكالة الوطنية لتحويل الذهب و المعادن الثمينة "AGENOR" التي استطاعت من خلال الشروحات التي قدمت لي، أن أصل إلى ما كنت أبحث عنه، والذي لم يختلف كثيرا عن تلك الاستنتاجات التي توصلت إليها كل الدراسات التي اهتمت بمعدن الذهب و خواصه الكيميائية أو غيرها.

كانت توجيهات هذه الوكالة علمية دقيقة، دفعتني إلى الغوص في عالم الذرات و الإليكترونات خاصة بعد دخولي إلى المخبر واتصالي بالمهندسين المختصين في الكيمياء الذين قدموا لي شروحات كافية جعلتني ألقى الجواب عن السؤال التالي : لماذا يمتاز معدن الذهب

1. انظر LOMBARD (M.), « Les bases monétaires d'une suprématie économique- L'Or musulman du VII^e au XI^e siècle », in Anales : A.E.S.C, économies – sociétés – civilisations, 2^{ème} Année, avril – juin 1974, n° 2, Librairie Armand Colin, pp. 143.

عن بقية المعادن الأخرى بالرغم من فلتها في الطبيعة و غلاء ثمنها، كالألماس و البلاتين ؟ فكان الجواب أن الذهب معدن طبيعي، لونه أصفر، براق، عنصر فلزي، رمزه الكيميائي "AU" و هي مقطوعة من اسمه اللاتيني "Aurum".

و هو أليّن معدن موجود في الطبيعة، و هذا ربما ما جعل البشرية تهتم به أكثر من المعادن الأخرى، لأنه يمكن طرقه و هو بارد. وقد قيل قديماً أن الذهب أبقي جواهر الأرض، أي لا يفسد، كلما بقي تحت الأرض صلب و طاب، وكلما دخل النار تخلص و حسن ⁽¹⁾. هذا القول لا يختلف في شيء عما تطرقت إليه كل الموسوعات و الكتب العلمية المؤلفة للموضوع. و يذكر البستاني نقلاً عن القزويني في هذا الصدد : " إن النار لا تقدر على تغريق أجزائه و لا يلبى بالتراب، و لا يصدأ على طول الزمن ... " ⁽²⁾.

من أجل هذه الخواص نشأ ما يسمى في العصور الوسطى بـ "الكيمياء" أو "الخيمياء"، هذا العلم الذي يهتم بتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، التي ظهر في العصور الوسطى، و يظن الكثير من الكيميائيين أن ذلك ممكن، و هذا بتغيير نسب التراب و النار*، فيتحول النحاس إلى ذهب ⁽³⁾، أي بعد أن تفننت البشرية في استغلاله، لكن هذه المرة في محاولة لإنتاجه بشكل اصطناعي.

إن الذهب يدين بالكثير من خواصه الفيزيائية و الجمالية ليونته، و مقاومته للكيميائيات و كذلك لكثافته**. فهو ذو لون أصفر جميل و بريق معدني أحاذ، و سهل تحويه بسبب ليونته هذه. و يصف العلماء بأنه قابل للسحب في شكل أسلاك رقيقة، لسهولة طرقه و تحويله إلى ألواح رقيقة ⁽⁴⁾. و بشأن هذه العملية فإن التكنولوجيا الحديثة أصبحت تتحكم فيها و بشكل دقيق، فبالإمكان سحب مئات الأمتار من أسلاك الذهب من واحد غرام ذهب.

1. الحكيم (أبي الحسن بن علي)، "الدوحة المشتبكة"، ص.46.

2. البستاني (بطرس)، دائرة المعارف، ج.8، ص.380.

* المادة، مزيج من أربع مواد أساسية هي التراب و الماء و الهواء و النار، هي فكرة إغريقية أيونية قديمة.

3. ساقان (كارل)، "الكون"، (ت: نافع أيوب لبس)، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، طبعة 1993. ص.193.

** كثافة معدن الذهب، يقصد بها أن حجم 1 كلغ من الذهب أقل من واحد كلغ من الفضة.

4. الموسوعة العربية العامة، الجزء العاشر، الذهب، ص.646.

هذا المعدن الذي يهر الملوك و الفنانين أصبح يهر اكثر العلماء الذين رأوا فيه معدنا واسع المجال في الاستخدامات الطبية والصناعية، ليس فقط لأنه ذو مقدرة على مقاومة الصدأ و التغيرات الكيميائية الأخرى التي تحدث بفعل الهواء⁽¹⁾، بل لأنه أيضا معدن ناقل للحرارة و الكهرباء فهو كهربائي إيجابي بنسبة قليلة، كما انه لا يتفاعل مع الأكسجين الجوي عندما يسخن ولا مع غالبية المواد المذيبة.

يذوب الذهب في محلول "Chlorure, Bromure et les Iodures" و في بعض المحاليل المؤكسدة أي خليط الحوامض مثل : حامض الكلوريدريك و حامض النيتريك "Acide Nitrique et acide Chlorhydrique". ومن مواصفاته أيضا انه يذوب في الدرجة المئوية ° 1064، و يغلي في الدرجة ° 2807، بكثافة تقدر 19.3 و كتلة ذرية تقدر ب 196.97⁽²⁾. أما بالنسبة لمجالات استعماله فأقول أن اكبر كميات الذهب المستخرجة، تستخدم في ضرب العملة، أو صناعة الحلبي أي الصياغة، و هنا أجد أن الذهب يمزج أو يخلط بالمعادن الأخرى كالفضة و النحاس، ليصبح أكثر صلابة، ويسمى هذا الخليط سبيكة و سبائك الذهب تقاس بالقيراط والقيراط يساوي واحد من أربعة و عشرين جزءا، وهكذا فإن الذهب 24 قيراط هو الذهب الصافي أو النقي⁽³⁾.

و النقود المصنوعة من الذهب تحتوي علي 90 جزء من الذهب و 10 أجزاء من فلز آخر أي الفضة⁽⁴⁾. أما الذهب المستخدم في المجوهرات فيحتوي على النحاس و الفضة. ومن بين أهم هذه الأنواع التي نجدها في معدن الذهب بعد خلطه بفلزات أخرى : الذهب الأبيض : وهو الذي يحتوي على الزنك و النيكل أو معادن من مجموعة البلاتين "PLATINE"، و في هذه الحالة يستخدم كثيرا كإطار للأحجار الكريمة في الخواتم و الأطقام⁽⁵⁾. ومن أنواع الذهب حسبما حكاها الحرفيون القدامى أحمر و اصفر و اسود الظاهر واحمر باطن و هي كلها من الثقل.

-
1. الموسوعة العربية العامة، نفسه، ص.644.
 2. أنظر. «Or, in Encyclopédie « Encarta 1998 »
 3. الموسوعة العربية العامة، ص.645.
 4. نفسه، ص.649.
 5. أبو الحسن (ابن على الحكيم)، "الدوحة المشتبكة..."، ص.30.

إلا أن استخداماته في المجال الصناعي قد تطورت كثيراً، فلقد برز في مجال الصناعات الكهربائية و الإلكترونيات و بخاصة في الدوائر المطبوعة و الموصلات، و على الأخص في شبه الموصلات المصنوعة من السليكون المطلي. كما يستخدم في تغطية النوافذ الزجاجية، من أجل التقليل من الأشعة تحت الحمراء. أما البائلك الذهبية فإنها تستخدم في معدات القياس و القياسات الحرارية. إضافة إلى حاض "Chloraurique" الذي يستخدم في مجال التصوير من أجل استخراج الصور الفضية⁽¹⁾.

لقد توصلت لحد الآن لاستنتاج أن معدن الذهب قد تعددت مجالات استعماله، وكثر الاهتمام به، خاصة من الناحية الطبية، و لم يكن أتصوره بنفس حجم الاستخدام الصناعي والفني. ففي المجال البيولوجي اهتم العلماء بنظير معدن الذهب الذي هو محل البحث الطبي إلا أن الذهب الإشعاعي يستخدم فيما يسمى بـ: "scintigraphie hépatique" أي في عملية الكشف عن الأمراض التي تصيب الكبد⁽²⁾. أما الميدان أكثر شيوعاً هو طب الأسنان الذي ما زال الطلب عليه مستمراً و بشكل مكثف. و الجدير بالذكر أن الرومان قد سبقوا الطب الحديث في هذا المجال بآلاف السنين. فلقد توصلوا إلى استبدال الأسنان بالذهب منذ أكثر من 2000 سنة. و في هذا النوع من العلاج يلجأ الأطباء إلى استخدام رقائق الذهب و الأنواع الأخرى، كما يستخدم في حشو الفجوات، وصنع الجسور و التيجان⁽³⁾. كما أثبتت دراسة حديثة لجون فوكلر من فرع الكيمياء بجامعة تكساس، أن بعض شذرات الذهب تنتج عندما يصيبها الضوء إشعاعاً فلورياً يدوم مليون مرة مدة أطول من التي تشع خلالها المعادن الأخرى. هذا الاكتشاف الذي لا يزال سببه غير مفهوم، له تطبيقات مذهشة في المجال الطبي خاصة في علم الجينات والكيمياء. حيث أن إشعاع مثل هذه الشذرات يغير من لونها تبعاً لطبيعة الذرات المحيطة به⁽⁴⁾.

-
1. الموسوعة العربية العامة، ص. 650.
 2. أنظر. « Or, in Encyclopédie « Encarta 1998 ».
 3. الموسوعة العربية العامة، ص. 650.
 4. أنظر « Le mystérieux éclat de l'Or », in Science & vie, numéro 1001, février 2001, p.15.

و بالتالي يمكن الكشف عن وجود عناصر كيميائية حتى لو كان تركيزها ضعيفا. هكذا فإدخال الذهب في خلية حية يمكن بفضل أشعته، تحليل المكونات الكيميائية و الكشف عن أمراض محتملة ⁽¹⁾. فمعدن الذهب لا يستهان به في مجال الطب. إضافة إلى هذه الاستعمالات، نصح علماء الكيمياء القدامى باستعمالات عديدة لمتثبت عدم صحتها بشكل قاطع. و من هذه الموصفات: إذا امسك الذهب في الفم، يزيل البخار. و إذا ثقت الأذن بإبرة من ذهب لم تلتحم. و من كوي به لم ينقط *، و إذا اكتحل به، حدّ البصر ⁽¹⁾.

في المجال الفني برهن التاريخ على أن الإنسان قد اهتم بعملية "التذهيب" أو ما يسمى بالطلاء الذهبي و هذه العملية تتمثل في وضع رقائق الذهب الرفيعة ثم يضغط عليها ثم تصقل لتثبيتها. و هذه العملية تجعل و كأن الأشياء أو التحف فعلا مصنوعة من الذهب، ولذا لجأ إليها الإنسان منذ ما يقرب من 5000 سنة. كما لجأ العرب قديما إلى استخدام الذهب في فن الكتابة بتحليل أوراق هذا المعدن بالعسل و إضافة الصمغ المحلول له بعد تصفيته، ثم يلجأ للكتابة به ⁽²⁾.

هكذا بإمكاننا القول أن الذهب توسعت مجالات استخدامه، فمن المجوهرات إلى العملة و من الزخرفة إلى الطب إلى علم الطيران و الفضاء. غير أن أهم شيء يمكن أن أضيفه والذي مازال يثير اهتمام العديد من رجال الكيمياء، الذين كانوا دائما يبحثون عن طرق استخراج الذهب بشكل اصطناعي، و الذي تحققت فيه أهدافهم عندما توصلوا إلى استخراج الذهب من ماء البحر، حيث تم الحصول من طن واحد من ماء البحر و بعملية كيميائية بسيطة على قمحة من الذهب، و يعتقد العلماء أن ما هو ذائب منه في البحر يزيد عما استخرجه الناس من الأرض ⁽³⁾.

1. أنظر : Le mystérieux éclat de l'Or », in Science & vie, n° 1001, p.15.

2. لم يترك أثرا أو بقعة في الموضع.

3. أبو الحسن (ابن علي الحكيم)، المرجع السابق، ص.39.

4. الموسوعة العربية العامة، ص.650.

5. دائرة المعارف، الجزء الثامن، الذهب، ص.382.

إن عملية استخراج الذهب تضع المنقبين أمام سؤال يتوقف على الإجابة عليه
ثراؤهم الفاحش أو ترددهم في أحضان الفقر المدقع.

هذا السؤال المهم، يتمثل في القدرة على تمييز الذهب الحقيقي من الذهب الوهمي.
فكثير صدّقوا ما حسبه ذهباً و لكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن أحلامهم في الثروة قد تبخرت
عندما تبين لهم أن ما اعتبروه ذهباً لم يكن في الحقيقة إلا معدناً أصفر لا قيمة له. هذا المعدن الذي
بات يعرف بالذهب الموهوم ما هو في حقيقة الأمر سوى معدن البيريت. و لما كان معدناً أصفر
اللون و ذا بريق متألق فإن من السهل الانخداع به و ظنه عرقاً من الذهب الفطري، أي الموجود في
الطبيعة بحالة صافية و غير متحد بغيره.

و ثمة سبب آخر يوقع المنقبين في الخطأ و هو أن الذهب الفطري نفسه غالباً ما يوجد
حيث يوجد البيريت. و الذهب الفطري يوجد بصورة رئيسية في عروق الكوارتز و كتل البيريت
و بعد أن تبلي المياه و الرياح الكوارتز و البيريت تتحرك كتل الذهب الخالص و ينحرف إلى
أعماق الأودية و تمتزج بالرمل و الحصى و بهذا الشكل يعرف الذهب باسم الذهب الغرين
أو الراسب. و كان هذا النوع أول ما عثر عليه البشر من هذا المعدن الثمين⁽¹⁾.

و من خلال ما سبق ذكره يمكن القول أن لمعدن الذهب قصة مع الحضارة. فلقد
احتفظ التاريخ بأهميته كما احتفظ الزمن بلمعانه، و احتفظت النار بصفائه.

1. شيخاني (سمير)، "الموسوعة العالمية"، بيروت، لبنان، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، 1994، ص. 91.

ب. مواطن الذهب

موضوع مواطن الذهب الإفريقي جاء ذكره في عدة كتابات سواء كانت عربية أم غربية، و ما يثير الانتباه حول هذا الموضوع تلك الصعوبات التي مبرت تحديد هذه المناطق التي كان يستخرج منها الذهب الذي كان ينقله العرب و البربر باتجاه الشمال، عابرين به الصحراء و متحدين به كل المخاطر. هذه الصعوبات تكمن في كرن أن معدن الذهب ارتبط بطقوس وعادات المجتمع الإفريقي التي فصلت في أمره و منعت الاقتراب منه و معرفة مصدره.

و لقد استحال على الباحث الإطلاع على خبايا هذه المناطق و التدقيق فيها لولا بعض النتائج التي حققتها البحوث الأثرية المتعلقة بالدراسات الإفريقية من جانب، و نتائج الدراسات الجيولوجية من جانب آخر، و التي بينت منذ الوهلة الأولى أن الأفارقة قد عرفوا أن الرمل الذهبي يظهر في رمال الأنهار بعد تساقط الأمطار و هو ما تؤكد الدراسات التي قام بها J. Baptiste KIÉTHÉGA⁽¹⁾ حيث توصل إلى تحديد مناطق تواجد الذهب في غرب إفريقيا من خلال طابع التكوين الجيولوجي لطبقات الأرض، و التي يعود تاريخها إلى العصر الجيولوجي الأول، و هذا بعد أن تشكل الراسب الغريني الذي يحتوي على شذرات ذهب غرب إفريقيا، و من هذه المناطق التي دخلت ضمن هذا التكوين الجيولوجي غربا، كلا من غينيا وليبيريا، شمالا السينيغال و مالي و بوركينا فاسو، أما شرقا فنجد كل من غانة والطوغو⁽²⁾.

1. في كتابه :

1 - KIÉTHÉGA (J. B.), « L'Or de la Volta Noire », :
2 - « Le Cycle de l'or au burkina ».- :

2. أنظر LAURE (M.), « Les métaux précieux dans l'art d'Afrique Noire », éd. Sékia, 1997, p.17.

و جرف المياه للتربة هو الذي تسبب في إظهار شذرات الذهب و لا توجد أية تقنية من شأنها أن تنبئ بوجود ذلك الراسب الغريني الذي يحتوي على الذهب إلا تلك الظواهر الطبيعية المتمثلة في الزوابع الرملية و هذا ما تحدثه الصدف، و هذا الأمر لا يخلو من الخرافات والأساطير، التي سيطرت سيطرةً كلية على مناطق تواجد الذهب، فلقد اعتقد التجار العرب و البربر و الأفارقة معا أن هناك نباتات تحمل معها الذهب، بل أكثر من ذلك أن الذهب ينبت في الأرض كأى نبتة ذات أوراق و جذور، و هذا ما لا تتقبله التحاليل و المنطق العلمي في وقتنا الحالي⁽¹⁾.

و إذا حاولت المقارنة بين ما هو مكتوب بالعربية نقلا عن مصادر الرحالة العرب الذين زاروا المنطقة، ألاحظ أن الغموض يبدو واضحا منذ الوهلة الأولى حول هذه المصادر، لكن الدراسات الغربية الحديثة حاولت مقابلة هذه النصوص و ما هو موجود في الطبيعة لوضع تصور جديد للموضوع، و المسلك الوحيد الذي وجدته مجديا لهذه الدراسة، هو نتائج البحوث الجيولوجية التي سمحت لي بتتبع الطريق الذي سلكه هذا المعدن الأصفر و الذي أعتبره العنصر الأساسي و الهام في حياة الأفارقة عموما.

و من أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسات هو أنه غالبا ما يقترن اسم القارة الإفريقية بمعدن الذهب، و هذا ما أكد واقع احتياط القارة من معدن الذهب، و الذي حدد تواجده في ثلاث مناطق كبرى إفريقيا الغربية، النوبة و إثيوبيا، ثم إفريقيا الجنوبية و زيمبابوي⁽²⁾.

1. أنظر : LAURE (M.), op.cit, p.18.

2. Ibid, p.17.

أما بالنسبة للجزء الغربي الذي يهمني في هذه الدراسة فقد وجدت أن تكوينه الجيولوجي يحتوي على أنهار قديمة، خاصة في جزء كبير من السودان وغينيا الغربية، و الذي يحدد أكثر في المناطق الواقعة في أعالي السنغال التي كانت تشكل بمجاريها المائية في العصور الوسطى، ما كان يسمى بجزيرة الذهب*، والتي كانت تحتوي على المناطق المعروفة حاليا بمبوك، أو الرنقارة عند الرحالة و التجار العرب، و هي التي تقع بين " Le Bafing " و " Falémé " وهي من أهم روافد نهر السنغال. أما المنطقة الثانية و هي التي تدعى بوري، وهي في أعالي نهر النيجر (1).

و هذا الأمر يؤكد مرة أخرى ما أشارت إليه الدراسات الحديثة من أن الذهب الإفريقي ذو تكوين جيولوجي قديم، أي على شكل الغرين الذهبي الذي يميز المناطق السالفة الذكر، والذهب الموجود في هذه المناطق لا يعثر عليه على شكل عروق معدنية حقيقية، بل في شكل الغرين الناعم الذي يحمل الذهب، و الذي يعرف بوجود صخر الكوارتز، الناجم عن انحلال الأصلي الحاوي على الذهب (2)، و هذا بعد أن تساهم الطبيعة بعمليتها الكيماوية و الميكانيكية في تحرير تلك الحبيبات التي تنزل إلى غاية مستوى الصخور غير المتحولة، مشكلا بذلك الغرين الذهبي الذي بدوره يتعرض إلى عامل النقل من خلال السيول الجارفة التي تحط به في قاع الأنهار مشكلا بذلك الراسب الغريني و هذه الطريقة تشكل عبر العصور ما يسمى بمناجم ذهب إفريقيا السوداء عامة (3).

* ذكرها الإدريسي، و في الواقع ما هي إلا المنطقة الواقعة بين روافد نهر النيجر و السينيغال.

1. GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », Paris, Karthala, 1994, pp.87-89.

2. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.226.

3. انظر KLÉTHÉGA (J. B.), « L'Or de la Volta Noire », p.33.

حاول الرحالة العرب تحديد مواطن الذهب، لكنهم انساقوا وراء تلك الروايات التي كان يملئها عليهم الأفارقة، و التي كانت بمثابة اللغز الثاني الذي أضفى على معدن الذهب طابع السرية التامة حيث لا يستطيع أي أحد في الفترة المحددة لهذه الدراسة و حسب آراء كل الدارسين للموضوع المكان الذي كان يستخرج منه معدن الذهب، و ما ذكره العرب ماهو سوى روايات و أساطير من نسج خيال تلك القبائل، التي أرادت إبعاد أنظار العرب و البربر عن مواطن الذهب الحقيقية، خوفا من الاستحواذ عليه، و لهذا كان الأفارقة حريصين على ألا يقرب أي أجنبي مصدر ثروتهم (1).

و من بين أهم الرحالة العرب الذين أشاروا إلى بعض هذه المواطن، البكري الذي يعتبر من أهم الرحالة الذين أشاروا و بدقة إلى هذه المواطن، و لكن سرعان ما تنتقده العديد من الدراسات الغربية الحديثة، و التي اكتشفت أن البكري و غيره كانوا بعيدين كل البعد عن مواطن الذهب و لا يعرفون شيئا عن طرق استغلاله، و ربما هذا ما دفع البكري إلى أن يكتفي بذكر تلك المناطق دون إعطاء التفاصيل الدقيقة عنها، إن كانت منجما للذهب أو مستودعا يعاد تسويقه منه. و أهم ما ذكره البكري قوله : " إن أفضل الذهب ما كان بمدينة غياروا" كما يضيف قائلا : " إن حوالي مدينة كوغه معادن التبر كثير و هي أكثر بلاد السودان ذهباً" (2). أما الإدريسي فبالرغم من ابتعاد فترته عن فترة البكري فإنه يشير إلى منطقة أكثر أهمية من غيرها و التي كانت محل ذكر العديد من الدراسات الغربية و الإفريقية و هي منطقة ونقارة و التكرور. و يقول في هذا الصدد : " و بلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة و الكثرة، و فيها بلاد معمورة و معاقل مشهورة و أهلها أغنياء و التبر عندهم و بأيديهم كثير" (3).

1. أنظر GIRI (J.) « Histoire économique du Sahel », p.87.

2. البكري، " المغرب ..."، ص. 176-179.

3. الإدريسي، "نزهة المشتاق..."، ص. 24-25.

و حسب رأيي فإن هذا الوصف الذي وجهت له عدة انتقادات من طرف الدارسين الغربيين لم يقابلها التبرير العلمي الدقيق و هذا ليس تمجيذا للدراسات الغربية و ليس مدحا للكتابات العربية التي كانت بعيدة عن الواقع العلمي لهذا المعدن.

و لذا أصبحت الدراسات الحديثة سواء الجيولوجية أو الأثرية تؤكد عكس ذلك، فقد عرفنا أن الرحالة العرب كان منطلقهم الوصف الظاهري للأحداث دون معرفة باطنها، كما أن نقلهم للعديد من الروايات كان ساذجا، دون البحث عن مقارنة ذلك بواقع الأحداث و أمثلة ذلك عديدة عند كل من البكري و الإدريسي و ابن بطوطة. لأقول أنه حان الوقت لكي تخضع مثل هذه الروايات و الدراسات للتمحيص العلمي بشكل دقيق، ليستخدم النافع منها وترك ما هو أسطوري، و الذي كانت عقول العصور الوسطى تصدقه و تقده، بل شكل نمطا من حياتها، وهذا من أجل إعادة الاعتبار لمثل هذه النصوص العربية الثمينة التي أصبحت في غالب الأحيان المصدر الوحيد لكتابة تاريخ هذه المنطقة.

كما توصلت الدراسات الحديثة إلى فك لغز مواطن الذهب، الذي ذكر من طرف الرحالة العرب، خاصة فيما يتعلق بمنطقة ونقارة في إفريقيا الغربية و التي تعني أرض الذهب وتعني أيضا كل الناس القادمون من أرض الذهب. و هذا ما يفسر أن ونقارة كانت خزانا للذهب الذي كان يجلب من الجنوب و أن ونقارة لم تنتج الذهب بل كانت توزعه، حتى أن تجار الديولا كانوا ينقلون إليها الذهب من المقاطعات الجنوبية⁽¹⁾.

1. أنظر GIRI (J.), op.cit, p.89.

و بعد مقارنة هذه النصوص تبين لي أن البكري لم يشر إلى جالام و لا بامبوك ولا ونقارة، بل أشار إلى غياروا و كوغا، و أن الإدريسي لم يصف غياروا بل وصف ونقارة. و بالتالي استنتجت الدراسات الحديثة أن بامبوك هي ونقارة عند الإدريسي، و أن بامبوك أو غلام هي غياروا عند البكري. من هنا يمكن القول أن ونقارة التي ذكرها الإدريسي و التي هي غياروا عند البكري، تعني منطقة أعالي نهر السينيغال. كما يمكن القول أن الرحالة العرب كانوا ينقلون تلك الروايات دون إخضاعها إلى أية معايينة وتصحيح، و دفعت بهم إلى عدم معرفة هذه المواطن الحقيقية للذهب السوداني، بل أبعد من ذلك، حيث لم يذكر الرحلة العرب المناطق الجنوبية للذهب التي كانت تزود و بشكل كبير أسواق المغرب. و كما أشير إلى أن التجار العرب و البربر لم يتوغلوا في منطقة النيجر، بدليل عدم وجود أية وثيقة أو وصف يثبت ذلك. و من أهم هذه المناطق نجد "Louby" و "Poura" ⁽¹⁾.

و نتيجة لما سبق عرضه، هو أن الرحالة العرب لم يصفوا كل الغرب الإفريقي و لا حتى كل السودان الغربي فيما يتعلق بمواطن الذهب، بل إن ما أشاروا إليه، هو تلك المناطق التي كانت تلعب دور المحتكر و المخزن لهذا المعدن، و أن الإمبراطوريات التي تقوت شوكتها بفضل معدن الذهب، لم تكن فعلا هي المنتجة له، بل الموزعة و المحتكرة له، و أن تحديد هذه المناطق لم يحدث إلا بعد أن استطاعت الدراسات الحديثة الغربية و الإفريقية أن تعيد الاعتبار لهذا القارة و دراسة تاريخها. وهذا حينما أدرجت هذه المواضيع ضمن الأبحاث الأثرية و الدراسات الجيولوجية.

1. أنظر. KIÉTHÉGA (J.B), « L'Or de la Volta Noire », p.41.

في اعتقادي، و تبريرا لما سبق ذكره حول الروايات التي نقلها العرب، هو أن الونقارة أو رجال أرض الذهب حرصوا كل الحرص على حماية هذا المعدن من الغزو العربي البربري والأوروبي فيما بعد، و هذا لأسباب عقائدية و اجتماعية و حتى اقتصادية، لأنه لا يمكن استبعاد واقع مقايضة الأفارقة للبضائع بتربة الذهب في أسواقهم المحلية قبل دخول العرب. كما يمكن القول أن العرب لم يكونوا سببا في اهتمام الأفارقة بمعدن الذهب بل كان موجودا قبل دخولهم. إلا أن ما ظهر جديدا هو الرفع من إنتاج هذا المعدن، بعد أن زادت أهميته الاقتصادية في نظر الأفارقة، الذين قاموا بصفقات تجارية بينهم و بين المسلمين، لتسمح هذه الظاهرة في نهاية الأمر لبعض التجار الوصول إلى أرض الذهب ومشاهدة الأفارقة العراة الذين كانوا يستخرجون الذهب من الحفر و الآبار التي تحفر في الأرض. لكن المسلم به هو أنني لم أعثر على أية رواية نقلها الرحالة العرب أو غيرهم تصف الطريقة التي كان يستخرج بها الذهب بشكل حقيقي و المقبولة علميا، لا الطريقة التي كان يباع بها، ما عدا التي رواها الإدريسي (1).

1. الإدريسي، "نزهة المشتاق..."، ص ص. 24-25.

ت. طرق استخراج الذهب السوداني

إن الدارس لتاريخ القارة الإفريقية يجد نفسه أثناء الإشارة إلى موضوع طرق استخراج الذهب أمام عدة إشكاليات، منها ما لها علاقة بعبادات و تقاليد الأفارقة و منها ما هو مرتبط بالتجار العرب و البربر الذين كثيرا ما حاولوا الحصول على معدن الذهب بشكل سهل. ومن الأسئلة التي راودتني في هذا الموضوع، ماهي الطرق التي اعتمد عليها الأفارقة لاستخراج الذهب من معدنه ؟ إنه ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال، لأن الشكل الأسطوري الذي أحاط بهذا المعدن في بعض الروايات، يفتح مجالا للاعتقاد بأن العرب كانوا بعيدين عن مواطن الذهب الإفريقي و جاهلين بطرق استغلاله، و اقتصر علمهم على تلك الروايات التي ترددت على ألسنة الأفارقة الذين كانت رواياتهم هادفة و مقصودة. إلا أنه و من باب الطابع الجيولوجي لتكوين سطح السودان الغربي خاصة، و في إفريقيا الغربية عامة، أعتقد أن وصف الإدريسي لعملية استغلال الذهب مقبول مقارنة بما ذكر من طرف الرحالة العرب الآخرين.

و أظن أن هذه المناطق التي أشار إليها الإدريسي هي حسب كيتقا : منطقة "Bambuk" الواقعة بين السنغال شمالا و "Tinkisso" جنوبا و "Faleme" غربا و النيجر شرقا⁽¹⁾. و يقول الإدريسي في هذا الصدد : "فإذا كان في شهر أغشت و حمى القيظ و فاض النيل و غطى هذه الجزيرة [...] رجع كل من في بلاد السودان منحنيين إلى تلك الجزيرة بحثا يبحثون طول أيام رجوع النيل [...] هناك من أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر..."⁽²⁾.

هذه الطريقة، حسب التحاليل الحديثة تتعلق بعملية استخراج الذهب من ترسبات الأنهار أو التي تجرفها السيول.

1. أنظر. KIETHÉGA (J.B), « L'or de la Volta Noire », p.42.

2. الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الأول، ص.ص 24-25.

و العملية الثانية تتمثل فيما ذكره كتاب الاستبصار عن بلاد السودان، حين يقول : "و في هذه البلاد معادن الذهب، ترابه أحمر يستخرج كما يستخرج الحديد و الرصاص و النحاس والفضة ببلادنا⁽¹⁾. و هذا يتطابق مع ما ذكره موريس لومبارد " Maurice LOMBARD حينما يصف عملية استغلال الأهالي للذهب في كل من أعالي السنغال و غينيا و سيراليون و في ساحل الذهب، يتم تحت طبقة من تربة حمراء اللون، التي تغطي معظم البلاد (2).

كما يقودني ابن الفقيه إلى أسطورة ذهب إفريقيًا حين يقول : " وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر و يقطف عند بزوغ الشمس " (3). و في هذه الرواية يذكر ابن الفقيه بلاد غانة دون تحديد مواقع الذهب فيها، إن كانت داخل الإمبراطورية أم في المناطق التابعة لها. و لقد تبين لي من خلال البحث أن غانة ليست المنتجة للذهب الذي كان يستخرج في المناطق المجاورة لها، بل الموزعة له. أما النقطة الثانية التي أخالف فيها قول ابن الفقيه، تشبيه معدن الذهب بنبات ينبت في الأرض، لا أدري إن كان يقصد منها التشبيه فقط للدلالة على الوفرة، أم ردها كما نقلتها الألسنة الإفريقية. وحسب ما ترصلت إليه الدراسات الحديثة فإن معدن الذهب و عملية تواجده واستغلاله و استخراجة من الأرض بعيدة كل البعد عن هذا التصور، فهي تخضع إلى مقاييس علمية متعامل بها على المستوى العالمي، و في غالب الأحيان لا تختلف في العديد من هذه المناطق أو غيرها عن الطرق المتبعة اليوم.

1. الاستبصار، المصدر السابق، ص219.

2. أنظر LOMBARD (M.), « Les Métaux Précieux Dans L'ancien Monde », p.53.

أنظر شكل استخراج الذهب في الملحق.

3. ابن الفقيه، "مختصر كتاب البلدان"، ص87.

إن هذا الوصف العام لوجود الذهب و استغلاله في المنطقة لم يقتصر فقط على ابن الفقيه بل حتى النصوص الغربية أشارت إلى أن ملتقطي الذهب خلال العصور الوسطى يتعرفون على وجود الذهب من خلال بعض النباتات التي تظهر على السطح، و من المعقول أن يكون هذا صائبا لأن التبر بعد انحسار المياه يبقى عالقا ببعض النباتات المائية و هي تلمع ليلا و بها يستدل على وجود الذهب. كما أن هذا الاعتقاد مازال سائدا إلى يومنا هذا. هذه النباتات التي أشير إليها هي : (La Bauhinia - Ebénacée - La Berliana)⁽¹⁾.

كما ذكرت بعض الروايات الإفريقية الأخرى أن هناك نوعين من النباتات تظهر في الفترة الممطرة، و التي تغوص في الأرض بجذورها السميكة التي تشبه الصخور، و التي هي في الواقع من الذهب الخالص و إذا قارنت بين هذا الاعتقاد و ما سبق ذكره أجد فيه تشابها كبيرا. و هذا ما يدل على أن العرب و البربر نقلوا عن الروايات التي ردها الأفارقة طرق استخراج الذهب سواء كان هذا الاعتقاد صحيحا أم خاطئا، لاستحالة وصولهم إلى مصادر الذهب الحقيقية.

و أستخلص مما ذكر أن الذهب السوداني يستخرج بطريقتين :

1. فالأولى تتمثل في الحصول عليه من ضفاف الأنهار، و هذا ما اعتاد عليه الإفريقي الذي تعلم، و من خلال التجربة، أن الذهب الأسهل استغلالا هو ذلك الممزوج ببعض الصخور و الترسبات القديمة و المغطاة بالترسبات الحديثة الجارية في الأنهار و يقصد هنا انحراف أسرة الأنهار القديمة.

1. انظر. LACOURT (G.), « L'histoire du Commerce... », T3, p 55.

و حتى هذا التكوين الجيولوجي لم يخل من الوصف الأسطوري لدى الأفارقة، حيث ربطته الأسر الإفريقية بذلك الثعبان الذهبي الذي تسرب إلى أعماق الأرض تاركا و راءه جلده التي تشكل الذهب المعثور عليه، و التعرجات التي يشكلها الوادي هي نفس إلتواءات الثعبان أثناء حركته.

1. الشكل الثاني الذي وجد عليه الذهب طبيعيا، يتمثل في العروق المعدنية (عروق الذهب) و هي أكثر انتشارا في كل من جالام و بامبوك (Galam et Bambuk) وهي تقنية قديمة لدى الأفارقة و وسائلها بسيطة و هي على مسار طول العام (1).

هذا ربما ما سهل للأفارقة الاهتمام بهذه الحرفة بشكل كبير جدا، مما أدى إلى طغيان الطابع الحرفي على طرق و مواطن معدن الذهب، و لذا قبل التحدث مباشرة عن عملية استخراج الذهب علي بالعودة إلى الطقوس المتحكمة في هذه العملية كما سبق ذكره، كون معدن الذهب كما هو شائع في إفريقيا تسيره معتقدات هذا المجتمع، و من أهم هذه الطقوس تلك التي تشير إلى أنه قبل الانطلاق في عملية حفر الآبار أو المناجم يجب إحضار ما يسمى عند الأفارقة بـ : " Jabalalon " أو ما يسمى بالساحر الذي يقوم بتأدية التعزيم لتطهير المكان المراد استغلاله من الأرواح الشريرة، لأنهم يعتقدون أن الذهب الموجود في أعماق الأرض ملك للجن، و لتفادي كل خطورة أو التعرض إلى أي أذى تقول العادة أنه لا يجب على أي فرد أن يقبل و هو في لباس فاخر، أي أن عملية استخراج الذهب تلزم العمال القدوم بلباس متواضع لكي لا يستفز الجن الذين هم أغنى من الإنس. بعد هذه المرحلة يقدم العمال على تناول الطعام الذي باركه الساحر، وبعده يعطي هذا الأخير إشارة الانطلاق في حفر الآبار التي يستخرج منها الذهب (2).

1. انظر LACOURT (G.), « L'histoire du Commerce... », T3, p.56.

2. انظر BATHILY (A.), « Les Portes de l'Or... », p76.

لوحظ من خلال الدراسات الغربية و الإفريقية أن الذهب كان يستخرج بأبسط الوسائل، دون اللجوء إلى أية تقنية تتطلب الدقة في الوصف أو التحليل⁽¹⁾. و يذكر موريس لومبارد "أن استخراج الذهب من الأرض يتطلب حفر آبار دائرية الشكل في الأرض ودهاليز منجمية مدعمة بأخشاب"⁽²⁾ يصل عمقها أحيانا ثمانية أمتار. و هناك من أشار إلى أن قطر هذه الآبار يصل إلى 0,80، هذا ما يسمح للعامل بالصعود و النزول واضعا رجليه في الثقوب المحفورة على جدران البئر، التي تؤكد عدم استخدام السلام⁽³⁾.

كما أجمعت الدراسات التي تطرقت إلى هذا الموضوع أن عملية الحفر هذه، قد شكلت خطورة كبيرة على ملتقطي الذهب، بسبب انهيار أسقف الآبار في العديد من المرات وهذا ما يشير إلى أن هذه المناطق كانت تستغل بشكل كبير، دون الأخذ بالمخاطر بعين الاعتبار. مما دفع ببعض العائلات إلى انتظار فترة الجفاف للبدء في عملية حفر الآبار، لتفادي الإلتهيار و المياه الصاعدة.

و لكون هذه الآبار المنجمية ذات الدهاليز العميقة ر ذات الإستخدام التقليدي كانت تتطلب يدا عاملة مكثفة، فقد تم اللجوء إلى النشاط التعاوني أو ما يسمى اليوم في بعض المناطق بـ"التويزة"، حيث يتم جمع أفراد العائلة، أو القبيلة رجالا و نساءً تحت إدارة رئيس وحدة الإنتاج⁽⁴⁾.

1. أنظر. GRI (J.), « L'Histoire économique du Sahel », p.97.

2. أنظر. LOMBARD (M.), « Les Métaux dans l'ancien Monde du 9 au 10 siècle »,

Paris mouton et Cie, 1974, p208.

3. Foid, p18.

4. أنظر : BATHILY (A.), op.cit, p.175.

كما يتم أيضا في شكل جمعية من الرجال و النساء قررت أن تسخر جهودها في التنقيب عن الذهب مشتركة. أو يتم عن طريق مؤسسة صغيرة تجزية " Jula " التي تستخدم العبيد برئاسة السيد. هذا العمل يتم عموما بالفرق الجنسي بين الرجال الذين يحفرون الآبار ويستخرجون التربة و الصخور التي تحتوي على حبيبات الذهب و النساء اللاتي تحملها في إناء خاص Calebasse * لغسلها بمياه النهر⁽¹⁾.

و لقد أشار هيرودوت منذ القرن الخامس قبل الميلاد إلى مثل هذه العمليات وقال أنه يوجد في حوض من هذه الجزيرة و الفتيات يخرجن شذرات الذهب بواسطة ريش الطيور، ونجد هنا أن الرواية ينقصها نوع من الدقة، لأن حبيبات الذهب توضع على ريش " Calao " ** بعد استخراجها و لا تستخرج بها. و يشير العمري إلى أن الفتيات يفتخرن بما وجدن من ذهب بوضع ريش هذا الطائر و ما حمله من ذهب على رؤوسهن و الملاحظ هو ابتعاد هذه الرواية عما ذكر من طرف العديد من الدارسين، و هو أن حبيبات الذهب توضع على ريش طائر الكالاو و لا يستخرج به، و هذا ما أكدته GAYET نقلا عن العمري، أن الفتيات يفتخرن بوضع ما وجدن من ريش الطائر لتزيين رؤوسهن.⁽²⁾

* Calebasse : هو الإناء الذي تستخدمه المرأة في إفريقيا لغسل الطمي الذهبي. هذا الإناء مصنوع من نبات الكرنيب المحفف.

1. BATHILY (A.), op.cit, p.175.

2. GAYET (L.), op.cit, p.35.

** Calao : طائر يدعى أبو قرين.

كان استغلال العروق المعدنية يتطلب مجهودا أكبر و يشكل صعوبات كثيرة منها قلة الماء و الأمن. ففي بعض المناطق الصلبة في فترات الجفاف، يتطلب الأمر أحيانا قطع مسافات طويلة لبلوغ مجرى " Falèm " أين توجد المياه لغسل التربة، و التي هي من مهام المرأة بالرغم من صعوبتها. و في بلاد "Malinké" نجد أن المرأة هي التي كانت تقوم بإحضار الماء إلى مكان الاستخراج، لكن مع (Les Julas) الأثرياء يقومون بنقل الماء على الدواب⁽¹⁾. أما الصعوبة الثانية فتتمثل في انتشار الأمراض الطفيلية "Trypanosomiasis" الموجودة في أعالي بمبوك " Bambouk "⁽²⁾.

و بالرغم من صعوبة الاستخراج التي تتمثل في حفر الآبار، تفريغ الماء المتسرب إلى الآبار المحفورة، والحاجة إلى الماء لغسل التربة الغرينية ثم اهتبار أستاذ الآبار، إلا أن الرغبة في الاستمرار في البحث تبدو أنها بسيطة، من أجل تحقيق هدف واحد وهو العثور على كتلة ذهبية من شأنها أن تغني الفرد طوال حياته⁽³⁾.

و بمجرد العثور على الكتلة الذهبية ، يصيح العامل وبصوت عالي : "وجدت!" وكل العمال يرددون من ورائه نفس العبارة ثم يسرعون إليه لمشاهدة ذلك ، لتبدأ مباشرة الطقوس بإحضار الحيوان بحجم التبرة، تقول الرواية بحجم البقرة أو الخروف أو الماعز ولكي لا أكون مبالغ في ذكر هذه الرواية أظن أن الحجم يتناسب و القيمة ذهبا وليس الرزن. وما توصلت إليه خلال البحث هو أن مثل هذه الروايات هي التي حالت دون توصل المؤرخين إلى التقدير الصحيح لكميات الذهب المستخرجة من مناجم السودان. وبعد نحر الحيوان تصبح تلك الكتلة الذهبية ملكية تابعة لصاحبها بدون أي منازع، و هذا ما لا يتماشى مثلا ر رأي البكري، الذي يحرص ملكية التبرات في ملك غانة⁽⁴⁾.

1. أنظر BATHILY(A.), op.cit, p.175.

2. أنظر كذلك Ibid, p.175.

3. أنظر MAUNY (R.), « Tableau Géographique... », p.296.

4. البكري، " المغرب..."، ص. 81.

أما ما ميز طريقة استخراج الذهب في السودان الغربي، هي العملية الأخيرة و التي تتمثل في غسل تربة الذهب في أوان مقعرة مصنوعة من اليقطينة و تسمى باللغة الفرنسية "Calebasse" و التي تغمر بالماء على طول الدهليز في قعر المدخل أين يقوم العامل بالغسل الأولي ثم ينقل التراب الغني بشذرات الذهب إلى طاسة العامل المقابل ليرفع إلى السطح أين تقوم النساء بعد الظهر بالغسل الأخير في الأحواض المائية القريبة من المنجم و بهذه العملية يتم استخراج الذهب⁽¹⁾. و ذلك بتحريك الطاسة بشكل دائري بسرعة و خفة و مهارة و هذه الطريقة هي التي يطلق عليها بالفرنسية "La Battie" و تحتفظ بالذهب المستخرج في قطع من القماش أو على ريش طائر أبو قرين "Calao". و هناك من الروايات من أشارت إلى أنه عندما يتعلق الأمر بصخور الكوارتز، يلجأ العامل إلى تسخين الصخور و رمي الماء عليها لكي تشقق. و بعد تفتيتها و تحويلها إلى تربة تتعرض إلى الغسل بنفس الطريقة المذكورة سابقا، مساءً أثناء عودة العمال إلى البيت⁽²⁾، و هذا ربما لكي لا يكشف عن الطريقة المستخدمة.

و هكذا تتم عملية الاستخراج التي نستنتج منها أنها كانت محاطة بالعديد من الطقوس التي تميز طابع المجتمع الإفريقي في وثنيته إضافة إلى أن هذه العملية تتم بشكل فردي وجماعي دون تسجيل حضور أي كيان يمثل الدولة أو سلطتها، ما عدا في بعض الإشارات البسيطة التي سبق ذكرها. و هذا ما يؤكد، حسب رأيي، احترام الأفارقة لسلطة دينهم أكثر من سلطة ملكهم، الذي استجاب لرغبة المجتمع و معتقداته دون فرض سلطته عليه في هذا المجال.

1. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص. 226.

2. أنظر p18. « Les Métaux Précieux dans L'art de l'Afrique Noire », MAYER(L.).

2. التنافس المغربي على مسالك الذهب

إن جميع البحوث و الكتابات التي تخصصت في دراسات التاريخ السياسي للمغرب الإسلامي الوسيط، تعرضت بشكل أو بآخر إلى قضية الصراع السياسي و التنافس الحاد الذي قادته قوى عربية و بربرية خلال القرن 9 و 10م على وجه الخصوص. و حاولت هذه الدراسات تحديد الأهداف التي من أجلها تصارعت و تنافست هذه القوى فيما بينها. و إذا كان الهدف اقتصاديا كما هو الحال في هذه الدراسة، ينبغي البحث عن السبل التي انتهجها هذه الإمارات من أجل بلوغ الأهداف الاقتصادية والتي كانت تخفي من ورائها أغراض تكون لا محالة سياسية. حيث لا يمكن لأي مهتم بموضوع تجارة الذهب أن يتجاهل الأهمية الكبرى التي أولتها إياه كل القوى السياسية التي شهدها المغرب الإسلامي انطلاقا من بني الأغلب إلى الرستميين و الفاطميين ثم إلى الأدارسة و المرابطيين. ولقد شهدت هذه الأسر صراعا حادا فيما بينها من أجل الاستحواذ و التحكم في كل المسالك التي عرفت هذا النوع من التجارة المتوجهة جنوبا.

أ. ادعاءات:
أن اهتمام دولة بني الأغلب⁽²⁾ بشبكة الطرق⁽²⁾، و الحياة الاقتصادية عامة، لا يدع مجالاً للشك بأنها اهتمت اهتماما كبيرا بالذهب السوداني قبل اشتداد التنافس السياسي بين العباسيين و الإمارات الأخرى.

* دولة بنو الأغلب تنسب إلى إبراهيم بن الأغلب التميمي، و التي حكمت من سنة 184هـ/800م إلى 296هـ/908م.
1. حساني (مختار)، "الصراع بين الأمويين و الفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي خلال القرن 4هـ/10م"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة الدراسات التاريخية و الآثار، السنة 1978/77، ص. 102.

حيث نشطت الحركة الاقتصادية في مدن الأغالبة بنظام الأسواق وتوسيع الآبار وتطوير مراكز التجارة و كانت ترسل القوافل إلى بلاد السودان جنوباً، عبر الطرق الصحراوية. و ما يلفت النظر إلى الأغالبة هو بناؤهم لمدينة العباسية*، و التي أرادوا لها بدون شك أن تضاهي مدينة تاهرت، التي كانت قبلة التجار الرافدين من السودان. هذا ما يفسر رد فعل الرستميين اللذين رفضوا منافسة بني الأغلب لهم في المنطقة، و بالتالي إقدام افلاح ابن عبد الوهاب على هدم العباسية عام 239 هـ^(١)، أي في نفس السنة التي بنيت فيها. إن دولة الأغالبة لم تكن تسع للبروز و التوسع فحسب، بل حاولت فرض الاستقرار و الأمن اللذين كان يفتقر إليهما المغرب قبل مجيء إبراهيم ابن الأغلب. و لقد نجحوا في ذلك بشكل كبير، فازدحمت الطرق بالقوافل التجارية، و تحولت القيروان إلى مركز تجاري رئيسي في العالم الإسلامي.

لم يقتصر نشاط القوافل على الذهاب من الشرق إلى الغرب و بالعكس، بل في ازدهار المدن و كانت القيروان طريقاً يمر نحو غدامس، ثم إلى غات و يمتد إلى الصحراء الكبرى نحو إفريقيا المدارية⁽²⁾.

* العباسية : بناها أبو العباسي بن الأغلب عام 239 هـ/853 م، و هي بالقرب من مدينة تاهرت.

1. مقلد الغنيمي (عبد الفتاح)، "موسوعة المغرب العربي"، المجلد الثاني، مكتبة مديبولي، ط 1، 1411هـ/1994م، ص 236.
2. مؤنس (حسن)، "تاريخ المغرب و حضارته"، المجلد الأول، ج. 1، ط 1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، 1412هـ/1990م، ص. 268.

إذا كانت الدولة الأغلبية لم تعيش الصراع الذي عاشته الدول الفاطمية والرستمية على المحطات التجارية ، فإني ألاحظ أن الرستميين كانوا أحرص على توطيد علاقات جيدة مع جيرانهم من أجل خلق جو مناسب لتجارة القوافل خاصة منها، العابرة للصحراء. و أكثر ما يثير انتباهي هنا هو ربط علاقات تاهرت بدولة بني مدرار بسجلماسة بعد أن زوج اليسع بن إلياس * ابنه مدرار من أروى، ابنة عبد الرحمان بن رستم وضمنان طريق سجلماسة من خلال هذه الروابط ⁽¹⁾. هذا الطريق الذي استفادت منه الدولة الرستمية بشكل كبير ، حيث أصبحت بفضلها تاهرت أهم محطة تجارية في المغرب الأوسط والإسلامي عموما ⁽²⁾.

ويبرز مدى حرص الدولة الرستمية على حماية أهم الثروات التي جعلت منها قبلة التجار من خلال توسعها و محاولة الحفاظ على حدودها ، هذه الحدود التي تمتد من دولة الأغالبة شرقا ، إلى الأدارسة شمالا و غربا. أما جنوبا فكانت تمتد على الطريق الصحراوي الذي يصل بين جبل نفوسة جنوبي طرابلس و المغرب الأوسط. إن اتساع الحدود يدل على القوة الاقتصادية و السياسية لهذه الدولة ⁽³⁾. لم يكتف الرستميون بإقامة علاقات وطيدة مع بعض الجيران بل دخلوا في صراع من أجل رسم الحدود السالفة الذكر . و لو أن هذه الفترة بعيدة عن المرحلة الزمنية التي يتناولها البحث، فإني أرى من الضروري تسجيل هذا الصراع في تاريخ دولة الأغالبة و الرستميين الذي تميز دائما بعمقه الاستراتيجي ، بعده الاقتصادي و النفوذ السياسي.

* حاكم دولة بني راسول و هي صفورية معتدلة، سجلماسة.

1. سالم (عبد العزيز)، "المغرب الكبير"، ج.2، بيروت، دار النهضة العربية، 1981 م، ص.572.
2. حساني (مختار)، "الصراع بين الأمويين و الفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي"، ص.12.
3. الفنيصي (عبد الفتاح منلد)، "موسوعة المغرب العربي"، المجلد الأول، ص.52.

و ما يثير الانتباه عند التطرق إلى الدولة الرستمية هو الدور الذي لعبه التجار الإباضيون في إنعاش التجارة في المغرب الأوسط ، خاصة بعد أن أبدت هذه الجماعة تسامحا مع الجماعة الصفرية في المبادئ المذهبية، لأن الذي يهم هو متاجرهم ، و بالتالي توثقت العلاقات بينهم، و لم تستن في هذا المجال الخوارج الآخرين في الصحراء⁽¹⁾. ليزر دورهم أكثر بعد ما حققته تاهرت من توسع داخلي، حيث أصبحوا خلال القرن 10م سادة كل المسالك المؤدية إلى القصور من جنوب المغرب إلى غاية خليج قابس كما استحوذوا على محطات قوافل الذهب التي تعتبر محطات للتجارة الصحراوية كجبل نفوسة، سجلماسة مرورا بورقلة⁽²⁾.

و أهم ما يمكن الإشارة إليه هنا هو منافسة الرستميين للأغالبة في أملاكهم في نفوسة التي تمكنوا من محاصرتها ، و دفعوا الأغالبة في النهاية إلى المهادنة، احتفظ هؤلاء بمدينة طرابلس والساحل بينما وضع الرستميين أيديهم على ضواحي طرابلس و الصحراء⁽³⁾. وسيطرة الرستميين على الطريق الصحراوي كان ضمن الأهداف الكبرى لاحتكار التجارة السودانية و كسر طوق المنافسة على الطرق نحو السودان الغربي. و كانت أبرز آلياتهم لتحقيق هذه الأهداف هي : اصلاح الطرق وحفر الآبار و تعميرها و تنظيم الشرطة لحفظ الأمن خدمة للحركة الاقتصادية و التجارية. و بلغ من حرصهم على أمن تجارتهم أن الحاميات كانت تتلقى القوافل التجارية ثم تقوم بنوديعها عند اجتياز حدود إمارتهم⁽⁴⁾.

-
1. مؤنس (حسن)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، القاهرة، دار مطابع المستقبل، ط.1، 1980، ص.106.
 2. LOMBARD (M.), « Les métaux précieux dans l'ancien monde », P.230.
 3. عبد العزيز سالم : نفسه، ص.568.
 4. غنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، م.1، ص.55-57.

و ما يثير الانتباه عند التطرق إلى الدولة الرستمية هو الدور الذي لعبه التجار الإباضيون في إنعاش التجارة في المغرب الأوسط ، خاصة بعد أن أبدت هذه الجماعة تسامحا مع الجماعة الصفيرية في المبادئ المذهبية، لأن الذي يهم هو متاجرهم ، و بالتالي توثقت العلاقات بينهم، و لم تستثن في هذا المجال الخوارج الآخرين في الصحراء ⁽¹⁾. ليرز دورهم أكثر بعد ما حققته تاهرت من توسع داخلي، حيث أصبحوا خلال القرن 10م سادة كل المسالك المؤدية إلى القصور من جنوب المغرب إلى غاية خليج قابس كما استحوذوا على محطات قوافل الذهب التي تعتبر محطات للتجارة الصحراوية كجبل نفوسة، سجلماسة مرورا بورقلة ⁽²⁾.

و أهم ما يمكن الإشارة إليه هنا هو منافسة الرستميين للأغلبية في أملاكهم في نفوسة التي تمكنوا من محاصرتها ، و دفعوا الأغلبية في النهاية إلى المهادنة، احتفظ هؤلاء بمدينة طرابلس والساحل بينما وضع الرستميين أيديهم على ضواحي طرابلس و الصحراء ⁽³⁾. وسيطرة الرستميين على الطريق الصحراوي كان ضمن الأهداف الكبرى لاحتكار التجارة السودانية و كسر طوق المنافسة على الطرق نحو السودان الغربي. و كانت أبرز ألياتهم لتحقيق هذه الأهداف هي : اصلاح الطرق وحفر الآبار و تعميرها و تنظيم الشرطة لحفظ الأمن خدمة للحركة الاقتصادية و التجارية. و بلغ من حرصهم على أمن تجارتهم أن الحاميات كانت تتلقى القوافل التجارية ثم تقوم بنوديعها عند اجتياز حدود إمارتهم ⁽⁴⁾.

-
1. مونس (حسن)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، القاهرة، دار مطابع المستقبل، ط.1، 1980، ص.106.
 2. LOMBARD (M.), « Les métaux précieux dans l'ancien monde », P.230.
 3. عبد العزيز سالم : نفسه، ص.568.
 4. غنيمي.(عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، م.1، ص.55-57.

و هذا ما حدا بهم إلى النظر إلى أبعد من طرابلس، جبل نفوسة و جلماسة، أي إلى كيفية الوصول إلى عقر دار هذه التجارة أي السودان الغربي. و كان هذا الإتصال الرسمي-السوداني تجاريا، و ذلك عن طريق القوافل التجارية التي كانت تخرج من ورجلان القاعدة الرسمية التجارية في الصحراء و التي كان أهلها يقودونها إلى غاية السودان⁽¹⁾.

تقول فريدة بن عزوز نقلا عن ليفتسكي : "أنه كان لتأسيس الدولة الرسمية بتاهرت و الصفرية بسجلماسة أثر بالغ في تطور العلاقات التجارية بين المغرب و السودان الغربي والأوسط⁽²⁾. خاصة بعد أن أظهر الطرفان اللذان ربطت فيهما تاهرت علاقاتها مع السودان الغربي و هم الطريق الغربي الذي يمر على سجلماسة، و الشرقي الذي يمر عبر ورقلة⁽³⁾.

و مما يؤكد هذا الاهتمام الرسمي بالسودان و ضبط العلاقات التجارية معه، هو رغبة أفلاح ابن عبد الوهاب في مرافقة قوافل أبيه التجارية إلى جاو، و انقي أعادها ليفتسكي إلى أسباب جيو-اقتصادية و جيو-سياسية محددة، و ليس لفضول زيارة بلاد بعيدة بل من أجل عقد اتفاقيات لحماية المصالح التجارية، و ضمان استمرارية المسالك الرابطة بين جاو و تاهرت⁽⁴⁾. و لا يمكن لي أن أتصور مصلحة أهم من ضمان ورود المعدن الأصفر إلى المغرب.

1. سالم (عبد العزيز)، نفسه، ص. 573.

2. بن عزوز (فريدة)، "قراءة في أبحاث تاديوش ليفيتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب و بلاد السودان"، ص. 457.

3. جودت (عبد الكريم يرسف)، "العلاقات الخارجية للدولة الرسمية"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص. 248.

4. بن عزوز (فريدة)، نفسه، ص. 458.

ت : الفاطميون :

و تدعم هذه العلاقات عندما أصبح الإمام أفلح حاكما على الرستميين، حيث عقد مع ملك كوكو في السودان الشمالي الغربي علاقات ودية حيث أهدى إليه هدية نفيسة ليوثق الصداقة بينهما، و يشكره على ما يجده تجار بلاده من حسن معاملته لهم. و كان محمد ابن عرفة ⁽¹⁾، الذي مثل رسوله إلى هذه البلاد، و لقد قضى ابن عرفة مدة غير قصيرة بجاو، ويعتبر من كبار الشخصيات الإباضية ⁽²⁾، و إن لم تقتصر هذه العلاقات على الذهب فإنه يمكن لي أن أقول أنه شكل حجر الأساس للعلاقات التجارية بين البلدين. ولا يختلف شأن الفاطميين عن بقية الدول الإسلامية الأخرى التي لعبت دورا لا يستهان به في توسيع نفوذها داخل المغرب الإسلامي من الشرق إلى الغرب و من الشرق إلى الجنوب.

كما أنها حاولت منذ أن وطأت أقدامها أرض المغرب السيطرة على طرق الذهب و التحكم في تجارته. و ذلك ما يبدو بوضوح بعد أن أحكمت الدولة الفاطمية السيطرة على كل من سجلماسة، باب السودان، و تاهرت الطريق التجاري نحو تلمسان ⁽³⁾. و كانت سياستهم قائمة على جمع المال بكل الطرق و الوسائل، و لم تكن إفريقيا بالنسبة لهم سوى مستقرا مؤقتا و مصدرا للثروة، حيث لم يعمروا القيروان و تونس وسوسة و الحمامات و المنتزه، و لم يخلفوا فيها أثرا ما عدا مدينة المهدية التي تشهد على أهمية الأموال التي كانت يجوزقهم ⁽⁴⁾. لقد ساعد احتلال تاهرت و سجلماسة، الفاطميين على بسط سيطرتهم على التجارة المغربية، و جمع الثروة لغزو مصر، لما لهاتين المدينتين من شهرة كبيرة اكتسبتها أسواقهما لموقعها على طريق القوافل التجارية القادمة من الصحراء المغربية و الشرق ⁽⁵⁾.

1. سالم (عبد العزيز)، المرجع السابق، ص. 571.

2. بن عزوز (فريدة) المرجع السابق، ص. 460.

3. مختار (حساني)، المرجع السابق، ص. 102.

4. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، م. 2، ص. 86.

5. زيب (نجيب)، "الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس"، تقدم أحمد بن سودة، ط1، دار الأمير للثقافة و العلوم، بيروت،

لبنان، 1995، ص. 197.

إن هدف الفاطميين من الاستيلاء على سجلماسة لا يقتصر على تحطيم المعارضة الصفرية ، و محو الكيان السياسي لبني مدرار، بل تجاوز ذلك إلى اعتبار هذه المدينة مصدرا للثروة نظرا للدور البارز الذي لعبته في بعث حركة النشاط التجاري بين بلاد المغرب والسودان الغربي حيث منابع التير و مراكز الرقيق. كما أصبحت سوقا تجارية عالمية، في دار الإسلام و محطة صحراوية هامة في طريق القوافل، وكانت هذه الحركة التجارية تدر أرباحا طائلة على سجلماسة، التي قدرت رسوم عبورها بأربعمائة ألف دينار. و مما يشير إلى التنافس الشديد الذي كان بين الفاطميين و الإباضيين على مسالك الذهب و محطاته، ثورة أبي يزيد الملقب بصاحب الحمار عام 333 هـ/944 م، و هو خارجي من الجريد، و كان من الممارسين لحرفة تجارة الذهب مع والده، إضافة إلى علمه بكل الطرق و التجار. و القضاء على هذا التمرد الخارجي دليل على أن الفاطميين لم يكونوا مستعدين للتخلي بسهولة على مناطق تجارة الذهب و إيراداتها خاصة المتعلقة بسجلماسة⁽¹⁾.

و لقد أثرى الفاطميون من ذهب السودان عن طريق تمثيل دور الوسيط و ضمان الأمن و الإرشاد إلى المسالك و الدروب و الرفق بالتجار. و لم يكن هذا النجاح ممكنا إلا بالسيطرة الكلية على تاهرت، أي بالقضاء على الكيان السياسي لطائفة الإباضيين و مكتسبين بذلك مركزا هاما على طريق القوافل التجارية يضمن لهم الإشراف على حركة التجارة من الشرق و الغرب والصحراء⁽²⁾. وكان ذلك على يد أبي عبد الله الشعبي في طريق عودته من سجلماسة.

1. أنظر LOMBARD (M.), « Les métaux précieux dans l'ancien monde », p.230.

2. لقبال (موسى)، "دور كمامة..."، ص ص 343 - 373.

لم تكن سجلماسة مدينة و محطة تجارية فقط بل مركزاً أو دار لضرب العملة الفاطمية كما سبق و أن ذكرت سالفاً⁽¹⁾. و هذا هو السبب الرئيسي في نظري الذي جعل هذه المنطقة محط أنظار الفاطميين و كل الإمارات المستقلة التي شهدتها المغرب الإسلامي. وكما كانت للبرستمييين علاقات وطيدة مع بلاد السودان، هناك إشارات لوجود مثل تلك العلاقات بين الفاطميين و بلاد السودان، و قد سجلت بين أبي الفتح المنصور أثناء الحكم الزيري و بعض ملوك السودان و ثمت بهدايا نادرة أرسلت إلى المنصور سنة 382 هـ/993 م⁽²⁾.

و في هذا الصدد يمكن لي أن أطرح سؤالاً عن الأسباب التي دفعت المعز لدين الله أن يلجأ إلى تعلم اللغة السودانية⁽³⁾. يمكن احتمال دوافع عديدة من سياسية و اقتصادية واجتماعية يمكن للباحث التعمق فيها. و من جهتي، أعتقد أن ذلك دليل على وجود تبادل الوفود و الزيارات بين المعز وحكام السودان من أجل ضمان ورود الذهب.

و إذا كان ذهب السودان قد عرف طريقه نحو سجلماسة و دور ضرب العملة ونحو تاهرت و غيرها من المناطق في عهد الدولة الفاطمية، بشكل كبير، فسوف يظهر بشكل أوضح في الأموال التي حملها الفاطميون معهم عند رحيلهم إلى مصر و التي أسهم تجار المغرب الأوسط في جلبها إلى جانب تجار ولاية إفريقية⁽⁴⁾.

1. لومبارد (موريس)، "الجغرافية التاريخية و العالم الإسلامي"، ص 88.

2. لقبال (موسى)، المرجع، ص 372.

3. حسن (إبراهيم حسن)، "تاريخ الإسلام"، ط 4، بيروت، لبنان، دار الجيل و القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1996م، ص 154.

4. جودت (عبد الكريم)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3 و 4 هـ/9 و 10 م"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص ص 224، 225.

و لقد ظهرت هذه الثروة التي استفادت منها مصر في شكلين :

الأول : تمثل في الحملة العسكرية التي جهزها المعز لدين الله الفاطمي على مصر، من خلال النفقات الكبرى التي استلزمتهما الحملة، و التي كان مصدرها جباية الضرائب، و جفر الآبار في طريق مصر و صناعة السفن و تجهيزها وخاصة الحربية منها، و كميات كبيرة من المعدات والتموين، و وضع صنادل من القارب الكبير، كما جلب المعز من المهديّة سنة 357هـ/967م، حملا من الذهب، وبلغ عدد الأموال التي كانت في متناول مراقبة جوهر 24 ألف دينار (أي 24 مليون دينار). وكان عند خروجه إلى مصر على رأس 100 ألف فارس، و بين يديه ألف صندوق من المال ⁽¹⁾. هذا ما يؤكد من جهة الثروة التي حولت إلى مصر، و من جهة ثانية يؤكد أيضا أن جوهر قد احتاط للأزمة الاقتصادية الطاحنة التي داهمت مصر في السنوات الأخيرة من حكم الدولة الإخشيدية ⁽²⁾. والصورة الثانية لكثرة الأموال التي نقلها جوهر الصقلي معه إلى مصر تمثلت أيضا في إعلانه في اليوم التالي لدخوله الفسطاط أن الأموال ستوزع على من يحتاجها، فاجتمع خلق كبير في جامع عمر ابن العاص و طرقت المدقات. و ما يدل عن كثرة الأموال هذه، استغراب المعز لما أنفقّه (جوهر الصقلي) في سنوات تواجده في مصر على توفير المؤن و تلبية مطالب الجيش الفاطمي. و تذكر رواية أخرى : أنه عندما عزم المعز على الرحيل إلى مصر، أتاه بلكين ابن زيري بألفي جمل من إبل زناتة و حمل ماله بالقصور من الذخائر و سبائك الدنانير على شكل الطواحين، فاستعظمت الرعية، و صارت تقف في الطرقات لرؤية بيت المال المحمول ⁽³⁾.

1. الدشرواي (فرحات)، "الخلافة الفاطمية بالمغرب"، (ت: حماد الساحلي)، دار الغرب الإسلامي، ط. 1، بيروت، لبنان، 1994، ص 380.

2. عبد المنعم (سلطان)، 'الأسواق في العصر الفاطمي'، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص 5.

3. نفسه، ص 59.

أما خروج المعز فيدل مرة أخرى على أن ما بقي من الثروات قد استكمل، حيث لم يتم هذا الرحيل إلا بعد أن جمع من الأموال ما لم يسبق بأن جمع مثله، و سار في هيئة عظيمة و جيوش حمة و جنود مستعدة. و أمر بالدنانير من الذهب فسبكت سبائك و طبع اسمه عليها و جعل حمل كل حمل سبيكتين⁽¹⁾.

يقول جودت عبد الكريم نقلا عن أبي الفدا : " أن المعز اصطحب معه أهله سنة 361هـ/971م، و خزائنه و فيها أموالا عظيمة، حتى سبك الدنانير و عملها مثل الطواحين و شالها على الجمال⁽²⁾.

هذا ما يؤكد حقيقتين، أولاها وجود الدولة الفاطمية في أرض المغرب كان مؤقتا، وطبعت حياتها بسياسة جمع المال. وثانيهما هي حقيقة ثراء المغرب و المغاربة، و هو ما يدل على أن خزانة المغرب لم تخل قط من الذهب و الدنانير الذهبية طيلة ورود الذهب السوداني عليه والاحتفاظ بالمسالك الكبرى التي يعبرها نحوه.

ث - المرابطون :

و نن يختلف الأمر بالنسبة لدولة المرابطين التي تركت هي الأخرى بصماتها في هذا الحدث بالصراع الذي احتدم بينهما و بين الزناتيين، الذين شاركوا صنهاجة في تحصيل الضرائب من التجارة التي تعبر أراضيها، من السودان إلى صنهاجة في الجنوب، ثم إلى زناتة في المغرب الأقصى، قبل التوجه إلى البحر الأبيض المتوسط. و أدى هذا الأمر إلى إثارة حقد صنهاجة المثلثة، و زحفوا على زناتة في المغرب الأقصى و بسطوا نفوذهم عليها. و بإبعادهم لزناتة عن هذا الطريق التجاري العام، الذي امتلكوه ، استحوذوا على أرباح العبور لوحدهم حتى عظم ثروتهم⁽³⁾.

1. إدريس (عماد الدين): "تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب"، (ت: محمد يعلاوي)، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت لبنان، 1985، ص 717.

2. جودت (عبد الكريم يوسف)، المرجع السابق، ص.215.

3. محمود (السيد)، "تاريخ دولة المرابطين و الموحدين"، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999، ص ص 109-110.

إضافة إلى هذا الصراع، لا بد من ذكر الصراع الذي نشب بين المرابطين وملك السودان قبل ظهور عمال أبي بكر* ابن عمر، أشير إلى شخصية يحيى ابن عمر** الذي كان هدف خروجه من الرباط النيل من أودغشت، التي هي مفتاح طرق القوافل السودانية، كما كانت محل الصراع بين الممالك السودانية و ممالك الصحراء اللمتونية، والتي تعود ملكيتها إلى المنتصر في الحرب⁽¹⁾.

بين لي هذا التحليل الصراع الذي خاضته الدولة المرابطية للسيطرة على مسالك تجارة الذهب من جهة، كما كشف لي من جهة ثانية، أنه لم يطبع حياة الدولة بشكل عام، حيث ظهر فيها ما لم يظهر في الدويلات التي عرفها المغرب الإسلامي. حيث شهدت الدولة المرابطية انقسام قواتها إلى قسمين : قسم في مراکش، نشاطه المغرب والأندلس، تحت قيادة يوسف ابن تاشفين، وقسم آخر في إفريقيا المدارية الغربية تحت قيادة أبي بكر ابن عمر⁽²⁾. من خلال هذا التقسيم يتضح أن ذهب السودان لم يكن الغرض الوحيد الذي من أجله ظهرت الدولة المرابطية، خاصة بعد أن رضي أبو بكر بالتوجه نحو السودان حاملاً راية الجهاد، تاركاً وراءه كل ثرواته وممتلكاته بين يدي ابن عمه يوسف بن تاشفين⁽³⁾.

* من القادة المرابطين الذين ساهموا في ادخال الإسلام إلى السودان، و هو ابن عم يوسف بن تاشفين.

** يحيى ابن عمر : استشهد عام 427هـ / 1035 م في معارك ضد ممالك السودان (غانة، مالي و التكرور).

1. محمد عبد الهادي (شعيرة)، "المرابطون - تاريخهم السياسي" -، ط.1، مكتبة القاهرة، 1969، ص.49.

2. مؤنس (حسين)، "تاريخ المغرب و حضارته"، م.2، ج.2، ط.1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، 1992، ص.21.

3. نفسه، ص.22.

و أهم هذه الثروات، و التي تثير الانتباه زوجته زينب النفزاوية * التي امتازت بالمال و الجمال. لقد أشارت إليها بعض المصادر قائلة : " بعد أن خطبها أبو بكر وتزوجها و عدته بمال كبير تخرجه له، ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب عينيه، فأزالت العصابة ففتح عينه فرأى بيوتا فيها ذهب كثيرا و جواهر، و فضة و يواقيت، فعجب لذلك أبو بكر كل العجب لما عاين من الذخائر و الذهب و الفضة، فقالت له زوجته : هذا كله ملك لك و متاع أعطاك الله آياه على يديا، فصرفته الآن عليك" (1).

و ما استنتجته من خلال هذه الرواية أن كنوزا كبيرة كانت في حوزة من ملكوا القبائل الصحراوية من الرؤساء قبل مجيء المرابطين. والسؤال المطروح هو هل بالإمكان اعتبار مصادر هذه الثروة من ذهب السودان و لا يمكن لي أن أتوقف في هذه الدراسة عند الإشارة إلى هذه الرواية فقط بل هناك من أشار إلى ثروة المرابطين بشكل آخر من خلال عدة روايات، وأهمها الهدية التي قدمها يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه أبو بكر بن عمر، من أجل كسب وده ورضائه، و تتمثل في عشرين ألف دينار من الذهب، و سبعين فرسا منها عشرون محلى بالذهب، و عشرون زوجا من المهامز المحلاة بالذهب (2).

من خلال ما سبق ذكره حول الصراع من أجل الاستحواذ على الذهب، يصدق المثل المغربي القائل : " إن السودان يشفي الناس من الفقر كما يشفي القطران الإبل من الجرب".

* هي زينب بنت إسحاق النفزاوية، أبوها تاجر و أهله من القيروان.

1. ابن عذارى (المراكشي). نفس المصدر، ج1، ص18.

2. حسن (على حسن)، "الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس، عصر المرابطين و الموحدين"، ط 1، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1990، ص 62.

3. معدن الذهب و سك النقود

أ. ذهب السودان و العملة المغربية

ما زالت دراسة المسكوكات العربية الإسلامية تشكل إحدى المواضيع التي تلفت اهتمام جل الدارسين للتاريخ على الخصوص، و هذا انطلاقا مما تحمله من تفسير لأحداث كانت تهدف إلى إبراز العظمة و ترسيخ الانتماء الديني أو إظهار قوة الخليفة أو السلطان⁽¹⁾.

و لذا أجدها قد ضربت في كل عواصم الإسلام و في أشهر مدنها باختلاف رسمها وسعتها ونصها، و التي كانت تتماشى و اختلاف الدول و العصور⁽²⁾. واستطاعت الدراسات الحديثة من خلال معاينتها لعدد من العملات التي ضربت في المغرب الإسلامي، أن تضع حدا للغموض الذي ساد بعض الكتابات التاريخية للمنطقة⁽³⁾. إضافة إلى إدراج بعض التساؤلات ضمن هذه الدراسات كالبحت مثلا عن موضوع تحقيق الوحدة السياسية من خلال ضرب العملة⁽⁴⁾، و الذي أراه موضوعا لا يستهان به خاصة إذا تعلق الأمر بدولة المرابطين و الموحيدين.

1. ابن قربة (صالح)، "المسكوكات المغربية من الفتح إلى سقوط دولة بني حماد"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص. 13.

2. زيدان (حرجي)، "تاريخ التمدن الإسلامي"، ج. 1، ص. 145.

3. ابن قربة (صالح)، نفس المرجع، ص. 13.

4. أنظر BENHSAIN (M.), « Approche quantitative de l'Or monnayé en occident musulman (450/1058 à 830/1416) », T.1, p.11.

إن الدراسات الحديثة أصبحت تثري المسكوكات ببحوث أكثر دقة من سابقها رغم الصعوبات التي واجهتها في بداية الأمر. و لقد استطاعت أن تعطي ثمارها بعد تظافر جهود العديد من الدراسات التاريخية منها و الاقتصادية و الأثرية. و من أمثلة هذه الإنجازات التي حققتها هذه الدراسات، تقدير كمية الذهب التي نقلت من السودان الغربي إلى المغرب الإسلامي خلال فترة العصور الوسطى، انطلاقا من دراسة بعض العينات من النقود التي ضربت في مختلف مراكز ضرب العملة التي عرفها المغرب الإسلامي، كسجلماسة و اغمات و مراکش الخ...⁽¹⁾.

و أهمية هذه الدراسات لا تتوقف عند تقدير كمية الذهب فحسب، بل توصلت إلى تحديد عيار الذهب الذي ضربت منه العملة و درجة نقاوته التي كانت في مستوى أدهش كل الدارسين له، و هو ما دفع بالعديد من الدارسين، حسب رأيي، إلى الحسم في أمر جودة ذهب السودان الغربي على أنه كان الأحسن و الأنقى.

إن البحث في هذا الموضوع، و بالتحديد في عملة المغرب الإسلامي الذهبية وعلاقتها بالسودان الغربي، يدفعني للعودة إلى العلاقات الأولى بين المغرب و السودان الغربي، و على الأخص بداية ورود هذا الذهب إلى المغرب الإسلامي. و وجدت أن أغليتها لم تذهب بعيدا عندما فصلت في أمر العملة المغربية و الأوروبية التي كان مصدرها ذهب السودان الغربي و فضة و نحاس أوروبا الوسطى إلى غاية اكتشاف أمريكا. هذا الذهب الذي تعود بداية استغلاله إلى الألف الأولى ق.م، عرف مراكز التوزيع له في كل من جني، كومبي صالح و أخيرا تومبكتو⁽²⁾.

1. أنظر : BENHSAIN (M.), op.cit, p.12.

2. أنظر CISSÉ (D.A.), « Histoire économique de l'Afrique Noire », T.3, L'Harmattan, Paris, 1988, p.15.

إن كيفية السيطرة على الذهب و استغلاله لم تبد واضحة من خلال هذه الدراسات خاصة الفترة الرومانية و القرطاجية، و السبب يعود إلى عدم رسم مسالك لهذه الفترة التجارية، و بالتالي تبعد هذه الدراسات عن فكرة وجود ما يسمى بتجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي بشكل واضح و دقيق. لهذا اقتضت الإشارة إلى وجود تبادل بسيط حسب إشارات هيرودوت الذي يؤكد أن القرطاجيين كانوا يمارسون خلال القرن الخامس ق.م " تجارة الذهب الصامتة " في موضع غير محدد على ساحل بحر الظلمات، و يعتقد أن يكون في منطقة الجنوب الغربي للمغرب الأقصى.

و من خلال بعض الدراسات الأثرية تم اكتشاف ثلاث طرق ربطت بين عالم البحر المتوسط و السودان الغربي :

1. الطريق الذي كان يربط منعطف نهر النيجر مع فزان و جنوب المغرب ؛
2. الطريق الثاني، الذي كان يربط موريطانيا بجنوب المغرب مروراً بالصحراء ؛
3. الطريق الثالث ساحلي، و كان يربط بين المرافئ الصحراوية والغينية⁽¹⁾.

لكن هذا لا يكفي للتأكد من أن هذه التجارة فعلاً اجتازت هذه الطرقات، و بالتالي ستبقى هذه الدراسات، حسب رأيي، رهن التحليل و اعتماداً على الحفريات من أجل معرفة ما إذا كان ذهب السودان كان يورد بنفس الشكل الذي عرفته فترة دخول المسلمين إلى المغرب أم بشكل آخر.

1. Ibid, p.15.

و سمح اكتشاف " les chars rupestres " في " Essouk " بالاعتقاد أن منطقة أدرار إفوغاس كانت المعبر الرئيسي باتجاه جاو " Gao ". و هذا منذ فترة ما قبل الميلاد، و موني يرجع قدم تادمكة إلى التاريخ القلم، و الدليل كان معتمدا على العلاقات التي كانت بين العاصمة البربرية العتيقة و " Abelessa " و " Essouk " حسب روايات الطوارق⁽¹⁾.

استطاع لومبارد موريس " LOMBARD M. " أن يشير إلى هذا الموضوع قائلا : " أن دخول الجمل إلى شمال إفريقيا خلال القرن 2 ق.م، سمح للقبائل البربرية بالزحف جنوبا عبر الصحراء. و مع دخول الإسلام و بعد السيطرة على هذه القبائل ساهم في ربط إقتصاد الصحراء بالبحر و المتوسط و بالتالي سهل على الذهب أن يتوجه نحو الشمال من خلال المسالك التي حاول هو الآخر أن يحددها بعد الإشارة إلى سجل ماسة وأهميتها كمحطة تجارية للقوافل و ميناء لواردات السودان من الذهب، في المسلك الذي ينطلق من ورقلة باتجاه النيجر عبر تيدكيلت و الطريق الشرقي الذي يربط الجريد و طرابلس بغدامس نحو آيير و السودان⁽²⁾.

و إذا حاولت المقارنة بين هذه المسالك و ما ذكره هيروودوت أجد أن الذهب كان يعبر مفاوز الصحراء للوصول إلى المغرب، و لذا كما أشرت إليه سابقا للتأكد من وجود هذه العلاقات من ما قبل الإسلام، لا بد من الاعتماد على الحفريات.

1. أنظر DEVISSE (J.), « Histoire du Sahara et de ses relations transsahariennes.. », p.112.

2. أنظر LOMBARD (M.), « Espaces et réseaux du haut moyen âge », Paris, 1972, p.16.

لذا فإن الاتصال الحقيقي لهتين الرقعتين الجغرافيتين بتجارة الذهب لم يكتب لها النجاح إلا بعد ظهور الإسلام، و العرب الذين كانوا على علم بوجود أجدود ذهب في السودان الغربي، الذي كان المصدر الذي ضرب منه الدينار المغربي خلال القرن 10 و 11 م⁽¹⁾. وكان بناء سجل ماسية عام 140هـ/757م عاملا أساسيا لحماية التجار و تجارة الذهب الواردة من السودان، و اهتمام عبد الرحمن بن الحبيب بحفر الآبار على طول المسلك القديم الرابط بين تادمكة و أودغشت عام 128 هـ/745م، بمثابة اهتمام العرب بذهب السودان منذ أن وطأت أقدامهم أرض المغرب، حيث سمح لهم نجاح الفتوحات إلى وضع تنظيم سياسي و إداري أدى إلى التوسع الاقتصادي و الثقافي جنوب الصحراء⁽²⁾. خاصة إذا عرفنا أن التجارة تعتبر أهم نشاط في الحياة الاقتصادية للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، و أن الزراعة و الصناعة ثانوية. ولتحقيق ذلك كان على اقتصاد العالم الإسلامي أن يوسع الشبكة التجارية التي وجدت في الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي عاملا من عوامل الازدهار و النمو بانفتاحه على القارة الأوروبية و الآسيوية والإفريقية⁽³⁾.

لقد أثبتت الفتوحات الإسلامية أنها لم تقتصر على إنشاء إمبراطوريات واسعة تمتد من الشرق إلى الغرب بل إمبراطورية اقتصادية تميزت بامتلاك المسلمين للذهب و النقود ذات قيمة عالية اعترف بها العالم أجمع. و يظهر هذا جليا قبل تفكك الدولة الإسلامية حيث ضرب كل حكام الدول الإسلامية المختلفة النقود الذهبية⁽⁴⁾.

1. أنظر. BENHSAIN (M.), op.cit, p.13.

2. أنظر MAUNY (R.), « Les siècles obscurs e l'Afrique Noire », Librairie Arthème Fayard, 1970, pp.141-142.

3. اسكندر (توفيق)، " بحوث في التاريخ الاقتصادي"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1961، ص ص 51-64.

4. أنظر PEYRONNET (G.), « L'islam et la civilisation islamique VII-XII^e siècle », Paris, Armand Colin, 1991, p.251.

و مما سهل من هذه العملية هو نجاح التجار المسلمين في السيطرة على تجارة الذهب داخل الأسواق الإفريقية، و تحديهم لظاهرة انخفاض إنتاج الذهب في هذه القارة كلما اعتنقت إحدى قبائلها للإسلام. وكان وصولهم إلى أودغشت و غانا و المناطق الأخرى انطلاقا من القرن 8 م دافعا أساسيا لرفع إنتاج الذهب، والذي كان مخصصا للسوق المحلي، بكل ما يشمل من حلي، مجوهرات و كنوز الملك، حيث كانت هناك كمية قليلة تعبر الصحراء مقابل بضائع بحر الروم ⁽¹⁾. و كان الإنتاج يختلف حيث كان مرتبطا بإمكانيات التبادل مقابل البضائع المطلوبة، أين كان الملح في الصف الأول، و النحاس الذي كان من أهم البضائع المستبدلة مقابل الذهب ⁽²⁾.

و كان المرابطون هم السباقون لمثل هذا التحدي بعد أن عرفوا كيف يحددون المقابل التجاري لمعدن الذهب وفق ما تقتضيه بيئة إفريقيا الإستوائية. ليصبح ملح تغازة و تاوديني بضاعة ذات أولوية لا نظير لها في السوق الإفريقية ضعفت أمامه قيمة الذهب و ما سواه ⁽³⁾. و أصبحت الفترة الممتدة من ق 8 إلى ق 11 م للعالم الإسلامي عصر الدينار و التفوق الاقتصادي الإسلامي ⁽⁴⁾. و بالتالي استنتج أن هذه الفترة بالنسبة لإفريقيا الغربية تسمى بفترة العصر الذهبي بسبب ارتفاع إنتاج المعدن الأصفر و الذي امتد إلى غاية القرن 15 م ⁽⁵⁾. و مما سهل ضرب العملة الذهبية المغربية هو أنه من القرن 9 إلى غاية القرن 11 م لاحظ العديد من علماء الاقتصاد أن هناك ما يسمى بأزمة الذهب قبل ظهور المرابطين، و هذا ما قلل من ضرب هذه العملة في الغرب الأوربي ⁽⁶⁾.

1. أنظر. MAUNY (R.), « Tableau géographique... », pp.300-301.

2. Ibid, p.301.

3. أنظر. Cissé (D.A.), « Histoire économique... », pp.16-17.

4. اسكندر (توفيق)، "بحرث في التاريخ الاقتصادي"، ص.77.

5. أنظر. Cissé (D.A.), op.cit, p.17.

6. Ibid, p.25.

و منذ القرن 8 م تنتقل الحياة الاقتصادية من ضرب العملة الذهبية ذات الطابع التقليدي "الروماني البيزنطي" إلى العملة الحديثة ذات الطابع الإسلامي أي الدينار و الذي يظهر بشكل واسع منذ النصف الثامن من القرن 8م⁽¹⁾.

و لا يمكن ملاحظة هذا الانخفاض المسجل في ضرب العملة و كمية الذهب المتداولة بين دويلات المغرب الإسلامي، إلا بعد ظهور العملة المرابطية التي اجتاحت السوق الداخلية و الخارجية للمغرب الإسلامي و عدد من دور الغرب الجديدة التي فتحوها بعدما كانت عملة مركزية في سجلماسة. و قد يكون هذا هو الأمر الذي دفع بالعديد من الباحثين الغربيين في الفترة الحديثة إلى الاعتقاد أن سبب فتح المرابطين للسودان الغربي يكمن في رغبتهم في الاستحواذ على ذهب المنطقة من أجل سك عملة بإمكانها أن ترفع راية إمبراطوريتهم و عقيدتهم، كونهم كانوا على علم بهذه الأزمة و ما كان يعانيه الغرب من نقص في هذا المعدن الأصفر. أي أن الغرب توقف منذ القرن 8 م في ضرب العملة الذهبية.

مهما كان الأمر أقول أن العملة المغربية ظهرت و ضربت في مختلف دور المغرب الإسلامي و استطاعت أن تؤكد من خلال هذا الضرب رغبة الحكام في إبراز سيطرتهم و نفوذهم في المنطقة خاصة إذا تعلق الأمر بالعملة الذهبية، و ما ورد في سياق هذا التحليل لدليل على أن أهمية ضرب العملة الذهبية لدى الدويلات المغربية و مدى مساهمة ذهب السودان في تحقيق هذه الرغبة السياسية و الاقتصادية، كونه سلعة ثمينة يمكن أن تقي تسديد البضائع المستوردة من بلاد المشرق الإسلامي و الأندلس و ما وراء البحر⁽²⁾.

1. أنظر FEVRE (L.), « Mahomet et Charlemagne », A.H.E.S, avril, Librairie

Armand Colin, 1948, p.189.

2. جودت (عبد الكريم)، "الأوضاع الاقتصادية"، ص.226.

ب. الدينار الذهبي المغربي

كان لورود ذهب السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى دور في تفوق العملة المغربية، وظهور الدنانير الذهبية المنقوشة. كما سبق و أن ذكرت اختيار معدن الذهب لضرب العملة المغربية لتوفره، و لأنه أبقى جواهر الأرض و الذي لا يفسد أبدا، فكلما بقي تحت الأرض صلح و طاب، وكلما دخل النار تخلص و حسن⁽¹⁾.

إن توفر معدن الذهب دفع بالعديد من مراكز ضرب العملة إلى فتح أبوابها، كسجلماسة و نول التي تعتبر من أهم الأسواق التجارية التي عرفتها الصحراء، و كذلك عرفت وبرة التبر الذي تجلبه القوافل من بلاد السودان⁽²⁾. و يذكر في هذا الصدد الونشريسي قائلا: "الذهب و الفضة هما مادة الدنانير والدرهم المضروبة منهما المتواصل بها إلى الأغراض، و أئمن الأشياء و قيمتها تقوم بذاتها، و يقوم غيرها بها بخلاف سائر المتمولات"⁽³⁾.

و إن كان المنطلق هو الدينار الفضي، فإن سمعة الدينار شاعت بعد ظهور معدن الذهب، خاصة فترة العصر الإسلامي حيث أجد أن أصل كلمة دينار، لفظ لاتيني والأصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوي عشر آسات*، أي مشتق من كلمة ديني "Déni" ** التي تعني عشرة⁽⁴⁾.

1. أبو الحسن (ابن علي الحكيم)، "الدوحة المشبكة..."، ص46.

2. حسن (أحمد محمود)، "قيام دولة المرابطين"، ص350.

3. الونشريسي، "المعيار العرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا و الأندلس و المغرب"، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م، ص337.

*الآس : من دراهم الروم.

** وزنه سبع أوقية رومانية أو جزء من مائة من الرطل.

4. جرجي (زيدان)، "تاريخ التمدن الإسلامي"، ج1، دار الهلال، ص141.

و هذا ليس معناه أن الإمبراطوريات التي كانت قبل الإمبراطورية الإسلامية لم تضرب الدينار الذهبي أو العملة الذهبية، و لكن من حيث الاستفادة من معدن ذهب السودان الغربي، لاحظت أن العديد من الدراسات الغربية أكدت أن الرومان لم يستفيدوا من ذهب السودان الغربي، و لم تضرب عملتهم منه كما ضربت العملة المغربية أو الإسلامية عامة، و لتوضيح ذلك تشير الفترة التاريخية الممتدة ما بين سنة 346 إلى 388 بعد الميلاد أن حجم العملة المضروبة تضاعف عشرين مرة، ليستمر الوضع على حاله خلال القرن الخامس و السادس و السابع، بالرغم من ظهور بعض الأزمات، حيث تميزت هذه الفترة بإصدار الأباطرة للصليدي الذهبي "Solidus" * ثم تريمسيس "Trémssis" في عام 383م، و بعدها ظهور ما يسمى بـ "Centenaria" ** من أجل قياس قيمة العملات المتداولة في الأسواق.

طُرحت أسئلة عديدة عن مصدر هذا الذهب و إن كان مرجعه من السودان الغربي أم لا، خاصة بعد أن استولى جنزريك في حملته ضد روما، عام 468م، على 42 طن من الذهب. واحتواء خزينة "Anastase" على حوالي 320 قطعة "Centenaria" أي ما يقارب 104 طن من الذهب. إلا أن الأهم في الأمر، هو أن هذا الذهب مصدره إذابة الأواني، و التماثيل و القطع القديمة. و أن روما لم تربط علاقاتها مع غانة القديمة، و أن العلاقات التي كانت تربط الرومان و الوندال و البيزنطيين مع سكان الصحراء كانت سيئة (1).

* Tremssis : نعي به ثلث الصليدي "Solidus"

** Centenaria : يزن 32,256 كلغ.

1. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », p.82.

و عدم وجود أي أثر لأية قاعدة تجارية و عسكرية في الصحراء⁽¹⁾
لأكبر دليل على ذلك، ما دام التاريخ ينفي استفادة هؤلاء من ذهب السودان الغربي،
أصبح في المقابل يؤكد لنا استفادة العالم الإسلامي منه، بعد أن أصبح الدينار هو
العملة الرئيسية خاصة بعد انتصار الذهب خلال القرن التاسع، و الذي يعود إلى
عاملين أساسيين هما : إعادة الذهب المكنوز إلى التداول و ورزود ذهب السودان⁽²⁾.
لتضرب كل إمارات المغرب الإسلامي الدينار الذهبي بدون قيد أو شرط.

فالدينار الذهبي الأغلبى ضرب من ذهب السودان لا محالة، إلا أن
الاستفادة الرمزية كانت لبني العباس في البداية، حيث كانت خالية من لفظ "غلب"
أي تضاريس الأغلب، ليدخل الدينار الأغلبى بعد الفترة الممتدة من سنة 196 و 201 هـ
مرحلة ثانية، أي التخلص من التبعية الاسمية للخلافة العباسية و ضربت هذه النقود في
كل من القيروان و العباسية و رقادة. و يتميز الدينار الأغلبى بأنه يحمل اسم الأمير
و تاريخ الضرب على الظهر، و يحمل شهادة التوحيد و الرسالة المحمدية على الوجه.
والدينار الأغلبى عبارة عن قطعة مستديرة الشكل يختلف قطرها من أمير إلى آخر، أي
ما بين 17 إلى 20 ملم، أما وزنها فيتراوح بين 4 إلى 4,30 غ. إلا أن أبرز الخصائص المميزة
التي تنفرد بها عملة الأغلبة هو حملها لشعار "غلب" في الجزء العلوي لكتابة مركز
الظهر و هذا تمييزا لهم عن سكة أمراء المسلمين المعاصرين لهم في المغرب،
وتعبيرا عن استقلالهم السياسي⁽³⁾.

1. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain de la préhistoire à 1600 », page 82.

2. لومبارد (موريس)، "الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية"، في "بحوث في التاريخ الإقتصادي"، (ت: توفيق اسكندر)، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1961، ص 66.

3. ابن قربة (صالح)، نفس المرجع، ص ص. 177-187

و ما يهمني أكثر في دراسة هذه العملة هو درجة نقاوة الذهب فيها، و التي وصلت دون جزم إلى 99%⁽¹⁾، بل 100% في بعض الأحيان، هذا ما يؤكد حسب رأيي أن الذهب كان متوفرا في عهد الأغالبة و سمح لهم فعلا أن يصدروا الدينار الذي ميز عملتهم عن بقية العملات الأخرى. و لا غرابة في الأمر أن أتحدث عن نقاوة ذهب عملة بني الأغلب و الأمر يتعلق بذهب السودان، و ليس بالغريب أيضا، أن نتحدث عن وفرة هذا المعدن و هو يورد بكميات كبيرة على المغرب، حيث كان في متناول كل الحكام الذين عرفهم المغرب الإسلامي، والذين كانت لهم قوافل تُسير و تجهز لحسابهم، فأبو الغرائيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب استطاع أن يبني قصرا عند خروجه لصيد الغرائيق بثلاثين ألف مثقالا من الذهب.⁽²⁾

كما أن هذه الدنانير الجميلة هي التي غنم منها أبو عبيد الله الداعي و التي أرسل منها إلى عبد الله الشيعي و هو في سجلماسة يعلمه بالفتح، حيث وجه إليه بمال كثير. و يقول ابن عذارى في ذلك : " ذكر رجل من بني هاشم بن عبد المطلب، كان مع عبيد الله بسجلماسة قال : " و صل عبيد الله بمال كثير من دنانير لا توجد في ذلك البلد فكثير تعجبي منها" ⁽³⁾.

هذا ما يدفعني للاستنتاج أن إرسال هذه الأموال إلى عبيد الله الشيعي و هو بسجلماسة تأكيدا على أن الهدف الذي من أجله هاجر الشيعي و أصحابه إلى إفريقيا يبدو واضحا، و هو النيل من ثروة المغرب المتمثلة في ذهب السودان الغربي.

1. ابن قربة (صالح)، المرجع السابق، ص ص. 177-187.

2. ابن عذارى (المراكشي)، المصدر السابق، ص 120.

3. نفسه، ص ص. 138-139.

أما في العهد الفاطمي، استطاع الدينار الذهبي الفاطمي أن يدشن الحرب الإيديولوجية في الغرب الإسلامي، و هذا بإظهار قوة انتصار الحكم الجديد. خاصة بعد توسعهم و بداية ضربهم للعملة الذهبية في كل من سجلماسة و المهدية، خاصة سنة 365 هـ/ 975 م. هذا ما دفعهم إلى إبراز حرصهم الشديد في تنظيم تجارة الذهب عبر الصحراء، فاستطاعوا أن يجعلوا من طريق سجلماسة - غانة، الطريق الأساسي للذهب إفريقيا السوداء على الأقل لفترة قرنين، و الشريان الحيوي لعملتهم الذهبية وجمع ثروتهم الحربية.

و أكدت الدراسات الأثرية التي عرفتها أودغشت على أن الموازين الزجاجية التي عثر عليها كانت جملها فاطمية و بعد انتقالهم إلى مصر و بالتحديد بعد سنة 1070 أصبحت تستقبل الدينار المرابطي⁽¹⁾، لأي أن استغلال الفاطميين للذهب السودان كان أثناء فترة تواجدهم على أرض المغرب. و من مميزات السكة الذهبية الفاطمية أنها لم تختلف عن سكة بن الأغلب، مع زيادة أقطار النقود أي من 20 إلى 23 ملم، و الأوزان تراوحت من 4 إلى 4,20 غ للقطعة الواحدة، أما بالنسبة لدرجة نقاوتها فكانت تتراوح ما بين 89 % إلى 100 % حسب العينات التي أشار إليها الأستاذ ابن قربة⁽²⁾.

بغض النظر عن ذلك فلقد كان الفاطميون يبحثون عن ضمان العرض الكبير للنقود الذهبية، و قد تحقق لهم ذلك حتى أصبحت دنائيرهم مطلوبة من طرف كل التجار و حتى في المشرق⁽³⁾.

1. أنظر : EL-FASI, « Histoire générale de l'Afrique » T. III, l'Afrique du VII^e au XI^e siècle, C.S.I.R.H.G.A , Paris, Edicef/UNESCO, 1997, pp. 297-299.

1. ابن قربة (صالح)، نفس المرجع، ص ص. 278 - 279.

2. EL-FASI, op.cit, 298.

و لم يختلف الأمر كثيرا في عهد بني زيري، حيث استمرت مراكز القيروان و المهديّة والمنصورية في ضرب العملة بأسماء الخلفاء الفاطميين. و هي على شكل مستدير قطرها يتراوح ما بين 20 إلى 22 ملم، و وزنها بين 3,62 غ و 4,36 غ.

إلا أنه في فترة المعز بن باديس الصنهاجي يحدث عليها تعديلا طفيفا ليصبح قطرها يتراوح ما بين 21 ملم و 24 ملم، أي أكثر اتساعا من العملة الفاطمية، و وزنها بين 3,96 غ و 4,15 غ، أي أن عيارها كان جيدا هي الأخرى. و ظهور دينار المعز بن باديس الصنهاجي، ما يثبت غوص السكة الذهبية الزيرية في إفريقيا.

و أساس وزن الدينار المرابطي ينطلق من القاعدة التي وضعها عبد المالك بن مروان حيث كان وزن الدينار أو المثقال 22 قيراطا ناقص حبة، أي 72 حبة شعير، و هذا إما أن يعادل 4,25 غ من الوزن الكلي، أو الوزن الصافي له. بعد عدة دراسات لعينات من العملة المرابطية وصل إلى 4,063 غ من الذهب. إلا أنه بصفة عامة و كما سبق و أن ذكرت، فإن عيار الدينار المرابطي يسبق جيدا و يفوق معدلها 90% ⁽¹⁾.

وهذه ربما من الأسباب التي دفعت الدينار المرابطي أن تزداد الثقة به أكثر في كل من الأندلس و المغرب و الشرق، و ترتفع قيمته بعد كثرة المعاملات و التداول، وكاد أن يصبح عملة دولة و نال من الشهرة ما نالته عملة فلورين* الإيطالية فيما بعد ⁽²⁾.

1. أنظر BENHSAIN (M.R), op.cit, p.20.

* وهي عملة الفلورين.

1. حسن محمود (أحمد)، "قيام دولة المرابطين"، ص 352.

هناك عاملان أساسيان لعبا دورا في توسيع شهرة عملة المرابطين وسرعة انتشارها وكثرة الطلب عليها. فالعامل الأول تمثل فيما سبق ذكره، أي سمعة تبر السودان، الذي يعتبر المادة الخام لهذه العملة، أما العامل الثاني تمثل في أن المرابطين قد تجاوزوا النسبة التي حددها الدين الإسلامي في ختم العملة، والذي ينص على أن يكون وزن المعدن الثمين فيها من الذهب و الفضة يساوي 2/3 من الرزن الكلي، هذا إذن عكس المقصودة * التي يفوق فيها المعدن المزوج (النحاس) المعدن الأصلي (الذهب و الفضة) بشكل كبير⁽²⁾.

* القطعة المزورة أو المغشوشة.

1. أنظر : BENHSAIN (M.R.), op.cit, p.17.

2. Ibid, p.20.

4. المراكز المغربية لسك النقود

كانت و لا زالت دور ضرب العملة إحدى المؤسسات الضرورية التي بواسطتها تستكمل سيادة الدولة، حيث لا تخلو دولة من دول الأرض المتمدنة من دار تضرب فيها النقود، و كان ذلك شأن الدول الإسلامية⁽¹⁾ في كل أدوارها خاصة المغرب الإسلامي.

و إذا حاولت الربط بين ضرب العملة و المراكز المغربية لسك النقود وعلاقتها بذهب السودان الغربي أجد نفسي أمام أهم المراكز الصحراوية التي أشارت إليها جل الدراسات العربية و الغربية التي اهتمت بالعملة الإسلامية. فمن بين أهم هذه المراكز سجلماسة، التي تعتبر دولة بني مدرار أول من سك نقود الذهب فيها⁽²⁾، كون هذه المدينة المحطة الصحراوية الكبرى التي تستورد ذهب السودان الغربي مباشرة من المدن الساحلية و بمختلف أشكاله. فهناك من الذهب ما كان يستورد على شكل مادة خام أي تبر، أو على شكل سبائك و فتائل و حلي ثم نقود. و للعلم فقد كانت مراكز ضرب النقود تستورد الذهب على نوعين : تبر أو حلي⁽³⁾. هذا ما دفع بتجار الساحل إلى تحويل التبر إلى سبائك و فتائل، لكي تسهل عليهم عملية نقله عند اجتياز الصحراء بدلا من نقله على شكل تبر.

-
1. جودت (عبد الكريم يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط..."، ص. 72.
 2. جرجي (زيدان)، "تاريخ التمدن الإسلامي"، ج. 1، بيروت، دار الهلال، بدون سنة الطبع، ص. 145.
 3. أبو الحسن (بن علي الحكيم)، المرجع السابق، ص. 68.

لقد أشار البكري أن أودغشت تعتبر أكبر مركز لتحويل الذهب، كما أشار أيضا إلى أن تادمكة تعتبر مركزا آخر لضرب "الصلع" أي الدينار غير المنقوش "Chauve" ⁽¹⁾. وهذه الإشارة تعتبر الوحيدة التي بإمكانها أن تقودنا إلى مكان وجود مراكز لضرب العملة في مدن الساحل أو حتى إفريقيا، و في رأيي كما سبق و أن أشرت، فإن المناطق الاستوائية لم تحقق من التطور والازدهار و النمو الاقتصادي ما عرفته مدن الساحل من جهة، و من جهة ثانية كون هذه المدن الساحلية لم تعط عملية ضرب العملة نفس الأهمية التي أولتها إياها إمارات المغرب الإسلامي التي كانت بواسطة هذا المعدن الأصفر في احتكاك مباشر مع الحركة النقدية التي عرفها بحر الروم. خاصة بعد أن أضحي الدينار عملة رئيسية في العالم الإسلامي، و عملة حقيقية تستخدمها كبريات المدن والعواصم التجارية الكبرى، إضافة إلى استعمالها في العمليات الحسابية لتقدير الضرائب ⁽²⁾.

وهذا راجع إلى استخدام بعض المواد التي كانت تمثل قيمة البضائع التي تباع في السوق. فبعد أن استخدم الذهب أي "التبر" كعملة، والتي فرضت نقل الميزان الخاص به، و في المناطق الأخرى من إفريقيا نجد اللجوء إلى استخدام الأقمشة كعملة مقابل شراء المستحقات، كما نجد أيضا اللجوء أيضا إلى الجلد، أو الملح و النحاس و الحديد، و انطلاقا من القرن 11 م، أشار المؤرخون إلى وجود الصدف* التي تعوض العملة النقدية المعدنية عند الأفارقة. و أشار البكري إلى أهميتها في إمبراطورية غانة. لكن العمري يشير فيما بعد أن الصفقات التجارية كانت تتم بواسطة الصدف ⁽³⁾. و لقد شاع استخدامها إلى غاية القرن 19 م، في كل الغرب الإفريقي خاصة في الحوض الأوسط لنهر النيجر، الساحل الموريطاني و البنين ⁽⁴⁾.

1. البكري، نفس المصدر، ص 179.

2. لومبارد (موريس)، "الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية"، في "بحوث في التاريخ الاقتصادي"، ص 66.

* الصدف : تدعى بالعامية الجزائرية "الردع"، كان العرب يجلبونها من جزر المالديف في المحيط الهندي، لتستخدم في إفريقيا كحلية ونقود.

3. أنظر GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », pp. 71-72.

4. أنظر MEUNIE (J.), « Le Maroc saharien des origines au XVI siècle », p 243.

و قيمة هذه الصدف تحدد مقارنة مع الذهب حسب فترات مختلفة، مثلاً نجد 3000 صدف "Coquilles" مقابل مثقال من الذهب و الذي يناسب (4,5 غ من الذهب)، و هذا الرقم بإمكانه أن يرتفع أو ينخفض حسب الأوضاع خاصة كفترة الجفاف أين نجد 500 صدف مقابل مثقال من ذهب. إذن، فالملاحظ هنا اللجوء إلى عدة استخدامات تفرضها الحياة اليومية للإنسان الإفريقي دون العودة إلى عملة رسمية تمثل ختم الدولة و سيادتها⁽¹⁾.

إن ارتفاع عدد مراكز ضرب العملة الذهبية في المغرب و إسبانيا قد أذهل علماء الاقتصاد، حيث وصل عدد هذه المراكز التي ضربت العملة لحكام المغرب فقط عشرين داراً، إلا أن الملاحظ أنها لم تنشأ في فترة واحدة⁽²⁾. هذه المراكز التي عرفت ضرب العملة كانت عبارة عن مدن أو مراكز سياسية-إدارية، أو تجارية لأنظمة الحكم التي عرفها المغرب الإسلامي حيث كان معروفاً أن اختيار مركز ضرب السكة كان يتمشى والأوضاع السياسية و الاقتصادية للدولة⁽³⁾.

و من بين أهم هذه المراكز التي يقتضي البحث عنها، مركز "سجلماسة" المحطة الصحراوية، الذي بدأ ضرب العملة الذهبية بها سنة 311 هـ/923 م و استمرت إلى سنة 823 هـ/1420-1421 م. لقد سكّت فيها العملة الذهبية لصالح بني مدرار و للأمويين والفاطميين. وبعد سنة 446 هـ/1054-1055 م يبدأ بضرب العملة الذهبية لصالح المرابطين إلى غاية 483 هـ/1090-1091 م، كانت سجلماسة المركز الوحيد الذي كان يسك عملة ذهبية لصالحهم في المغرب الإسلامي إلى غاية ظهور المركز الثاني، و هو مركز أغمات سنة 486 هـ/1093 م أي بعد حوالي 30 سنة. و السنة الوحيدة التي توقف فيها الضرب، في هذا المركز كانت 459 هـ/1066-1067 م⁽⁴⁾.

1 أنظر GIRI (J.), op.cit, pp 71-72.
2 أنظر BENHSAÏN (M.R.), op.cit, p. 57.
3 Ibid., pp 60-61.
4 Ibid., p.62.

و تدخل سجلماسة تحت سيطرة المرابطين سنة 446 هـ/1054 م، وضربت بها العملة الذهبية لأول مرة لصالحهم سنة 450 هـ/1058 م، و استمر ذلك إلى غاية 541 هـ/1146 م. و بعد هذا التاريخ تبدأ سجلماسة بالتخفيض من نسبة ضربها للعملة الذهبية لصالح المرابطين⁽¹⁾.

المركز الثاني بعد سجلماسة هو مركز أغمات*، هذا المركز الذي يبدأ في ضرب العملة سنة 486 هـ/1093 م، أي بعد حوالي 35 سنة بعد استقرار كل من أبي بكر ويوسف بن تاشفين في هذه المدينة و بعدها بثلاث سنوات يبدأ الضرب في مركز مراكش أي في عام 490 هـ/1096-1097 م⁽²⁾. و ازدهر مركزها من 486 هـ/1093-1094 م إلى غاية منتصف القرن الثاني عشر، و يعود انخفاض ضرب العملة في مركز سجلماسة السالف الذكر، إلى زيادة الضرب في مركز أغمات، فهو بذلك يعد من أهم مراكز ضرب العملة الذهبية المرابطية⁽³⁾.

مركز تادلة " TADLA " :

ساهمت هذه المدينة في ضرب العملة الذهبية عام 493 هـ/1099-1100 م، لصالح المرابطين. و تادلة كانت ضمن حكم أسرة بني يجران خلال القرن 10 و 11 الميلاديين. ولم تذكر المصادر الموقع الحقيقي لهذه المدينة، و التي لا تعني بكل تأكيد قصبة تادلة الحاية، التي تقع بالقرب من مدينة فاس. إضافة إلى هذا كانت

1. أنظر BENHSAIN (M.R), op.cit, p. 63.

* أغمات : تقع في قبيلة مراكش، و هي مدينة قلعة بنيان، قيل أنها من بنيان الحواريين، و هي حاضرة المصامدة و دار الملك قبل أن تبني مراكش. أنظر مخطوط الأربع كراسات، المكتبة الوطنية الجديدة، تحت رقم 2321.

2. BENHSAIN (M.R), op.cit, p. 63.

3. أنظر MEUNIE (J.), op.cit, p. 244.

تادلة مركز ضرب الدينار " الصلح "، الذي هو نفس العملة التي أشار إليها البكري في تادمكة، بالرغم من عدم أهمية هذا المركز ، إلا أنه ساهم بشكل جيد في ضرب العملة الذهبية المرابطية⁽¹⁾.

مركز تلمسان :

لم يكن مركز تلمسان الذي بدأ مساهمته في ضرب العملة الذهبية المرابطية عام 494 هـ / 1100-1101 م، يقل أهمية عن بقية المراكز الأخرى التي ساهمت في بروز عملة المرابطين داخل و خارج المغرب الإسلامي، فبالرغم من أن إصداراتها كانت ضعيفة مقارنة بالمراكز المذكورة سابقا، إلا أنها كانت توحى إلى مدى بسط المرابطين لسيادتهم في مختلف أجزاء المغرب الإسلامي، كون هذه المراكز تشكل إحدى المؤسسات الحكومية التي تبرز مدى ثبات سلطة الدولة وتوسع نفوذها.

مركز سبتة :

سبتة، هذه المدينة التي تطل على واجهتين بحريتين، تعتبر أغنى و أجمل المدن و تحتوي على مركز لضرب النقود، يقع في المنطقة التي تدعى القصبة على جبل مينا. ويعتبر من بين المراكز المغربية النادرة التي ضربت بها العملة دون انقطاع طوال فترة العصور الوسطى، إلى جانب مركز فاس و مراكش. بدأ العمل بها عام 403 هـ/ 1012 م. و يعتبر من أهم مراكز إصدار النقود الذهبية في المغرب. إلا أن هذا لا يعني أنه كان يلبي كل مطالب الضرب الذهبي لبحر الروم، و هذا ردا على كل الدراسات التي كانت تؤكد على أن إصدارات هذا المركز كان يفوق كل التصورات⁽²⁾.

1. أنظر BENHSAIN (M.R), op.cit, p .82.

2. Ibid, p 88.

و كان يوسف ابن تاشفين الوحيد الذي ضرب العملة الذهبية سنة 484 هـ/1091-1092 م، في هذا المركز و عدد القطع التي تم تعيينها هو 8 دنانير، أي ما يعادل 0,0066 % من مجموع القطع المغربية المفروضة في عهد المرابطين. و منذ القرن 10 م أصبح هذا المركز يصدر دنانير حسنة السمعة و كانت مساهمته من عملية ضرب الذهبي تقدر بـ 0,028 ، انطلاقا من سنة 450 هـ/1058-1059 م.

بدأ مركز سبتة في ضرب العملة الذهبية في عهد الحموديين عام 403 هـ /1012-1013 م، و كان الإصدار باسم علي بن حمود ما بين 400 هـ/1009-1010 م و 408 هـ/1017-1018 م.

مركز مراكش :

بدأت دار مراكش في ضرب العملة الذهبية عام 485 هـ/1092-1093 م، وعرفت المدينة في عهد المرابطين ازدهارا و نموا سريعا لم يسبق أن عرفتة أية منطقة قبلها. و كانت هذه المدينة حلقة و صل بين مشارف الصحراء و فاس - عاصمة الأدارسة-. و الملاحظ أن سكها للعملة الذهبية لم يكن في مستوى مركز سجلماسة و فاس، إلا أنه كان لها دور سياسي جعل كل دول المغرب تنافس عليها فيما بعد ⁽¹⁾.

1 أنظر Ibid, p. 92

و الخلاصة هي أن المراكز المذكورة لم تكن الوحيدة التي ضربت بها العملة الذهبية في المغرب الإسلامي، ما بين القرنين 3 و 5 هـ/9 و 11 م، بل كانت هناك مراكز أخرى عرفها الشمال كالقيروان و المهدية و المنصورية، إلا أن ذكر المؤرخين لها دون دراسة دقيقة، صعب علي مهمة تعريفها و إدراجها ضمن سلسلة هذه المراكز التي اشتهرت على الخصوص في عهد المرابطين و الفاطميين و الأمويين أيضا.

الفصل الثالث

معدن الذهب و التبادل التجاري
بين المغرب و السودان

1. - الذهب و المجتمع الإفريقي

- أ. أهمية الذهب في المجتمع السوداني و الإفريقي عامة
- ب. تسويق الذهب داخل بلاد السودان

2. - المبادلات التجارية بين المغرب و السودان

- أ. الذهب يتصدر واردات المغرب
- ب. السلع الأخرى

3. - مسالك تجارة الذهب

- أ. المسلك الغربي
- ب. المسلك الأوسط
- ت. المسلك الشرقي

4. - محطات تجارة الذهب

- أ. المدن
- ب. القصور

1. الذهب و المجتمع الإفريقي

أ. أهمية معدن الذهب في المجتمع الإفريقي و السوداني عامة

بعد دراستي للموضوع و تحليلي له، اكتشفت أن لمعدن الذهب ثلاث توجهات أو نظرات داخل المجتمع الإفريقي. فالنظرة الأولى تنطلق من العادات والتقاليد، و ما فرضته من طقوس لاستغلال هذا المعدن الثمين. و النظرة الثانية تنطلق من الدين الإسلامي و ما أحدثه من تغيير في أوساط هذا المجتمع الإفريقي بعد توسع الفتوحات الإسلامية، أما النظرة الثالثة فتتمثل في النظرة الاقتصادية، و ما أحدثته من تغيير وجهة النظر في هذا المعدن الثمين.

فالنظرة الأولى، المتمثلة في المعتقدات الاجتماعية لإفريقيا، تنطلق من أن للمعادن طابعا مقدسا، فمن خلال النظر إلى النحاس و البرنز و الحديد، وجدت ان لها أثرا في التصور الاجتماعي، حيث يرتبط كل معدن بقوي حامية. فمعدن " Laiton " أو الشبه المعروف بالنحاس الأصفر، تُبعد به المجتمعات الأفريقية الآلام والخطر الخارجي⁽¹⁾، أما الحديد فهو رمز القوة الحربية والسحر الديني، أما النحاس فهو أكثر أهمية من معدن الذهب، لأن الأفراد يستخدمون في حياتهم اليومية كأوان وحلي. ولقد استبدل معدن الذهب بالنحاس لقرون عدة. و هذا ما جعل المجتمع الإفريقي - في نظري - يتعد عن استعمال المعادن المذكورة و يهتم أكثر بمعدن النحاس.

1. أنظر MEYER (L.), « Les Métaux précieux dans l'Art de l'Afrique Noire », Ed. Sépia, 1997, p.12.

أما بالنسبة لمعدن الذهب فالأمر يختلف تماما، فمن خلاله اكتشفت مدى توسع الفكر الأسطوري والخيالي في المعتقدات الإفريقية و العمق الحضاري في مجال الوثنية و ارتباطاته بهذا المعدن، فلا يعتبر معدن الذهب عنصرا من عناصر الثروة أو معدن نضع منه حلية أو تحفة فحسب، بل تعدى هذا التصور في فكر هذه المجتمعات، إلى اعتباره مادة مقدسة. فالمجوهرات والتحف المصنوعة منه، لا يهدف من ورائها التجميل و الزينة بقدر ما كانت تعني الوساطة التي تلعبها مع الآلهة وعالم الجن التي تنتمي إلى العالم الخفي⁽¹⁾.

فالمرأة التي تتزين بحلية الذهب تهدف من وراء ذلك إلى وضع الحجاب الواقعي الذي يبعد عنها كل مكروه بل ربما أكثر من ذلك فهو القادر على منح الحياة لأنه أنبل معدن لونه بنفس لون لهيب الشمس، يخفي قوى غير طبيعية، ليصنف فيما بعد بالمعدن الذي يمنح القوة والسعادة والنجاح كما يمنح الصحة والثراء و الحياة الأبدية لأولئك الذين يستعينون به ويعتمدون عليه في نشاطاتهم السياسية والاجتماعية و الدينية ليس كعملة و لكن كإله يهتم بمصير أوفياؤه⁽²⁾.

هذا ما يدفع إلى الاستنتاج أن معدن الذهب استطاع فعلا أن يوجه عادات وتقاليده المجتمع الإفريقي بل صانعها. فمن باب اعتبار أن الذهب عامل من عوامل الثروة بشكل مقدس لدى هذه القبائل، وجدت أن الفرد يجب عليه أن يسير وفق القانون الذي فرضته القبيلة، كما لا يجب عليه التقرب من هذا المعدن دون استشارة رئيس القبيلة أو رب الأسرة.

1. انظر Ibid, p.12.

2. Ibidem ، انظر أيضا : KIÉTHÉGA (J.B.), « L'Or de la Volta Noire », p.185.

فالبحث عن منجم الذهب يتطلب التقرب من رئيس القبيلة الذي يوجه بدوره الفرد إلى سيد الأرض، وهذا الأخير يصدر بدوره التعليمات التي تتماشى والقوانين التي وضعتها القبيلة من أجل البحث عن هذا المعدن. فإذا عثر على منجم الذهب في المناطق المسموح بها يجب على الفرد أن يُعلم كل أفراد العائلة لأداء الطقوس التي تميز هذا الحدث العائلي، حيث تشرع العائلة بعد ذلك في إخراج كل الممتلكات* التي يحتويها البيت وإخلاء هذا الأخير ليدخل الذهب، لأن الاعتقاد يجعل من الذهب ثروة أساسية، بينما الممتلكات الأخرى ثانوية⁽¹⁾.

و بعد إدخال الذهب إلى البيت تعاد تلك الممتلكات التي أخرجت منه، دون أن ننسى القرابين التي تقدمها العائلة بهذه المناسبة لإبعاد كل الأرواح الشريرة عنها أثناء استخراج الكميات الأولى من الذهب و منح جزء منها إلى سيد الأرض.

أثناء البحث عن معدن الذهب، لا يمكن للإنسان المختل عقليا أو الذي لا يوثق فيه أن يشارك أو تسند إليه هذه المهمة النبيلة و المقدسة في آن واحد. فلا بد أن يكون الرجل في كامل قواه العقلية لكي تفوض إليه هذه المهمة، لأنه إذا تجرأ فرد من أفراد العائلة أن يبوح بسر مكان تواجد منجم الذهب، أو يبعه دون إخبار أو استشارة رئيس الأسرة، فإن هذا الأخير يتعرض إلى عقوبة الموت داخل إحدى هذه المناجم، لأن الذهب إذا دخل العائلة فهو بمثابة الجن الذي حضر ليعيش معها⁽²⁾.

* الممتلكات : يقصد بها رؤوس الأغنام و بعض الأواني الثمينة.

1. أنظر. KIÉTHÉGA (J.B.), op.cit, p.187.

2. MEYER (L.), « Les métaux précieux... », p.10.

ولتمييز أفراد المجتمع، وجدت أن بعض الروايات قد أشارت إلى ذلك بشكل طريف، وتذكر بعض هذه الروايات أنه إذا أراد أي فرد من أفراد القبيلة أن ينظم إلى إحدى القبائل النبيلة أو الشريفة، لابد له أن يستعد للاحتفال الذي يقام سنوياً ولمدة أسبوع، و يتميز هذا الاحتفال بأن يضع كل فرد يرغب في الانضمام لإحدى العائلات الشريفة ما يملكه من ذهب أمام أعيان القبيلة، التي تقبل انضمامه أو ترفضه⁽¹⁾.

كما ميز هذا المعدن العلاقة بين الحاكم و المحكوم في الرواية التي أشار إليها البكري عند وصفه لملك غانة قائلاً : "وتنكاملين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان [...] " ⁽²⁾، وهذه القوة التي ميزت سلطة وملوك غانة عن بقية ملوك إفريقيا فيما بعد أرجعها العديد من المحللين إلى معدن الذهب الذي استولت عليه هذه الإمبراطوريات و احتكرت تجارتها.

وبروز الملك أمام العامة بتلك الألبسة الفاخرة والحلي المذهبة والسيوف المحلاة بالذهب، ما هو إلا رمز من رموز القوة والسلطة والثراء، حيث يتفاخر بها الملك أمام الملوك الآخرين. ويقول الإدريسي في هذا الشأن : " إن لملك غانة لبنة من ذهب (أي تبرة من ذهب) تزن ثلاثين رطلا فهي تبرة واحدة خلقها الله من غير أن تسبك في نار أو تطرق بآلة وقد نقر فيها ثقب وهي مربوط لفرس الملك وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان" ⁽³⁾.

1. Ibidem

2. البكري، المصدر السابق، ص. 175.

3. الإدريسي، المصدر السابق، ص. 7.

و ما يمكن الإشارة إليه هو ذلك المعتقد الذي يعني أن المملكة تبقى مستمرة بعد وفاة الملك. و ما زال الذهب إلى حد اليوم يمثل أحد رموز السلطة و القوة لدى العديد من القبائل الإفريقية، بفضل المقعد الذهبي* الذي يرمز إلى خلود سلطة الأسرة الحاكمة والملك الذي يمثلها، ما دام هذا الملك محافظا عليه ولا يدنس قدسيته⁽¹⁾. وهكذا يمكنني أن أستنتج من جهة أخرى أن العادات الإفريقية والمعتقدات الوثنية قد وجهت فعلا معدن الذهب يجعله معدنا ذي طابع إلهي وروحي في آن واحد.

غير أنه سرعان ما تتغير هذه النظرة بعد دخول المسلمين إلى المنطقة وتوسع الفتوحات الإسلامية، فيبرز توجه ثان يبين دخول الذهب في المرحلة الثانية من التسلسل التاريخي لعلاقة المجتمع الإفريقي بمعدن الذهب.

إضافة إلى ما سبق ذكره، تجدر الإشارة إلى أنه قبل دخول الإسلام إلى إفريقيا، وُجّه معدن الذهب للحياة اليومية، خاصة في السوق الداخلية و كذلك صناعة الحللي، بالإضافة إلى الاكتناز العائلي⁽²⁾. غير أنه بعد دخول التجار العرب والبربر أصبح معدن الذهب يكتسي طابعا جديدا حيث أصبح من ماديات الحياة، لا علاقة له بالأرواح المقدسة و لا الآلهة المعبودة، ما دام الإسلام الذي انتشر في المنطقة يفرض عبادة الإله الواحد الذي لا يشرك به أحد.

* المقعد الذهبي : رمز من رموز معتقدات شعب "Akan"، غانة الحالية، و الذي يرمز إلى سلطة الملك الذي يحافظ على ملكه ما دام يحافظ على هذا المقعد الذهبي. و مدى احترام الرعية له، يعود إلى مدى تقديسه و إكرامه لهذا المتعد، حيث شكل القوة الاقتصادية والسلطة الروحية و الإخلاص التي يمتلكها الملك. (أنظر الصورة في الملحق).

1. أنظر MEYER (L.), op.cit, p.8.

2. أنظر ASHBY (M.J.), « Black Gold Smiths Jewelry and women in Senegal » The requirement for the degree of doctor of philosophy in African art », volume 1, studies of Stanford university, March, 1980, p.3.

هذا ما يفسر ابتعاد العديد من هذه المجتمعات عن تقديس هذا المعدن في كل من موريتانيا وشمال غانا والتشاد، بالإضافة إلى إقبال هذه المجتمعات على استعمال معدن الفضة و النحاس أكثر⁽¹⁾. و أهم ما أستدل به هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم أن : " الذهب محرم على الذكور من أمتي". وفي حديث آخر و هذا معناه : أن من يشرب في آنية من ذهب كمن يجرجر النار في بطنه. و هو ما نص عليه الإسلام في الابتعاد عن اكتناز الذهب والفضة التي هي من أكبر سمات المجتمع الإفريقي في التعامل بمعدن الذهب. و هذا ما يؤكد أيضا مدى تقدير الإسلام لهذا المعدن الذي يجب أن ينفق من أجل قضاء حاجيات الإنسان الدنيوية وان اختل التوازن في هذا المجال فإنه يعود بطبيعة الحال بالخسارة على الأفراد و الجماعة معا.

أما التوجه الثالث الذي هو محور هذه الدراسة، فيتمثل في الجانب الاقتصادي والدور الذي لعبه معدن الذهب في الحياة الاقتصادية لإفريقيا قبل دخول الإسلام وبعده، ليتطور أكثر بعد الدخول الأوروبي. وعلاقة هذا المعدن بالحياة المالية للعالم الغربي خاصة بعد أن اكتشفت التقنيات الكبرى و إدخالها في استغلال هذا المعدن و معالجته، الشيء الذي أثار بشكل كبير في الحركة التجارية التي عاشها الغرب والشرق المسيحيين والعالم الإسلامي معا⁽²⁾. و بهذا يصبح هذا الموضوع من أهم الدراسات التي يجب أن تلقى عناية، لمعرفة مدى الدور الذي لعبه معدن الذهب في تنظيم الحياة الاقتصادية في إفريقيا الغربية و تأثيراته الاجتماعية و التجارية.

1. أنظر MEYER (L.), « Les métaux précieux... », p.10.

2. عن هذا الموضوع، انظر لومبار موريس " الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي" و مقالات كل من لومبار موريس و برودل في "بحوث في التاريخ الاقتصادي" و بوفيل "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير".

ب. تسويق الذهب داخل بلاد السودان

لقد استطاع معدن الذهب و لعدة قرون أن يجعل من إمبراطوريات السودان رمزا للحضارة الأفريقية في جزئها الغربي، خاصة بعد توسع الفتوحات الإسلامية واجتيازها للساحل. إلا أن الكتمان الذي كان يحيط بهذا المعدن الثمين، و العادات الإفريقية التي جعلت منه وجودا مقدسا، حال دون معرفة العديد من الأسرار التي من شأنها أن توضح النمط الذي اتخذ في حياة المجتمع الإفريقي سواء من الجانب السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

و السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذه النقطة، هو كيف كان الأفارقة يتعاملون مع هذا المعدن في المجال الاقتصادي، أو بالأحرى، ما هي المكانة التي احتلها معدن الذهب في تجارة السودان الغربي، و ما هي المراحل التي كان يمر بها قبل أن يسوق شمالا باتجاه مدن المغرب الإسلامي و بحر الروم.

أكدت العديد من الدراسات الحديثة و القديمة، إن لم أقل معظمها عن صعوبة تحديد النمط الذي كان يميز هذه التجارة، و السيادة التي كانت تشرف عليها، و لم أجد سوى تلك الإشارات البسيطة في الروايات التي نقلت على ألسنة الرحالة العرب و غيرهم والتي أزال الغبار عن العديد من حقائق تاريخ هذه المنطقة. كما اكتشفت أن معظم الدراسات التي أنجزت في هذا المجال انطلاقا من السبعينات، اعتمدت غالبيتها على روايات كل من المسعودي، البكري و الإدريسي و ابن بطوطة ...

لقد عرفنا كم كان صعبا على التجار العرب و البربر بعد فتحهم للسودان انطلاقا من القرن الثامن للميلاد، معرفة مناطق هذه المناجم و مواطنه الأصلية إضافة إلى طرق استغلاله، ليكون الأمر كذلك بالنسبة لهذه التجارة التي سيطرت عليها تقاليد هذا المجتمع و طقوسه الدينية.

لقد حاولت على ضوء ما تحصلت عليه من معلومات حول هذا الموضوع أن أضع تصورا بإمكانه أن يشمل مراحل هذه التجارة و الطرق التي كانت تتم بها، وهذا انطلاقا مما كتبه البكري⁽¹⁾ حول كيفية استغلال الملك لمعدن الذهب، عند احتفاظه بالكتل الذهبية و ترك التبر للناس، إلى الدراسات الغربية و الإفريقية التي تعمقت في دراسة التجمعات السكانية و نشاطاتها الاقتصادية، مصنفة البعض منها على أنها قبائل تجارية احتكرت هذا النمط من التجارة، واطعة بذلك الشكل الذي ميز النشاط التجاري بين الشمال و الجنوب.

و قسمت هذا التصور إلى خمسة مراحل :

المرحلة الأولى، و هي التي تتضمن تسويق الذهب أو نقله من المناجم إلى غاية المدن التي لعبت دور المستودعات :

لقد سبق و أن أشرت إلى جزء من هذه الدراسة حينما تطرقت إلى عمليات استخراج الذهب من منجمه، إلا أن ما يهمني أكثر هو الإشراف على هذه العمليات من خلال سؤال أبحث له عن إجابة، و الذي يدور حول تلك العناصر التي استحوذت على معدن الذهب مباشرة بعد استخراجه من المنجم.

1. البكري، المصدر السابق، ص. 77.

انطلاقاً مما ذكر في العديد من الروايات، توصلت إلى الاستنتاج أن الذهب بعد خروجه من المنجم يتخذ ثلاث اتجاهات : الأول نحو مالكيه، مشكلاً مكتنزات الذهب الذي تمتلكه العائلة ⁽¹⁾. أما الاتجاه الثاني، ففيه يستحوذ المشرفون على هذه التجارة، على جزء من هذا المعدن، و هؤلاء هم "Les Julas" ⁽²⁾، وهي عبارة عن مؤسسات تجارية صغيرة تستخدم العبيد بإدارة السيد. أما التوجه الثالث، فهو الذي يذهب على شكل ضريبة أو غرامة مقابل تقديم خدمات، كحراسة المنقبين من المعتدين أو الهمجيين، و ربما هؤلاء ينتمون إلى الملك.

في هذه المرحلة يمكنني الإشارة أيضاً إلى تلك التجارة الصامتة، التي طالما حيرت الكتاب و الدارسين للموضوع، بالرغم من أنها وردت في العديد من النصوص التاريخية انطلاقاً من هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد إلى غاية المسعودي و المؤلفات الأوربية في العصر الحديث، غير أنها صنفّت من بين الروايات الأسطورية التي ميزت معدن الذهب الإفريقي، بل و راح البعض من المؤلفين الغربيين إلى تكذيبها و عدم التسليم بها، لأنه لا يوجد أي دليل يثبت هذه الرواية من طرف العرب و الأوربيين. لكن ما توصلت إليه هو أن هذه الرواية يمكن ربطها برواية "رجال الذهب" الذين يسكنون الكهوف المحفورة في الأرض، وهم الوثنيون آكلي لحوم البشر ⁽³⁾.

1. MEYER (L.), op.cit, p.10.

2. BATHILY (A.), « Les portes de l'Or », Paris, L'harmattan, 1989, p.175.

3. HEYD (W.), « L'histoire du commerce – du levant au moyen âge – », 3^e éd. Leipzig, 1986. p 55.

لا توجد أية وثيقة تؤكد أن الونقارة ، أسلاف الديولا قد مارسوا تجارة واضحة مع أي فئة من سكان إفريقيا، خاصة تلك الفئة التي تقطن المناطق البعيدة عن المراكز التجارية المعروفة عند العرب أو الأفارقة، هذا ربما ما يفسر و بشكل كبير تلك الروايات المتعلقة بالتجارة الصامتة التي ذكرها العديد من العرب و غيرهم في هذا الشأن. لذا لا يمكن لي تكذيب هذه الرواية كما كذبتها الدراسات الغربية التي أصبحت تخضع كل حادثة تاريخية إلى أدق التحاليل العلمية، ملغية بذلك أهم الروايات التي لعبت دورا أساسيا في نقل و تحليل واقع أفريقيا البعيد و الغامض.

لقد أشار كل من ابن بطوطة و العمري، إلى هذه الفئة من الأفارقة الذين أستطيع من خلالهم أن أقول انه من المعقول جدا أن تكون هذه التجارة موجودة بين الونقارة و الهمجيين هؤلاء. و بالنسبة لرواية ابن بطوطة أين يقول : " أن منسي سليمان * الذي قدمت عليه جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم، و معهم أميرهم [...] في بلادهم يكون معدن الذهب، فأكرمهم السلطان و أعطاهم في الضيافة خادما، فذبحوها و أكلوها، ولطحوا وجوههم و أيديهم و أتوا السلطان شاكرين " (1).

أما هايد فيشير إلى هذه الرواية نقلا عن العمري قائلا : " أن سكان بلاد الذهب متوحشون و وثنيون. و هذا يعني أنهم ليسوا كالذين عرفهم العرب و البربر، أي لا يدينون بالإسلام و هم من آكلي لحوم البشر " (2).

* منسي سليمان : هو أعظم ملوك مالي، حكم ما بين 742 هـ / 1341 م و 761 هـ / 1360 م.

1. ابن بطوطة، "الرحلة - تحفة النظر في غرائب الأمصار -"، بيروت لبنان، دار الكتاب العلمية، ص.700.

2. HEYD (W.), op.cit, p 53.

و بما أن هذه الرواية مازالت موجودة و أن الدراسات الغربية الحديثة تلقى الطريقة التي كان يباع بها الذهب في هذه الفترة يمكن لي أن استنتج أن التجارة الصامتة * كانت ربما الوسيلة الوحيدة التي جلب بها تجار الونقارة الذهب من هذه المناطق البعيدة، ليس من المناطق التي ذكرها العرب فقط، بل حتى التي لم تتم الإشارة إليها في مصادرهم. و تجار الونقارة ** هؤلاء هم الفئة الوحيدة التي كانت تتصل بالزنوج المهمجين، لأنهم كانوا يثقون فيهم أكثر من أي فئة أخرى. ومن بين الأسباب التي تدفعني للاعتقاد بذلك، أهمية معدن الملح عند هؤلاء، حيث لم تتوقف عند حاجة الجسم لهذه المادة للحفاظ على توازنه، بل أضحى هو الآخر يغذي بعض المعتقدات التي أصبحت رمزا للقبائل الإفريقية و التي كثيرا ما تدعو للغرابة و الدهشة.

و يقول بوفيل، نقلا عن كادا موسو في وصفه لبعض القبائل الإفريقية : " أن لوهم شديد السواد، لهم أجسام حسنة التكوين و هم أكبر منا بشبر واحد، و شفتهم السفلى يزيد عرضها على شبر متدلية إلى الأسفل نحو الصدر، و من شدة الحرارة تتعرض إلى التعفن و لا يجدون سبيلا لصيانة أنفسهم إلا برش الملح عليها بصورة مستمرة. و ترددت هذه الرواية على لسان أوروبي آخر يدعى ريشارد جوبسون و الذي قال أنهم يولدون بشفاه طويلة (1).

يمكن لي أن استنتج من خلال الروايتين السابقتين أن تدلي الشفاه السفلية، يعود إلى أن بعض القبائل عند استعمالها للحلي تلجأ إلى إحداث عدة تشوهات في الجسم كالتى تستدعي نقر الشفتين أو إحداثهما لوضع أسنان الفهد، أو "حلقات من المعدن تتعدى في بعض الأحيان عرض قطعة خمسة فرنك فرنسي" (2)، و مع استمرار الوقت تطول هذه الشفة لتصل إلى غاية الصدر. هذا ما يفسر حسب رأيي العلاقات الوثيقة التي كانت بين رجال الذهب المحتاجين للملح و تجار الونقارة أو الديولا المحتكرين لتجارة الذهب، انطلاقا من مضمون الروايتين السابقتين، إضافة إلى كون الملح مادة أساسية لنمو جسم الإنسان.

* التجارة الصامتة : أشار إليها هيرودوت في القرن 5 ق.م، و المسعودي عام 950 م في كتابه مروج الذهب.

** تجار الونقارة : هم الذين ينقلون الذهب.

1. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ترجمة الهادي أبو لقمة و محمد عزيز، ط.2، بنغازي، ليبيا، منشورات جامعة قار يونس، 1988، ص.217.
2. أنظر DELAFOSSE (M.), « Les Civilisations Negro-Africaines », Paris, Librairie Stock, 1925, p.116.

لكن أقول أنه لو سلمت بأمر رفض هذه الروايات لعدم التأكد من صحتها، يمكن لي أن احتفظ بالاستنتاج الذي يقول : أن تسويق الذهب في إفريقيا قديته عادات وتقاليده القبائل الإفريقية، مع احترام قدسية وألوهية هذا المعدن.

المرحلة الثانية و التي ينتقل فيها الذهب من هذه المدن إلى المراكز التجارية الكبرى :

في هذه المرحلة يتم نقل الذهب من المنجم أو مناطق البيع إلى المستودع. وتبدو هذه الكنمة غريبة، لكن الدراسات الحديثة التي اعتمدت على التنقيبات الأثرية و الدراسات الجيولوجية استطاعت أن تفصل بين المناطق التي كانت تنتج الذهب والمناطق التي كانت تسوقه. نجد خلال هذه المرحلة بروز الدور الكبير لسكان الونقارة أو الديولا * الذين احتكروا هذه التجارة، و ربما هذا الاحتكار هو الذي دفع بالأوروبيين إلى القول أن غط التجارة الصامتة التي ذكرت في العديد من المؤلفات، هي من نسج خيال الونقارة أو الديولا، من أجل احتكار هذه التجارة و إبعاد كل أجنبي عنها وحتى الأفارقة.

ففي هذه المرحلة يوجه الذهب إلى المدن التي ذكرت خلال العصور الوسطى على أنها مناجم للذهب كونقارة التي لم تكن مقاطعة لمناجم الذهب، لكن مركزا تجاريا ينقل إليها الذهب من " Lobi " و " Gourounsi " ساحل العاج و ساحل الذهب ⁽¹⁾، و على هذا الأساس قيل أن الإمبراطوريات الساحلية التي ظهرت في العصور الوسطى لم تكن مؤسسات إنتاجية بقدر ما كانت مؤسسات تجارية.

* الديولا : هم الونقارة سابقا.

1. GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel... », p.87.

أما بالنسبة لذهب منطقة " Lobi " و " Pourra " التي لم توجد أية إشارة إليها في المصادر العربية أو غيرها، فهي تعتبر دليلا على الاحتكار التام الذي مارسه الديولا، مادامت المناطق المعروفة هي : " Bambuk " و " Galam " و " Bure " و " Sankara " بحكم أن هذه المناطق قريبة من محيط مملكة غانة، أما الأخرى فهي بعيدة عن مركز نفوذها ⁽¹⁾.

وما اكتشفته الدراسات الأثرية حول منطقة " Lobi " هو وجود أسوار تتراوح أطوالها ما بين 40 و 50 مترا، تحيط بمواضع الذهب، و أغلب الاعتقاد أنها كانت من بين الأسباب التي جعلت المنطقة غير معروفة عند العرب و حتى الأفارقة ⁽²⁾.

و يؤكد هذا لومبارد موريس : " أن المسلمين لم يعرفوا طرق استخراج الذهب إلا من خلال سماع روايات الوسطاء المتمركزين بين حقول الذهب وأسواق التبادل [...] ...] و أن المناطق الأخرى البعيدة عن أسواق نهر النيجر ومنخفض نهر السنغال، لم يقدم العرب عنها أية معلومة، حيث كان الذهب يحمله الرجال على ظهورهم إلى غاية مناطق التبادل، خاصة منها " Sierra Leone " و " Gold Coast " ⁽³⁾.

أما المصدر الحقيقي الذي يشير إلى الفئة التي احتكرت تجارة الذهب، يتل في رواية البكري الذي يقول : " و من يرسني يجلب السودان العجم المعروفون (بنو نغمارة) و هم تجار، التبر إلى البلاد " ⁽⁴⁾. و من خلال ما سبق يمكن القول أن التجار الونقارة كانوا السباقين إلى احتكار هذا النوع من التجارة.

1. أنظر : KIÉTHÉGA (J.B.), op.cit, p.41.

2. أنظر : MAUNY (R.), « Tableau géographique.. », p.97.

3. أنظر : LOMBARD (M.), « Les métaux dans l'ancien monde », pp.209-210.

4. البكري، المصدر السابق، ص. 177-178.

هذه الطبقة من التجار التي استطاعت أن تبرز دورها في تاريخ تجارة إفريقيا عامة و الذهب خاصة، كانت من بين التشكيلات التي وجدت منذ التأسيس الأول للإمبراطوريات الكبرى، هذا ما سمح لها لكي تحتل مكانة ذات أهمية في المجتمع الإفريقي، ليتطور مركزها فيما بعد حيث تقوم بالإشراف على التجارة ذات المسافات الكبرى. و هؤلاء التجار لقبوا بالتجار المحترفين، أو الونقارة "Wangaras" أو الماندينق "Mandings" و هم أسلاف الديولا "Dioulas" * (1).

بهذا الشكل يمكن القول أن الذهب في هذه المرحلة يخرج من "Falème" و "Bambuk" وونقارة التي كانت تابعة لغانة (2). و ذكر هذه المناطق ما هو إلا تأكيد أولا على عدم معرفة الأماكن الحقيقية لاستخراج الذهب بالتدقيق (3)، و أيضا تأكيد على أن هذه التجارة فعلا تمر بمرحلة المنجم ثم السوق الأولى و هي المناطق السالفة الذكر.

وأشير فيما بعد إلى محطات هذه المرحلة و هي وصول هذا الذهب إلى المستودعات الكبرى في الساحل و التي تتمثل في كل من غانة "Ghana" و تيشيت "Tichit" وولاية "Walata" جاو -كاوكاو- "Gao" ثم تومبوكتو "Tambouktou" و أودغوست "Aoudaghust" (4) التي كانت مركزا لاستقبال الذهب و انطلاق القوافل باتجاه جنوب المغرب الأقصى (5).

* الديولا : و هم العنصر الأساسي في المجتمع الإفريقي و عليه كان يعتمد في توزيع مواد الاستهلاك لأغلب السكان.

1. MAUNY (R.), « Tableau géographique.. », p 387.
2. DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique occidentale Française », 2^e éd. Paris, Librairie Delagrave, 1937, p.76.
3. ASHBY (M.J.), op.cit, p 2.
4. LEWICKI (T.), «Le role du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud», in « Histoire Générale de l'Afrique » T. III, l'Afrique du VII^e au XI^e siècle, sous la direction de M. El-Fasi et I.HRBEK, Paris, Edicef/Unesco, 1997, pp.225.246.
5. GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel... », p.87.

المرحلة الثالثة و التي ينتقل فيها الذهب من المراكز التجارية إلى المحطات الصحراوية :

و هي مرحلة فاصلة، و تتمثل في المحطات الصحراوية الواقعة في شمال الصحراء و هي المشكلة للمدن المغربية التي نشأت على حدود بلاد السودان و التي كونت محطات تجارية حقيقية و التي تتمثل في كل من سجلماسة، و نول لمطة، و تامدلت، و ورقلة، و غدامس و زويلة، و التي تتشابه كثيرا بالمدن الساحلية⁽¹⁾. و تعتبر هذه المدن أول انطلاقة لمعدن الذهب داخل أراضي المغرب، لتتم بذلك المرحلة الأولى لرحلة ذهب السودان نحو الشمال في انتظار المرحلة الثانية الكبرى، و التي يجتاز فيها المدن المغربية الشمالية الكبرى موجهها أهدافه شرقا نحو القيروان و القاهرة ثم بغداد أو مجتازا البحر باتجاه الأندلس و جنوة. و عند اجتياز معدن الذهب لهذه المدن، كان يتعرض جزء منه إلى عملية التحويل كما سبق ذكره، أي ليتحول إلى عملة أو حلية. أما الجزء الآخر يواصل رحلته على شكل تبر إلى غاية الإلتحاق بمراكز التحويل بكل من فاس، مراكش، تاهرتن تلمسان...

و قبل إنهاء هذه النقطة لاحظت أنه من الضروري العودة إلى القوانين التي كانت تسير تجارة الذهب داخل السودان الغربي، و أعني بهذا العودة إلى النقطة الحساسة التي تطرقت إليها تقريبا كل الدراسات و المتمثلة في تدخل الملك و الإشراف عليها، ليكون السؤال كيف كان يشرف الملك على هذه التجارة، و هل كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر؟

لقد أفاضت المصادر الغربية في هذه المسألة، معتمدة في ذلك على نص البكري والتي بالغت في تأويله دون الأخذ بعين الاعتبار واقع معدن الذهب داخل المجتمع الإفريقي.

1. أنظر MAUNY (R.), « Tableau géographique... », p.387.

و يقول البكري : "و إذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفافها الملك و إنما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق و لو لا ذلك لكثير الذهب بأيدي الناس حتى يهون"⁽¹⁾. هذا ما تفسره العديد من الدراسات، و التي ترجع ثروة غانة إلى الاتجار بهذا المعدن و الذي كان على جانب كبير من الوفرة، و مراقبة الملك له تؤدي إلى الحفاظ على أسعاره، و هذا ما دفعه إلى أن يلعب دورا في احتكار الذهب أمام التجار العرب و البربر⁽²⁾. إذا سلمت بهذا الأمر أي أن ملك غانة، فعلا هو المحتكر لتجارة الذهب في السودان الغربي، ثم بعده يأتي كافة الملوك، فيجب عليا تكذيب كل الروايات التي وردت، بشأن تقديس الأفارقة لمعدن الذهب و التي تقول "أن الذي له الحق في امتلاك الذهب هو مستخرجه"⁽³⁾ و الكتل التي كان يعثر عليها تذهب لصاحبها و ليس للملك والواجب الوحيد الذي يلزم القيام به هو احترام القوانين و الطقوس الدينية أي أن يحتفل بها أثناء العثور عليها⁽⁴⁾. هذا ما يفسر إحترام السكان لعاداتهم الاجتماعية والدينية قبل عاداتهم السياسية.

و استبعاد الافتراض الأول الذي لجأ إليه العديد من المحللين، يعود إلى استحالة مراقبة الملك لكل هذه التجارة، التي كانت مناطقها بعيدة و مخاطرها أكثر. لأنه لا شيء يؤكد على أن البكري شاهد الملك أو عيونه و هي تراقب هذه التجارة داخل الأسواق أو خارجها.

حتى و لو افترض أن حدث هذا بعد توسع غانة على حساب أراضي السنغال والتي تم للملك فيها السيطرة على تراب الإمبراطورية، يبقى هناك فرق بين الجانب النظري والتطبيقي⁽¹⁾ من جهة، و من جهة أخرى، يمكن إلغاء هذا الوضع بعد دخول المرابطين إلى المنطقة و استغلالهم لكمية كبيرة من هذا المعدن.

1. البكري، المصدر السابق ، ص. 177.

2. بوفيل، " تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص. 150.

3. أنظر : GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », p.91.

4. أنظر : MAYER (L.), « Les métaux précieux... », p.22.

لكن هناك ما يلفت الانتباه في رواية البكري السالفة الذكر و التي تتمثل في طبيعة تعامل الملك و معدن الذهب. لقد لاحظت أن كل الدراسات التي تطرقت إلى هذه الرواية خاصة الغربية منها انساق وراء التصور الذي يجعل الملك دائما هو المحتكر و المراقب لهذه التجارة، تفاديا لانخفاض اسعار الذهب، هذا ما يمكن أن يحدث دون أدنى شك. لكن هناك شيء خفي في هذه الرواية، و يتمثل في أن الملك لا يتدخل دائما لمراقبة تجارة الذهب، بل عند انخفاض انتاج الذهب فقط، و حتى في هذه الحالة يبقى الرمل الذهبي أي التبر في متناول الجميع. و بالتالي يمكن لي أن أستنتج أن تدخل الملك يحدث من أجل الحصول على تبرات الذهب الكبيرة التي كان يتفاخر بها بين ملوك السودان و التي كانت تشكل ثروته التي ميزت امبراطورية غانة طيلة أيام مجدها. و في هذا السياق أكون قد أجبت على السؤال الذي طرحته كل الدراسات التي تطرقت لهذا الموضوع و هو ماهي مصادر ثروة ملك غانة التي من خلالها كانت تسدد نفقات جيشه القوي؟ و لتدعيم هذا الجواب يجب العودة مرة أخرى لمعرفة المصادر الأخرى التي شكلت ثروة ملك غانة.

و يقول البكري في إحدى هذه الروايات : " و للملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد و ديناران في إخراجهم، و له على حمل النحاس خمسة مثاقيل و على حمل المتاع عشرة مثاقيل" (2). هنا يظهر الدور الوسيط الذي لعبته غانة في إعادة توزيع الملح نحو الجنوب (3)، والذي ربما لعبت فيه دورا كبيرا في رفع أسعاره لصالحها، بسبب حاجة سكان الجنوب لهذه المادة. نظرا لأهمية و حاجة التبائل الإفريقية لهذه المادة. وهذه هي الطريقة الثانية التي كان يتبعها الملك للحصول على معدن الذهب. أما الطريقة الثالثة، فتتمثل فيما أشار إليه "KIÉTHÉGA" نقلا عن العمري : " أن الملك يكتفي بالغرامة التي تقدم إليه سنويا" (4). والمقصود هنا الغرامة التي يقدمها رجال الذهب أو رجال الكهوف والونقارة، هذه الرواية التي أشارت إلى ان عدم معرفة العرب لمصادر الذهب يعود إلى رغبة الملك الذي لاحظ أنه في حالة اعتناق هؤلاء للإسلام يؤدي ذلك إلى خفض الإنتاج مقارنة بالمناطق المجاورة، و هذا بتأديتهم لواجب الصلاة (5).

1. أنظر : BATHILY (A.), « Les portes de l'Or », p.177.

2. البكري، المصدر السابق، ص.176.

3. أنظر : DEVISSE (J.), « Les Routes du commerce ... », p.58.

4. أنظر : KIÉTHÉGA (J.B.), « L'Or de la Volta Noire », p.43.

5. Ibidem.

هناك من افترض أن الملك كان يأخذ حصته من الذهب قبل توزيعها على التجار العرب و البربر، و هذا ما كان مستبعدا جدا خاصة أنه يحدث هذا في المدن الساحلية، بدليل عدم وجود أي أثر لذلك.

و الطريقة الثالثة، هي التي تقودنا إلى رواية ابن بطوطة السالفة الذكر، والتي تقدم لنا صورة تعامل ملك مالي و رجال الذهب، و لما لا يكون الشأن كذلك بالنسبة لملك غانة أيضا ؟ إلا أنه في خلاصة قولي حول هذه النقطة هو أن الواقع لم يؤكد وجود أية سلطة ناجحة في التاريخ، و التي نظمت عملية التقاط الذهب لصالحها، و أن التنظيم الاقتصادي داخل السودان الغربي في هذه الفترة لم يؤكد التدخل المباشر للسلطة في التنقيب عن الذهب و نقله من مكان إلى آخر بأي شكل من الأشكال⁽¹⁾. و هذا ما يفسر أيضا عند البعض عدم وجود عملة نقدية تسير تجارة هذه الإمبراطورية بالرغم من توفر المعدن، إلا بعد تطور التجارة الصحراوية⁽²⁾.

أما آخر مرحلة في هذه النقطة، وهي التي تتمثل في الشكل الذي كان يسوق به معدن الذهب نحو الشمال. و لم تشر المصادر العربية و لا حتى الدراسات الحديثة إلى أي شيء بإمكانه تفسير هذا الوضع، أي احتمال وجود ورشة بإمكانها أن تكون موضع تحويل الذهب الإفريقي من حالته الأصلية الطبيعية، أي "الرمل الذهبي" إلى الأشكال العديدة التي عرفناها في السوق، إلا في تلك المدن الساحلية التي اعتبرت مستودعات و أسواق كبرى لتجارة التبر.

1. BATHILY (A.), op.cit, p.178.

2. Ibid, p.179.

من المعقول جدا أن يبتعد الأفارقة المتوحشين عن حرفة الصياغة و سك النقود في أودغاهم و أوديتهم، فقد ذكرت بعض المراجع أن أودغشت و غانة و تادمكة مراكز كان يحول فيها التبر إلى سبائك و خيوط مفتولة و قطع نقدية⁽¹⁾، و هذا ما أشار إليه البكري في كتابه أن تادمكة كانت تضرب فيها الدنانير غير المنقوشة⁽²⁾. كما أشار أيضا إلى أن أودغشت كانت مركزا كبيرا لتجارة الذهب، تصدره إلى الشمال بعد تصفيته و تحويله إلى خيوط مفتولة⁽³⁾.

و إذا كان الذهب ينقل من المنجم إلى الأسواق الكبرى على شكل تربة ليتحول فيما بعد من هذه المحطات السودانية قبل دخول الصحراء إلى قطع نقدية و خيوط مفتولة و سبائك، للدليل أولا على أن أهمية معدن الذهب مقارنة بالمعادن الأخرى، جعلته يدخل التبادل و يقبل في السوق في أي نوع من الحالات التي عرض فيها، و هو عكس المعادن الأخرى التي تتطلب التكرير و التصفية و الاستخدام⁽⁴⁾.

ثانيا، فإن هذا التحول الذي حدث و هو أن ينقل الذهب شمالا و هو مكرر يعود إلى ظروف اجتيازه للصحراء، لأنه من السهل قطع الصحراء بالذهب المكرر بدلا من التبر "الرمل الذهبي"، السهل للسرقة و الصعب للاسترجاع أثناء تبعثره في الأرض أو أثناء إخفائه في الرمل⁽⁵⁾. لكن الأهم هو أن معدن الذهب بمختلف أحجامه و أشكاله، اجتاز فعلا هذه المسافات الكبرى و انتقل من السودان الغربي إلى المغرب الإسلامي وإلى مناطق أخرى من العالم.

1. MAUNY (R.), « Tableau géographique... », p.365.

2. البكري، المصدر السابق، ص.181.

3. نفسه، ص.159.

4. BATHILY (A.), op.cit, p.175.

5. MAUNY (R.), op.cit, 376.

2. المبادلات التجارية بين المغرب و السودان

أ. - الذهب يتصدر واردات المغرب

لقد فرضت عليّ كتابة التاريخ الاقتصادي للمغرب منهجية التركيز على أهم الصادرات و الواردات التي كانت تتم بين إقليم السودان و المغرب و التي يأتي في مقدمتها الذهب. و ما دامت النقاط المركزة على بالذهب و تجارتها قد أدرجت ضمن كل فصول هذه الدراسة تقريبا، فإنه ينبغي الوقوف عند نقطة ذات أهمية كبرى في هذا التحليل، تتعلق بكميات الذهب التي استوردها المغرب الإسلامي من السودان الغربي.

و نظرا لصعوبة الوصول إلى مناجم الذهب في هذه الفترة، و لعدم وجود وثائق تشير إلى هذه النقطة، حاولت الدراسات الغربية أن تحدد رقما لهذه الكمية التي غادرت السودان الغربي خلال العصور الوسطى. و لتحديد ذلك قامت هذه الدراسات بوضع مقارنة بين بعض الأرقام التي ذكرها التجار البرتغاليون أو الأوربيون بصفة عامة مع بعض الأرقام التي ذكرتها المؤسسات التجارية المختصة في بداية القرن 19م، و شملت هذه الدراسات إنتاج كل إفريقيا الغربية كمناجم " Galam " و " Bambouk "، لوبي، " Gold Coast " و " Poura "، ثم مقارنة الكل بالكميات التي يمكن أن تكون قد أخرجت من السودان الغربي خلال العصور الوسطى نحو العالم الإسلامي.

و في إطار الإشارة إلى المبادلات التجارية بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي لاحظت أنه من الضروري التطرق إلى الصادرات و الواردات التي تميز هذا التبادل، و التي يأتي في مقدمتها معدن الذهب. و ما دامت هذه لنقطة شكلت محور هذه الدراسة ارتأيت إلى التطرق لهذا المعدن كبضاعة من زاوية أخرى، كمحاولة لتقدير كمية الذهب التي كان يستوردها المغرب من السودان.

كما حاولت هذه الدراسات تقدير هذا الذهب بطريقة ثانية، أي بدراسة كمية النقود التي ضربت في مراكز سك العملة المغربية من خلال معاينة عدد الإصدارات النقدية لكل بيت مال. و يعتبر هذا العمل آخر ما أنجز في هذا الميدان، ليكن الأستاذ "Jean Devisse" أول من ركز على موضوع دراسة النقود لتقدير كمية الذهب المنقولة من إفريقيا إلى المغرب.

و لاحظت أنه رغم القيام بهذا العمل إلا أن الأرقام مازالت لم تف هذه التجارة حقها، والتي تفوق كل التصورات، هذه الأرقام قللت من كمية الذهب التي غادرت السودان الغربي خلال العصور الوسطى بالرغم من أن إحصائيات منتوج الذهب في وقتنا الحالي تؤكد ذلك. و لا أدري ما هي الأسباب التي دفعت إلى عدم الإيمان بأن كميات كبيرة من ذهب السودان كانت فعلا تنقل نحو المغرب و العالم الإسلامي.

لقد حاول كل من "M. LOMBARD" و "R. MAUNY" و "D. A. CISSÉ" ذكر أرقاما عديدة لإنتاج الذهب في فترات مختلفة بعيدة عن الفترة المخصصة لدراسة موضوع هذه الرسالة، و هدفهم في ذلك وضع المقارنة أو وضع تصور بشأن كميات الذهب التي كان السودان الغربي يستخرجها من مناجمه و يستقبلها المغرب الإسلامي فيما بعد.

و أهم ما ذكر في هذا الموضوع أنه في سنة 1935م و وضعت إحصائيات تشير إلى أنه من بين 110.000 ساكن وجد 35.000 يعيشون من الزراعة و 40.000 يعيشون من عملية استخراج الذهب⁽¹⁾.

1. أنظر : LOMBARD (M.), « Les métaux précieux... », p.21.

و لوحظ أيضا أن ما يقارب 7000 أجنبي يحضرون إلى المنطقة أثناء الإنطلاق في عملية استخراج الذهب⁽¹⁾. هذه الملاحظة تقودني إلى الاستنتاج أن التوافد على استخراج الذهب كان كبيرا، و بالتالي سيكون انتاجه لا محالة أكبر. و من بين أهم الأرقام التي أدرجت ضمن هذه الدراسة، تلك التي تشير إلى وزن كمية الذهب التي تستخرج سنويا من مناجم إفريقيا الغربية والتي قدرت بـ 9 طن سنويا. هذه الكمية تنقسم فيما بعد إلى قسمين : قسم يصدر إلى المغرب، والقسم الذي يتراوح وزنه بين 5 إلى 6 طن يبقى في إفريقيا⁽²⁾. و هذا التحليل يعطي لنا فكرة على أن كمية الذهب التي كانت تغادر إفريقيا نحو شمالها تتراوح بين 3 إلى 4 طن سنويا. بينما خلال القرون 16، 17، 18 و 19، قدر الإنتاج الإجمالي لإفريقيا من الذهب بـ 900 طن⁽³⁾.

هذه الأرقام توصلت إليها بعد مقارنة إحصائيات عدة سنوات، منها إحصائيات سنة 1938 أين أنتجت المناجم الجديدة بالقرب من "بوري" حوالي 4000 كلغ من الذهب، و منطقة سيراليون ما يقارب واحد طن من الذهب، أما منطقة ساحل الذهب أي "Gold Coast" أنتجت خلال عام 1500م، 1000 كلغ، بينما في سنة 1700م 1750 كلغ⁽⁴⁾ ليبلغ الإنتاج في الفترة الممتدة من ما بين 1500 و 1900م حوالي 3500 طن.

1. أنظر : LOMBARD (M.), op cit, p.21.

2. أنظر : MAUNY (R.), « Tableau géographique ... », p.277.

3. Ibid, p. 300.

4. Ibid, p. 377.

و أشارت إحصائيات نفس الدراسات إلى وجود تقارب بين إنتاج كل مناجم إفريقيا الغربية في الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر والتاسع عشر ميلادي، حيث أنتجت منطقة بوري " Bouré " 4 طن سنويا، جالام 0.5 طن، بورا " Poura " و لوي 0.2 طن، ساحل الذهب 4 طن⁽¹⁾.

هذا ما دفع هذه الدراسات إلى أن تحدد إنتاج الذهب خلال 6 قرون بما يقارب يقارب 9 طن من الذهب الخالص⁽²⁾. هذه الأرقام توحي إلى أن الإنتاج خلال الفترة ما بين القرن التاسع والحادي عشر، لم يختلف تماما عن الكمية المذكورة في القرون المتقدمة بسبب ما للجمل من دور في هذه المعايينة، حيث كان المرجع الوحيد الذي ساهم في تحديد؛ و لو بالتقريب، كمية الذهب التي كانت تنقل على ظهره. فحمولة الجمل بشكل عام لا تفوق 3 قناطير* أي ما يعادل 127,5 كلغ. فالقافلة التي تخرج من المغرب في تعداد يصل إلى 12 ألف جمل، بإمكانها أن تفسر هذا الوضع. والتاجر الواحد الذي يسافر بنحو سبعين إلى مائة جمل لا يتعدى عدد جماله التي ترافقه عند العودة وهي محملة بالذهب ثلاثة جمال، أي ما يعادل $3 \times 127,5$ ويساوي 328,5 كلغ. وإذا حاولت ضرب هذه الكمية في عدد الجمال و التجار المشكلين للقافلة، أجدتها تصل إلى أكثر من 3000 كلغ، ولا يتعد هذا العدد كثيرا عن تلك الإحصائيات التي قدمتها سابقا دراسات كل من MAUNY و DEVISSE، و التي تشير إلى أن كمية الذهب التي كانت تغادر إفريقيا تتراوح بين 3 إلى 4 طن سنويا.

لكن نظرا لاختلاف الظروف السياسية و الاقتصادية للمنطقتين في الفترات الممتدة بين القرنين 15 و 19 م و القرنين 9 إلى 12 م، فإنني أعتقد أن كمية الذهب تفوق بكثير الأعداد المذكورة، خاصة إذا أخذت بعين الاعتبار ازدهار غانة و رفعها لإنتاج الذهب، بالإضافة إلى نمو تجارة المغرب الإسلامي مع ظهور التنافس الشديد لدوله من أجل السيطرة على مسالك الذهب.

1. MAUNY (R.), op.cit, pp.300-301.

2. GAUDIO (A.), « Les civilisations du Sahara... », p.202.

* القنطار يساوي 42,5 كلغ.

و من أهم الروايات القريبة من الفترة المخصصة لدراسة هذا الموضوع، تلك التي تشير إلى حملة القائد زرغون عام 1594، حيث أخذ معه 30 دابة محملة بالذهب و التي أخذها من عند تجار تمبوكتو. و هذه الكمية تقدر بـ 100.000 قطعة * ذهبية و التي قدروها بـ 425 كلغ. و من خلال هذا يمكن القول أنه كان يكفي 50 جملا لنقل كل منتج لإفريقيا ⁽¹⁾ سنويا.

رغم إشارة مصادر العصور الوسطى إلى هذه الكمية، و رغم محاولة كل من علماء الأرض و علماء الجغرافيا، مؤرخي، علماء الاقتصاد تحديد هذه الكمية، يبقى الأمر مشكوكا فيه لعدم تقديمها لتقييم معقول مبني على حجج محسوسة، 2 أو 3 طن كأقصى حد. هذا الأمر دفع " J. DEVISSE " إلى تخفيض الكمية إلى 1 طن سنويا كما دفعه إلى البحث في الموضوع بشكل آخر، و هو النظر في الموضوع من زاوية علم الآثار. أي بدراسة عدد الإصدارات النقدية لكل بيت مال، و لمراكز ضرب العملة، مع التركيز على العملة لتقدير كمية الذهب التي ضربت باستعمال سكة الوجه و سكة الظهر ⁽²⁾.

* دينار : وزنه 4,25 غ.

1. أنظر. MAUNY (R.), « Tableau géographique... », p.377.

2. أنظر. BENHSAIN (M.R.), op.cit, p.13.

و السؤال المطروح هو: كم يتطلب الأمر من سكة لعملية إصدار النقود ؟

إذا أخذت بعين الاعتبار أن سكة الوجه هي التي تتلقى ضربات المطرقة أكثر من سكة الظهر، فيمكن دراسة مدى صلاحيات السكة أثناء ضرب النقود، بعد اتمام التجربة، لوحظ أن مدة صلاحية السكة خلال عملية ضرب الدينار، أقل أهمية من سكة ضرب نصف الدينار مثلاً، حيث يمكن اتلاف سكة الوجه بعد إصدار 40.000 مثقال، أي دينار. أما نصف الدينار، فبعد ضرب 60.000 قطعة تبدو هذه الأرقام مبالغ فيها لو لم يستشار فيها علماء الإحصاء، كما أنه يمكن إصدار 100.000 قطعة بظهر سكة واحدة⁽¹⁾، و أخذ بعين الاعتبار وزن الدينار المغربي الذي كان يقدر بـ 4,25 غ. هذه العملية تقودني إلى محاولة تقدير كمية انذهب المستهلكة في ضرب النقود خاصة لو حاولت تطبيق ذلك على وزن الدينار المرباطي الذي يزن 4,25 ذهباً.

و هذا الإنجاز تم من خلال معاينة بعض العملات التي عثر عليها و التي أخذت كمثال للدراسة، و من خلالها توصلت إلى استنتاج يخص فترة المرباطين انطلاقاً من وزن الدينار السالف الذكر، أن العملية الواحدة لإصدار الدينار الذهبية تحتاج إلى 163 كلغ من الذهب، أما عملية إصدار أنصاف الدينار تحتاج إلى 122 كلغ من الذهب، و ربع الدينار إلى 84 كلغ، لترتفع هذه النسبة أكثر في عهد الموحدين التي تتطلب العملية الواحدة لإصدار الدينار الذهبية إلى 180 كلغ من الذهب.

و الملاحظ هو أنه لا يمكن اعتبار أن كل الكمية المتواجدة و التي ساهمت في إصدار الدينار جاءت من إفريقيا في نفس السنة و هذا بسبب وجود احتمال إعادة ذوبان القطع النقدية القديمة أو بعض الحلبي.

1. أنظر : BENHSAIN (M.R.), op.cit, p.16.

و إذا حاولت الأخذ بعين الاعتبار عدد المراكز التي عرفها المغرب الإسلامي أيام الفاطميين و المرابطين، بالتحديد القيروان، المهديّة، المنصورية و سجلماسة، و جب في فترة كل دولة أكثر من 400 كلغ من الذهب لإصدار 300 ألف قطعة ذهبية بوزن الدينار مرة واحدة في نفس السنة. وكلما ارتفع عدد الإصدارات، ارتفعت كمية الذهب المستعملة في ضرب العملة.

أما إذا حاولت ثانية، الأخذ بعين الاعتبار، كل مراكز ضرب العملة المرابطية إلى غاية سقوط إمبراطوريتهم، و التي بلغ عددها 11 مركزا في المغرب، و 16 مركزا في الأندلس، يمكن لي أن أتصور و بدون مبالغة الكميات الضخمة من الذهب التي كانت تستقبلها هذه المراكز سنويا.

و إذا حاولت إدراج بعض الروايات، في العديد من النقاط التي تناولتها في هذه الدراسة، و التي أشارت إلى عدد الدنانير التي كانت في متناول الحكام المغاربة، فذلك لأنني أردت من خلالها إظهار كميات الذهب التي كانت في متناول الحكام. و كميات الذهب التي كانت تنتقل داخل المغرب و خارجه، و التي تعطينا في الأخير، كميات الذهب التي كان التجار يستوردونها من السودان الغربي.

ليس من الغريب إذن أن أتصور أن ذهب السودان كان يدخل المغرب بشكل ضخم و عادي. و إحصائيات سنة 1948م قدرت إنتاج إفريقيا الجنوبية لوحدها، 350 طن من الذهب⁽¹⁾؛ مع فارق الزمن طبعاً، لتبقى هذه النقطة محل تساؤلات و فرضيات، نظراً لما تتطلبه من معلومات و روايات بإمكانها أن تزيل الغبار عن حقيقتها.

3. أنظر 17. p. « Histoire économique de l'Ouest Africain... », CISSÉ (D.A.).

و إذا كانت هذه الأرقام قد أدهشت البعض، فإنها دفعت بالبعض الآخر إلى اتخاذ الحذر وعدم التصديق بها، وبإمكانني أن أشاطر قول " DEVISSE " الذي حدد كمية الذهب التي استقبلها المغرب ما بين 2 إلى 3 طن سنويا، كما أنه من خلال ما تطرقت إليه أن أرفع هذه النسبة إلى 5 طن سنويا، نظرا لارتفاع عدد الجمال في التناقلة الواحدة و عدد الكنوز التي ذكرت في تاريخ المغرب الإسلامي والفاطمي على الخصوص. و خلاصة القول أن هذا العدد لا يساوي شيئا أمام فترة استغلال الذهب التي قدرت في تاريخ البشرية بـ 6000 سنة، و التي لم تشهد استخراج سوى 100.000 طن تقريبا. هذا المقدار الذي لا يشكل سوى مكعب طول ضلعه 17 م⁽¹⁾.

1. عطوان (مروان)، "أزمات الذهب في العلاقات النقدية الدولية"، الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، ص.120.

السلع الأخرى

بالرغم من أهمية ذهب السودان الغربي، إلا أنه لا يمكن الاعتقاد أنه كان الوسيلة الوحيدة التي ربطت العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي و أقطار السودان الغربي، بل رافقته عدة سلع أخرى زادت من أهمية هذا التبادل و جعلته يتوسع ليدخل ضمن شبكة التبادل التجاري التي عرفها العالم خلال الفترة الممتدة بين القرنين التاسع و الحادي عشر الميلادي، كمنطقة بحر الروم. و من أهم الأسئلة التي تبادرت إلى ذهني، و أنا أبحث في الموضوع، هي : هل بإمكانني وضع البضائع التي كان السودان الغربي يستوردها من أقطار المغرب و يصدرها إليها، في نفس مستوى القيمة الاقتصادية التي تميز بها معدن الذهب؟ أم لأن حاجة و افتقار الأفارقة لبضائع بحر الروم والأندلس و المغرب هي التي دفعتهم إلى استبدالها بمعدن الذهب، دون العناية بالأهمية الاجتماعية والاقتصادية التي كان يتمتع بها الذهب داخل المجتمع الإفريقي؟ لقد تنوعت قائمة السلع التي رافقت القوافل التجارية التي توجهت إلى السودان لجلب الذهب كما تنوعت السلع التي رافقت هذا المعدن باتجاه الشمال. و ما يستحق الذكر، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر أذكر :

- العبيد :

لم تختلف وضعية عبيد إفريقيا عن الوضعية التي عاشتها هذه العناصر البشرية لدى الشعوب القديمة كالسامية والإغريقية و الفرعونية حيث اعتبرت مظهرًا من مظاهر الحياة البشرية التي نتجت عن الحروب والغارات و سلطة حكم القوي على الضعيف أو عن دافع اقتصادي وسياسي و اجتماعي. لقد كان الفقر المدقع يدفع ببعض العائلات إلى بيع أبنائها و بناتها للتبائل المجاورة و البعيدة، كما كانت بعض الحروب تنتهي إلى وقوع جماعات كبيرة في الأسر ثم تباع⁽¹⁾.

1. حركات (إبراهيم)، "النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط"، الدار البيضاء، المغرب، 1996، ص 163.

بل سقطت قبائل كاملة تحت سلطة هذا النظام الذي ميز حياة العديد من الأنظمة في السودان الغربي، كسلطة الوجداد التي بسطت نفوذها في منطقة الساحل والصحراء الغربية قبل القرن الثاني للميلاد. وأهم ما يمكن الإشارة إليه تلك الغارات التي وجهت ضد قبائل مسوفة وصنهاجة التي تعرضت لمثل هذه المعاملات أيام حكم ملوك غانة⁽¹⁾.

لتصبح بذلك تجارة الرقيق ظاهرة أفريقية داخلية قبل أن تتوسع وتأخذ طابعا خارجيا و عالميا. حيث أشارت العديد من الدراسات الاقتصادية إلى الدور الاقتصادي الذي لعبته هذه العناصر البشرية في الحياة الاقتصادية للصحراء بذكر المناطق التي استقرت فيها و استغلالها كيد عاملة في العديد من المناجم لاستخراج الملح والذهب و الأحجار الكريمة، لتمرز كعامل فعال في ازدهار الحياة الاقتصادية لمنطقة الصحراء الكبرى في العصور الوسطى⁽²⁾. ليفهم من خلال ما ورد أن ظاهرة الرق الأفريقي لم تكن وليدة فترة الفتح الإسلامي لأفريقيا. بل وجدها التجار البربر والعرب و قد استفحل أمرها داخل هذا المجتمع.

و استفاد المغرب الإسلامي من هذه التجارة بشكل جعل العبد الأفريقي، عنصرا أساسيا في العديد من الحروب التي خاضها أمراء المغرب داخل و خارج المغرب، حيث استخدمهم الزيريون و الصنهاجيون و المرابطون كرماء في حروبهم⁽³⁾. و استطاع المرابطون وحدهم شراء ما يقارب ألفي عبد عام 466هـ/1072م، و شارك ما يقارب أربعة آلاف من هؤلاء السود في معركة زلاقة الشهيرة، التي خاضها المرابطون ضد ألفونسو السادس المسيحي، لتحقق هذه التجارة بين المغرب و السودان الغربي مستوى لم تشهده الأنظمة السياسية التي عرفتها منطقة المغرب العربي في العهد الفينيقي و الروماني⁽⁴⁾.

1. أنظر : BATHILY (A.), « Les portes de l'cr », p.180.

2. "الاستبصار"، ص.216.

3. حركات (إبراهيم)، نفس المرجع، ص.137.

4. أنظر : GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », p.25.

هذا ما يدفعني للاعتقاد أن تجارة الرقيق مع السودان الغربي ازدهرت بالموازاة مع تجارة الذهب. أما بالنسبة لكثرة عدد هؤلاء في المجتمع الإفريقي فقد لوحظ أن معظم العبيد المستخدم في هذه المنطقة كان من أصل سوداني، ويشير إلى ذلك الإصطخري قائلا: "و الذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان"⁽¹⁾. ليدخل الرقيق في المجتمع المغربي والإسلامي بشكل لا يستدعي الغرابة نظرا لما حققه المغرب الإسلامي من رفاهية و تطور بعد أن أمطرت عليهم سماء السودان بالذهب الخالص، حيث تنافس التجار خاصة اليهود منهم على اقتناء أحسن العناصر البشرية التي كانت تمثل طبقة العبيد السود هذه، كمدينة اودغشت التي كان يجلب منها سودانيات طبابخات محسنات تباع الواحدة منهن بـ 100 دينار أو أزيد على حد تعبير كتاب الاستبصار⁽²⁾. كما كان يباع أي عبد بمقدار ما تتركه قدمه من فراغ في الأرض ملحا⁽³⁾.

و إذا حاولت البحث عن الأسباب التي أدت بهذه التجارة إلى الرواج و الازدهار أجدها لا تقتصر على انتشار هذه الظاهرة في أوساط إفريقيا، أو إلى الفتوحات الإسلامية التي وسعت من سبلها فقط، بل أيضا إلى انخفاض ثمنها الذي كان يضاهي قيمة السلع التي كان تستبدل بها⁽⁴⁾. لتصبح سحلماسة و ورقلة أهم المراكز المغربية التي استقبلت خصي* العبيد قبل تسويقهم إلى داخل و خارج المغرب⁽⁵⁾، أما سوق مراکش فلقد ازدهرت فيها هذه التجارة إلى درجة أن أصبحت تضاهي أسواق بغداد و البصرة و الكوفة⁽⁶⁾. و هناك أسباب أخرى ساهمت في توسع هذه التجارة خاصة في فترة المرابطين منها سيطرة هؤلاء على بعض القبائل السودانية التي كانت سابقا تحت سيطرة ملوك غانة، قرب أراضي صنهاجة من بلاد السودان⁽⁷⁾.

1. الإصطخري، " المسالك و الممالك"، ص. 37.

2. " الاستبصار"، ص. 216.

3. شنايت (العيفة)، "دولة بني مدرار - سحلماسة -" ص. 463-464.

4. الإصطخري، نفس المصدر، ص. 37.

* خصي العبيد: في هذا الموضوع أنظر مورييس لومبارد، "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي".

5. جودت عبد الكريم (يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية..."، ص. 228.

6. شنايت (العيفة)، "دولة بني مدرار - سحلماسة -"، ص. 156.

7. بن ديب (عيسى)، المرجع السابق، ص. 137.

أما السبب الثالث فيمكن إعادته إلى العنصر اليهودي الذي ساهم بشكل كبير جدا في رواج هذه التجارة التي مارستها لجماعات اليهودية الوظيفية المالية التي وجدت في بعض تعاليم الديانة اليهودية و المسيحية و الإسلام، دافعا ملائما للاهتمام بها. كانت الديانة اليهودية تحرم على اليهود استعباد اليهودي أزيد من ستة أعوام في آن واحد لا تحرم عليهم استعباد غير اليهود و الاتجار فيهم⁽¹⁾.

و لم يشهد التاريخ العبراني اشتغال اليهود بتجارة العبيد أو أنهم استعبدوا أعضاء من شعوب أخرى، ماعدا تلك الرواية التي أشارت إلى طبيعة التبادل التي حدثت بين مصر و المملكتين العبرانيتين، أي تم استبدال الأحصنة بالمقاتلين. لكن في فترة العصور الوسطى استغلت هذه العناصر اليهودية موقف كل من الإسلام و المسيحية في تحريم الاتجار بعنصرهما. و مما زاد من اهتمام اليهود بهذه التجارة منذ العصور الوسطى، إلى غاية القرن الخامس عشر كونها جزء من التجارة الدولية، وأن التجار اليهود منحوا موافقة موافقة و تحمي سلعهم⁽²⁾.

و ما دام أن العناصر اليهودية قد اشتغلت في هذه التجارة التي تعتبر موردا سخيا للرزق و مادام التاريخ قد سجل مشاركة هذه العناصر في تجارة الذهب السوداني فلا استبعد إطلاقا مشاركة هؤلاء العناصر في تجارة عبيد السودان، خاصة إن ذكرت سجلماصة التي عرفت استقرار اليهود بها كأكبر سوق راجت فيها تجارة الرقيق. و أن عاصمة غانة التي شهدت هي الأخرى استقرار العناصر اليهودية بها، راجت بها هذه التجارة⁽³⁾.

1. المسيري (محمد عبد الوهاب)، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ج.2، بيروت، دار الشروق، 1999. ص.277.

2. نفسه، ص.277.

3. شنايت (العيفة)، المرجع السابق، ص.156.

و في غضون هذه الأحداث و الظروف التي تمت فيها هذه التجارة يمكنني أن أستنتج أن تجارة الرقيق تختلف تماما عن معدن الذهب الذي استقطب تجار الكوفة و البصرة، حيث يستحيل المقارنة بين سلعة زالت و اندثرت بزوال عوامل ازدهارها، و سلعة مازال بريقها يثير الإعجاب و الدهشة.

كما يمكن لي أن أستنتج أن هذه التجارة كانت موجودة بشكل بارز و طبعت العلاقات بين أقطار المغرب و السودان الغربي لفترة زمنية طويلة. و أن كثرة عددها لا يؤكد بنسب ثمنها بل قوة الأنظمة التي تداولت الحكم على المغرب في فترة العصور الوسطى، دون أن أنسى طبيعة الحياة في المجتمع الإسلامي التي تبنها الدين الإسلامي بشكل، جعل حياة العبد في وسطه مضمون الحقوق.

الملح :

تعود أهمية الملح إلى كونه عنصرا أساسيا في نمو جسم الإنسان و الوقاية من بعض الأمراض. هذا ما يفسر بالفعل المكانة التي احتلها عند غالبية سكان الممالك التي عرفتها منطقة غرب إفريقيا التي عانت من نقص مادة كلورور الصوديوم، حيث كانت قبائل إفريقيا تستخلص مادة الملح من مواد حيوانية ونباتية بعد حرقها و تحليلها، و استمر ذلك حتى اكتشاف و استغلال ملاحات الصحراء الكبرى و المتمثلة في أوليل، تغازا و إيجيل⁽¹⁾. وكانت كمية الملح المستخرجة و المنقولة من هذه المناجم، توحى إلى الأهمية الكبرى التي احتلها هذا المعدن في حياة الأنارقة و المغاربة معا. و تزن قطع الملح المصدرة إلى السودان بين 85 و 90 كلغ⁽²⁾. وصف البكري ملاحا تتنتال قائلا : " تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن [...] و يقطع كما تقطع الحجارة [...] و من هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماصة و غانة و سائر السودان [...] وله غلة عظيمة " ⁽³⁾.

1. أنظر : LACOURT (J.), « Histoire du commerce... », T. 3, pp.43-45.

2. MAUNY (R.), Tableau géographique ..., p.359.

3. البكري، المصدر السابق، ص.171.

و الفائدة التي كان ملوك السودان يجنونها من تجارة هذا المعدن و وفرته، جعلت المناجم المستخرجة له تسقط وفي وقت مبكر تحت حكم ملوك غانة ثم مالي والسنغاي. و يأتي هذا بشكل واضح في وصف البكري لذلك حين يقول : " و للملكهم (أي ملك غانة) على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد و ديناران في إخراجهم " (1).

من خلال ما سبق ذكره يمكن لي أن استنتج أن قيمة معدن الملح استطاعت أن تضاهي قيمة معدن الذهب، لشدة حاجة السكان له. و لا غرابة في أن يتصارف به أهل السودان كما يتصارفون بالذهب و الفضة (2). و يؤكد ذلك صاحب كتاب الاستبصار قائلاً : " و ببلاد الفرويين يبدل الملح بالذهب لعدمه عندهم " (3).

فكان الذهب وسيلة للإبداع في طراز الفن المعماري، كما كان وسيلة للبحث عن ما ندر من السلع و البضائع التي تزين تلك القصور و البنايات الفاخرة، ليساهم السودان بدوره في تحقيق هذه الرغبة بوضع قائمة من البضاعة الكمالية التي أصبحت تميز هذا الإقليم عن بقية أسواق الأقاليم الأخرى التي عرفت سلطة العالم الإسلامي أو غيرها. و من أهم السلع التي تستحق الذكر العاج، هذه السلعة التي توفرت بكثرة و التي دخلت في قائمة الأواني المترلية مثل أواني الشرب أو لتزيين الخيول. أما العنبر، هذه المادة التي كثر عليها الطلب في أسواق المغرب، فكانت تستخرج من سواحل المحيط الاطلسي (4).

1. البكري، نفسه، ص. 176.

2. ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 141.

3. الاستبصار، ص. 219.

4. أحمد الباي (حسين)، "سلع التجارة الصحراوية - الصحراء الكبرى"، (إ. عماد الدين غانم)، طرابلس، ليبيا، أكتوبر 1979، ص. 206.

أما أحسن الجلود المستوردة من السودان فهي جلد اللمط*، هذا الحيوان الذي تتخذ من جلده تروس و يؤتى به من لمطة، كما ورد في قول ابن حوقل : " ومن سحلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرون يوما " ⁽¹⁾، و التي يقول عنها الزهري : " هي من اعجب ما يكون، و ذلك أنه إذا ضرب فيها برمح أو سيف أو سهم و تبخش منها موضع بقيت من بعد ذلك يسيرا، فتفتش فلا يوجد فيها اثر إلا رجع صحيحا كما كان " ⁽²⁾. و أهمية هذه السلعة تعود أولا إلى كثرة الحروب التي كانت تخوضها أقاليم المغرب و الأندلس. إضافة إلى أنه ذو جودة عالية حتى صار يهدى إلى ملوك المغرب و الأندلس ⁽³⁾. و في المقابل و بشكل عام، كان السودان يستورد من المغرب الإنتاج الفلاحي و بعض المصنوعات النحاسية هذا المعدن الذي كان يصدر على شكل قضبان أو على شكل سلاسل محلاة بماء الذهب ⁽⁴⁾. و يحدد الزهري هذه البضائع في قوله : " كان يجلب من المغرب التمر و الزبيب و الحرير و المتاع و الثياب، و الخز و الكتان، و من الأندلس و إفريقية الزعفران و الثياب المرسية و الخز و الحرير " ⁽⁵⁾.

* اللمط : حيوان على قدر العجل، أو أقل منه، طويل العنق، له أذنان كأذني المعز، و في رأسه قرون طويلة.

1. ابن حوقل، "صورة الأرض"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص 45.
2. الزهري، "كتاب الجغرافيا"، (تحقيق محمد حاج صادق)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر، 1990، ص 118.
3. نفسه، ص 118.
4. جودت عبد الكريم (يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية..."، ص 218.
5. الزهري، المصدر السابق، ص 124.

هذا إضافة إلى ما توصلت إليه الحفريات التي تمت في كل من جاو و تمبكتو وكومبي و أودغشت و التي عثر فيها على بعض الأواني الزجاجية كالكؤوس و المزهرات و المصابيح الزيتية و التي صنفت ضمن قائمة البضائع الكمالية التي جلبها السودان من الشمال.

من خلال ما تم ذكره يمكن لي أن استخلص عدة نتائج أهمها أن التبادل بين المغرب و السودان الغربي تم على أساس التبادل بين الشمال و الجنوب، هذه النظرية التي ما زالت الحياة الاقتصادية العالمية تعاني منها و هي الاعتماد على استبدال المواد الخام مقابل المواد المصنعة. فالذهب الذي يتطلب عملية التحويل لا يمثّلها الملح المصدر إلى السودان، و الذي لا يحتاج إلى عملية تحويل أخرى. و من جهة أخرى، أستنتج أن السودان بحكم افتقار الطبيعة فيها، عمد إلى استيراد المواد الغذائية الضرورية كالحبوب و الفواكه. كما كشف لي هذا التبادل عن نمط الحياة الاجتماعية السائدة في إفريقيا، خاصة عندما يفضلون خواتم و أساور من نحاس بدلا من الحلبي المصنوعة من الذهب. هذا ما يدفعني للقول أن الذهب لم يكن في متناول كل الناس. و لو أن الدراسات كشفت لي عن وفرة و انتشاره في العديد من المناطق في يد بعض الجماعات التي عرفت كيف تستغله لصالحها و لصالح بعض الحكام الذين كانت لهم السيطرة على مناطق استخراجها. و آخر ما يمكن قوله هو أن الذهب كسلعة استطاع فعلا أن يحدث نوعا من التكامل الاقتصادي بين أقطار المغرب و السودان الغربي و هذا ما لم تستطع هذه الدول تحقيقه اليوم لا على المستوى المغربي و لا على المستوى الإفريقي.

3. مسالك تجارة الذهب

استطاعت الفتوحات الإسلامية أن توسع شبكة طرق المواصلات التي كانت موجودة في المغرب قبل دخول العرب الفاتحين إليه، خاصة تلك الطرق التي كانت في اتجاه الجنوب، عبر الصحراء الكبرى، هذه الطرق التي مهدت لها قبائل البربر الجمّالة بعد أن اتخذت من الصحراء ملجأ لها، قبل و بعد دخول المسلمين إلى المنطقة. لتزداد هذه الشبكة اتساعاً بعد ازدهار تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي. و مما زاد من أهمية هذه المسالك، ذلك الاهتمام الذي أولته أيّاه الحكومات التي تعاقبت على السلطة في المغرب الإسلامي بعد الفتح، سواء من حيث الإشراف على أمن الطرقات أو حفر الآبار أو بناء محطات التجارة، التي أصبحت فيما بعد تشكل إحدى المدن الرئيسية في الصحراء الكبرى. و أهم سؤال تبادر إلى ذهني و أنا أبحث في هذا الموضوع هو : لو لم يكن هناك ما يسمى بمعدن ذهب السودان الغربي و لم تظهر تجارته، فهل بإمكان هذه المسالك و الطرقات أن تشهد هذا الاهتمام في ظل تبادل تجاري عادي مثله مثل كل التبادلات التي عرفها العالم و عرفتها الشبكة التجارية ؟ و هل يستحق فعلاً هذا التبادل الذي اعتمد على نقل ريش النعام والنحاس و القمح والفواكه، المخاطرة بحياة التجار و العبيد و الوكلاء في وسط مفازات الصحراء الكبرى من جهة، و نشوب حروب بين الدول التي عرفها المغرب من جهة أخرى ؟

للإجابة على هذ السؤال يتوجب علي البحث عن أهم المسالك التي عرفت نقل معدن ذهب السودان باتجاه المغرب، للتأكد من أن العالم الإسلامي بما فيه المغرب كان بحاجة إلى معدن الذهب. هذه الحاجة اعتبرت عاملا من عوامل اهتمام هذه الدول بكافة المسالك التي انقسمت إلى ثلاثة أقسام :

1. المسلك الغربي :

لم يكن التبادل التجاري بالنمط الذي عرف عليه في هذه المنطقة إلا بعد القرن العاشر للميلاد، فالمسالك التي كانت أكثر استعمالا قبل هذه الفترة كانت تنطلق من واحات مصر و جنوب تونس باتجاه النيجر. لذا فأهمية و استراتيجية هذه الطرق الغربية تظهر عند اهتمام المسلمين بمعدن الذهب، خاصة بعد الاهتمام الذي أولاه أياه الأغالبة ثم الفاطميين بشكل أكثر.

و يقول " J. Devisse " أن أهم قاعدة أساسية بني عليها التبادل التجاري بين الشمال و الجنوب هي قاعدة الملح مقابل الذهب. و أن هذا التبادل لم يتم بشكل منظم إلا حوالي 339 هـ/950 م. فظهور الفاطميين في الغرب و استيلاؤهم على سجلماسة سيفتح لأول مرة الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة و أودغشت. ليظهر بذلك المسلك الغربي الذي ينقل الذهب باتجاه الشمال⁽¹⁾.

1. أنظر DEVISSE (J.), « Routes de commerce... », p.53.

هذا الطريق الذي ينتد من أودغشت، أي من موريطانيا الحالية إلى غاية درعة وسجلماسة، لذا كان تركيز الفاطميين و اهتمامهم بسجلماسة و فتح طريق نحو أودغشت لا يعود فقط إلى قوة الباحثين ومحافظتهم على الطريق الرابط بين و رقلة النيجر، بل يعود إلى عدة عوامل منها توفر سجلماسة على الماس، حيث تعتبر أغنى المناطق المجاورة جميعا بالمياه.⁽¹⁾ كما أن وصف البكري لمدينة سجلماسة و الطريق الرابط بينها و بين أودغشت، بما فيها من مياه و بساتين،⁽²⁾ لأكبر دليل على تفضيل هذا الطريق. و رواية ابن حوقل تدل على أن الطريق الغربي للذهب عبر سجلماسة هي سأكثر الطرقات أمنا و أقل تعرضا للزوابع الرملية و يؤكد ذلك بقوله : " و فيها طريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم [...] فأهلكت غير قافلة [...] و قصدهم العدو فأهلكهم [...] فانتقلوا من ذلك الطريق فتروكه إلى سجلماسة * " ⁽³⁾.

هذا ما يدفعني لاستنتاج أن المخاطر التي كانت تتعرض لها القوافل في الطريق الشرقي و الأوسط، كانت أكثر شدة من المخاطر التي تتعرض لها القافلة في الطريق الغربي الذي سبق أن أشرت إلى العديد من مخاطره، حينما تطرقت إلى اجتياز القافلة لمفاوز الصحراء الكبرى.

1. مونس (حسين)، "تاريخ المغرب و حضارته" المجلد 1، ج.1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، ط.1، 1992، ص 361.

2. البكري، المصدر السابق، ص 148 - 163.

* حدث هذا 249 - 270 م / 863 - 883 م عندما قام حاكم مصر بتحويل الطريق التجاري الذي كان يمر بواحات خرقة للذهاب إلى المغرب والسودان الغربي، إضافة إلى الطريق الرابط بين مصر و غانة الذي هُجر لصالح الطرق التي كانت تمر بسجلماسة. هذا ربما ما يفسر استقرار تجار الكوفة و البصرة و بعض مدن المشرق الأخرى في سجلماسة. أنظر : p.299، " Le Maroc saharien... " MEUNIE (J.)

3. ابن حوقل، المصدر السابق، ص.65.

و يرى العديد من المؤرخين أن سجلماسة لا تشكل وحدها باب الطريق الغربي نحو السودان، فقد ذكر " M. Lombard " أن الطريق الغربي يشمل على محطتين، هما : سجلماسة ونول لمتة ⁽¹⁾. و هناك عامل آخر زاد من أهمية الطريق الغربي وتفضيل كافة التجار له، هذا العامل يتمثل في ظهور مفازة هذا المنجم الذي قلل من معاناة تجار الملح الذين كانوا يتجهون نحو مناجم أوليل * على ساحل المحيط الأطلسي. وتظهر هذه التجارة بشكل مكثف خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر ⁽²⁾.

و إذا اعتبرت سجلماسة بوابة المسلك الغربي، فهذا يعود للطرق التي ربطتها بمختلف المدن المغربية شمالا و السودان الغربي جنوبا. ففي الشمال فتحت سجلماسة طريقها باتجاه تلمسان، و قد وصف الإدريسي هذا الطريق قائلا : " وأما من أراد الطريق إلى تلمسان من سجلماسة فالقوافل تسير من تلمسان إلى فاس و من فاس إلى صفروى إلى تادلة إلى أغمات إلى بني درعة إلى سجلماسة " ⁽³⁾. إضافة إلى طريق وجدة سجلماسة، فاس سجلماسة، تيهرت سجلماسة و أغمات سجلماسة. أما باتجاه السودان فقد لاحظت أن سجلماسة ربطت طريقها بأهم محطات القوافل التجارية و مستودعات ذهب السودان الغربي، و التي تمثلت في أودغشت التي يربطها بها طريق تامدلت. وحسب لوفيتسكي " Lewicki " فإن هذا الطريق ينطلق من سجلماسة مروراً بتامدلت وإيجيل ثم أزوكي و أخيرا أود غشت. ⁽⁴⁾

أما الطريق الثاني، فهو الذي يربط سجلماسة بأودغشت مروراً بتاغازة، و من مميزات أنه يمر بسبخة الملح المشهورة بتاغازة، و التي يتزود منها التجار بالملح الذي يستبدلونه بذهب السودان الغربي ⁽⁵⁾.

-
1. لومبارد (موريس)، "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي"، ص 85.
 - * أوليل : جزيرة في البحر، و على مقربة من الساحل و بها الملاحة المشهورة و لا يعلم في بلاد السودان ملاذة غيرها، و منها يعمل الملح إلى جميع بلاد السودان. أنظر الإدريسي، نزهة المشتاق، المجلد الأول، ص 17.
 2. DEVISSE (J.), « Routes du commerce ... », p 56.
 3. الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 249.
 4. LEWICKI (T.) « Le Role du Sahara ... », p.305.
 5. شنايت (العيفة)، دولة بني مدرار " سجلماسة "، ص 142.

و و تعتبر الطريق الرابطة بين سجلماسة وتمبكتو مروراً بتابلالة و تغازة وتاوديني، حسب ما أشار اليه لوفيتسكى " Lewicki " في الخريطة ⁽¹⁾ ، من أهم الطرق التي اشتهرت بتجارة الذهب. و قد اكتسى هذا السبيل أهمية في المجال الثقافي إلى غاية القرن التاسع عشر. ⁽²⁾ بالرغم من أن هذا الطريق الذي يكتسي أهمية كبرى بعد سقوط امبراطورية غانة، و اعتباره أقصر طريق يربط المغرب الأقصى ببلاد السودان، فإنه لا يخلو من بعض المخاطر التي تواجهه التجار و الحيوانات و منها عدم عذوبة مياهه و ملوحتها و انتشار الذباب، خاصة في الجزء الذي يربط بين تاغازة و ولاتة. ⁽³⁾

و من خلال ما سبق ذكره يمكن لي أن استنتج أن معدن الذهب الذي كان ينقل عبر المسالك الغربية استطاع أن يضم عدة مراكز أساسية في كل من المغرب الأقصى، الصحراء الغربية و موريطانيا و حتى تلمسان. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الطريق الغربي كان يحتوي على بابين : باب الشمال، و يسمى سجلماسة، و باب الجنوب، و يسمى أودغشت. و ساهمت الطبيعة المميزة لهذا الطريق، و بشكل كبير، في تنشيط تجارة الذهب في هذه الفترة، كما أن استغلال ملح تاغازة ساهم في ظهور طرق ثانوية سهلت من توسيع شبكة الطرق التي كان يسلكها الذهب وسط المغرب الإسلامي.

1. LEWICKI (T.), « Le rôle du Sahara... », p.306.

2. عوض الله (أمين)، " تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي و آثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر"، في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1404 هـ / 1984 م، ص 76.

3. GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », p.114.

2. المسلك الأوسط :

لم تكن المسالك التي نقلت الذهب وسط المغرب الإسلامي أقل أهمية من تلك التي نقلته غربا من غانة إلى سجلماسة كما أن أهمية ورقلة وجاو، لا تقل أهمية عن سجلماسة و أود غشت، التي عاشت أهم فترات ازدهار تجارة الذهب بين المغرب و السودان الغربي و التي امتدت من بداية القرن الثاني إلى غاية نهاية القرن الحادي عشر. و يتمثل الفرع الأول من هذا المسلك، في الطريق الذي كان ينقل الذهب من غانة و أود غشت باتجاه تاغازة نحو الشمال الشرقي، ثم من توات و قورارة إلى الشمال الغربي لهضبة تادمايت التي تؤدي إلى ورقلة و الجريد بتونس.

أما الفرع الثاني، فيتمثل في الطريق الذي يربط بين جاو و ورقلة مرورا بتادمكة وأدرار إيفوغاس، و الذي يمتاز بقصره و صعوبة مسلكه. ⁽¹⁾ هذا ربما ما قلل من اهتمام الفاطميين به و القضاء على الإباضيين الذين استقروا في منطقة ورقلة. وأهمية هذا المسلك تعود إلى أهمية محطة ورقلة التي تعتبر ملتقى الطرق لهذه التجارة، حيث كانت تربط بين أهم أسواق المغرب التي كانت تستقبل ذهب السودان كالقيروان، تاهرت وسجلماسة مرورا بمنطقة الزاب، حسب ما أشار إليه لوفيتسكي "Lewicki" ⁽²⁾. كما تعود أهمية هذا الطريق أيضا إلى الأهمية التي تكتسيها جاو الواقعة جنوبا والتي تعتبر أهم محطة استقبلت ذهب السودان الغربي طيلة فترة العصور الوسطى. و التي أعادت توزيعه شمالا خاصة الفترة التي أشار فيها البكري إلى المسالك التي كانت تربط بين غانة والقيروان مرورا بجاو ⁽³⁾ والتي كانت تفتح على تمطيط عبر تادمكة وعلى ورقلة ومزاب عبر عين صالح ⁽⁴⁾.

1. LOMBARD (M.), « Les métaux dans l'ancien monde », p.214.

2. LEWICKI (T.), « Le Rôle du Sahara... », p.306.

3. البكري، المصدر السابق، ص 156.

4. LEWICKI (T.), op.cit, p.306.

رغم حفاظ الإباضيين على طريق الذهب الذي كان يربط ورقلة بغانة مروراً بجاو، إلا أنه فقد من أهميته بعد بروز آثار ازدهار طريق سجلماسة التي بدت واضحة المعالم، خاصة على المدن التي كانت منتشرة على طول مسلك ورقلة - جاو، ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها في هذا الصدد، خراب مدينة تارغة التوارقية التي هجرها أهلها ليقيموا في سجلماسة⁽¹⁾.

3. المسلك الشرقي :

يعتبر من أهم المسالك التي كانت السبابة في نسج شبكة الخطوط التجارية لشمال إفريقيا باتجاه السودان الغربي. كان هذا المسلك ينطلق من طرابلس ليتفرع فيما بعد إلى ثلاث اتجاهات :

- الأول : كان نحو السودان الغربي، أي إلى محطة غانة و أود غشت وسجلماسة.
- الثاني : نحو السودان الأوسط، أي إلى محطة فزان، تشاد، كانم، و تادمكة.
- الثالث : نحو السودان الشرقي، أي إلى محطات الواحات الشرقية و إلى مصر⁽²⁾.

و إذا حاولت تحديد طريق الذهب من خلال هذه الشبكة، و التي ربطت أراضي شرق المغرب بالسودان الغربي، أجدها تتمثل فيما ذكره البكري و التي تنطلق من غانة باتجاه جاو ثم تادمكة إلى غاية طرابلس مروراً بغدامس، و التي يجتازها التاجر في فترة زمنية قدرها مائتا يوم، و حددت محطاتها كآتي : غانة - تادمكة، 50 يوماً، تادمكة - غدامس 40 يوماً، و غدامس - طرابلس 10 أيام⁽³⁾.

1. زغلول (سعد)، " تاريخ المغرب العربي"، ج.4، ص.109.

2. نفسه، ص.115.

3. البكري، المصدر السابق، ص.180-182.

وأهم ما ميز هذا الطريق الشرقي، بروز مدينة غدامس في واحات ليبيا، كما برزت ورقلة في واحات الجزائر، حيث تعود فترة اعتبارها محطة تجارية إلى التاريخ القديم، نظرا للأهمية التي كان يكتسيها موقعها الاستراتيجي، حيث شكلت بوابة رئيسية للسودان الغربي بالنسبة لمدينة طرابلس، إضافة إلى مرور الطريق الرابط بين شروش و التكرور بها. و من يتطلع الى شروش يتطلع إلى أهمية جبل نفوسة التجارية والطرق التي كانت تربطها بزويلة وفزان و قسطياية و بلاد الجريد ثم ورقلة وتادمكة و جاو⁽¹⁾.

و ما يمكن استنتاجه من خلال دراسة هذه المسالك الثلاث التي لا يمكن لي اعتبارها الوحيدة التي نقلت الذهب من السودان نحو المغرب هو سعة شبكة الطرق بشكل يجعل الصحراء الكبرى تحت مراقبة كل حكام المغرب، وتحت مراقبة القبائل البربرية الجمالة التي انتشرت في الصحراء. كما يمكن لي أن استنتج أن هذه الطرق الرئيسية الكبرى قد تفرعت عنها طرق ثانوية منها ما درس و منها ما لم يدرس، هذا دون أن أنسى أهمية الطريق العرضي الكبير الذي كان يربط القاهرة بأود غشت، مروراً بالقيروان، تاهرت، وسجلماسة والذي كان يمثّل في نظري الطرق البرية، التي ربطت بين عواصم الدول الأوروبية من حيث كثافة النشاط التجاري و أهميته في وقتنا الحالي.

و تبقى هذه الدراسات، التي بإمكانها أن تعيد للمغرب أهميته الاقتصادية التي تميز بها عبر التاريخ، من أهم الدراسات التي تتطلب الاستناد إلى الأبحاث الأثرية التي من شأنها إثبات حقيقة وجودها عبر التاريخ خاصة، و أن المنطقة قد تعرضت إلى عدة حروب و فتن أودت بالعديد من الوثائق الثابتة إلى الضياع. فالطريق الذي كان يربط بين السودان و المغرب، كانت له عدة معالم كبرى يمكن العودة إليها لتحديد مسافة المسلك و التفرعات التي تضمنها. كما يمكن العودة إلى الآبار كمعلم رئيسي أو إلى الأودية كمعلم ثانوي، إضافة إلى دراسة المدن الصحراوية الحالية و قصورها، أو المدن التي اندثرت و اختفت تحت الرمال من خلال الإشارة إلى هذه المسالك.

1. فخار (إبراهيم)، "تجارة القوافل في العصر الوسيط و دور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى" في "تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1404هـ/1984 م، ص50.

4. محطات تجارة الذهب

أ. المدن

إن ظهور ما يسمى بالنهضة العمرانية في المغرب الإسلامي، يعتبر من أهم الأحداث التاريخية التي سمحت ببروز أهم الظروف التي تشكلت فيها المدينة الحديثة وازدهرت. و يكفي القول أن المسلمين في كافة مناطق تواجدهم استطاعوا أن يؤسسوا مدنا قادرة على توفير الشروط الضرورية لساكنيها، حتى ولو كان ذلك في بعض الأحيان بشكل مؤقت⁽¹⁾، فالدور الديني للمدن في البلاد الإسلامية يعتبر القاعدة الأساسية في ظهور هذه النهضة العمرانية، انطلاقا من المراكز التي كانت فاتحة كل إنجاز في كل الأمصار، سواء في أجزاءها الشرقية أم الغربية.

هذا المركز الذي يتمثل في المسجد كثيرا ما يعطي إشارة الانطلاق لحركة عمرانية لا يمكن تجاهلها، ليرز فيما بعد الدور العسكري الذي لا يقل أهمية عن الدور الديني لارتباطه بفكرة الجهاد التي تعتبر أساس توسع الفتوحات الإسلامية، فمعسكر القيروان و مسجدتها أكبر مثال لتدعيم هذه النظرة.

1. أنظر MARCAIS (G.), « Mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman », T.1, Alger, 1957, p.54.

إلا أن الدور الثالث يعود إلى كون بعض المناطق الإسلامية كانت عبارة عن بلدان لتجارة العبور، و هذه النقطة الأخيرة أجدها مجسدة في واقع الحياة العمرانية للمغرب، و ذلك بين القرنين الثالث و الخامس هجري (التاسع و الحادي عشر ميلادي)، فالتجارة العابرة للصحراء استطاعت فعلا أن تحدث ثورة عمرانية ابتداء من شمال الصحراء الكبرى حتى ضفاف نهر النيجر⁽¹⁾.

و من أمثلة ذلك فاس و القيروان التي كانت على صلة مع تلك الواجهة الجنوبية لتجارة المغرب، و مع نهضة مدن القوافل الكبرى، هذه الموانئ التي تصل إليها كل الطرقات الناقلة لمعدن ذهب السودان الغربي⁽²⁾.

هذه الحياة العمرانية المزدهرة و التي تستدعي العناية بها دفعتني إلى إدراج هذه النقطة ضمن موضوع دراستي بالرغم من استبعادها منذ البداية، ليس تقليلا من قيمتها بل كونها تشكل دراسة على حدى، و التي يمكن أن تدرس في إطار المآثر الحضارية لتجارة ذهب السودان في المغرب الإسلامي. و بالتالي حاولت إدراج هذه الفكرة ضمن البحث لإعطاء عينات محددة للمدن و القصور التي ازدهرت بفضل تجارة الذهب بشكل مباشر أو غير مباشر، و هذا التحديد ليس من شأنه الإنقاص من أهمية القصور و المدن غير المذكورة لكن بسبب كثرتها و تنوعها. فهناك من المدن، من شكلت سوقا لتجارة الذهب و هناك من شكلت مستودعا له ليعاد تسويقه شمالا و شرقا حسب موقعه على المسالك الصحراوية. أما بالنسبة للقصور فهناك النوع الذي كان بمثابة همزة وصل بين المحطات التجارية، و هناك من كان سكانها يشكلون طرفا من أطراف القافلة الناقلة للذهب.

1. لومبار (موريس)، "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي"، ص. 182.

2. نفسه، ص. 182.

و لدراسة هذه الفكرة حاولت تقسيم فكرتها إلى ثلاثة أقسام أشير من خلالها إلى المدن الشمالية ثم المدن الصحراوية، و أخيرا مدن الساحل التي كانت منفذا لذهب السودان باتجاه المدن الصحراوية و الساحلية للمغرب. و من أهم هذه المدن الشمالية القيروان.

أ. - القيروان :

يحدد ياقوت الحموي موقع القيروان في قوله : " القيروان في الإقليم الثالث، مدينة عظيمة بإفريقيا غيرت دهرا و ليس بالغرب مدينة أجهل منها " (1). لقد اتفقت جل المصادر العربية سواء المعاصرة لفترة ازدهار القيروان أو غيرها، على أنها مدينة جليلة مثلتها مدن الفسطاط أو بغداد. و شهرة مدينة القيروان في ذكر المصادر العربية يعود في رأيي إلى وفرة الشروط الضرورية التي من شأنها أن تعطي للمدينة نفسا قويا للبروز و الازدهار، انطلاقا من الموقع الجغرافي إلى غاية أنماط السكان والنشاط الاقتصادي. و في هذا الصدد يقول الزهري : " القيروان مدينة عظيمة جمعت بين طيب الهواء و عذوبة الماء و جميع المحاسن " (2).

أما البكري فيشير إلى القيروان بشكل أدق، و هذا عندما يذكر المدن التي تحيط بها، كبحر تونس، و بحر سوسة، و المهديّة و بحر سفاقس كما يقول أيضا : " و أن سائر جوانبها أرضون طيبة كريمة و أهمها الجانب الغربي المعروف بفحو الدارّة " (3).

1. الحموي (ياقوت)، المصدر السابق، ص.420.

2. الزهري، المصدر السابق، ص.109.

3. البكري، المصدر السابق، ص.24.

هذا الموقع الجغرافي الهام الذي تمتاز به القيروان دفع بعقبة بن نافع سنة 50 هـ/670 م، أن يخطط لتأسيس هذه المدينة التي ستصبح موقعا دفاعيا و معسكرا للتدريب وقاعدة لانطلاقه الجيوش الفاتحة⁽¹⁾. إضافة إلى أن هذا الموقع سمح بوفود جماعات هائلة من السكان، بربرا كانوا أو عربا، كما يشير إلى ذلك اليعقوبي في قوله : " وفيها أخلاط من الناس من قريش و من سائر بطون العرب، و من العجم و من أهل خراسان، و بها عجم من عجم البلد البربر و الروم و أشباه ذلك " (2).

هذه العوامل التي سرعان ما جعلت من القيروان معلما من المعالم الحضارية الإسلامية، لم تكن بوابة لإفريقيا و مقرا إداريا لحكامها فحسب، كما قال عنها الحميري : " و القيروان دار ملك المغرب، و رأت من الممالك و الملوكة و الدول و الفقهاء و العلماء و الصالحين ما لم يكن مثيله في قطر من الأرض "، بل كانت مركزا لاشعاش إقتصادي، حيث احتضنت سوقا تجارية استقطبت التجار من كل بقعة داخل المغرب و خارجه، و ازدهرت بها التجارة حتى جعلت من المغرب بلدا غنيا و أسواقه مشهورة في عالم التجارة⁽³⁾.

إلى جانب هذا الازدهار الاقتصادي الذي عرفته القيروان، فقد كان هناك ازدهار ثقافي وعلمي كانت تضاهي به أعظم المدن في الشرق، كما يقول الزهري : " [...] تضاهي بغداد و هي من قواعد الإسلام الأربعة : بغداد و القاهرة و القيروان و قرطبة، فيها من العلماء و الفقهاء و الشعراء و الأدباء ما كان بالبصرة، فيها أربعة آلاف كرسي للعلم و أربعمئة شاعر، لا يمدحون ملوكا و لا وزراء إنما يمدحون التجار و أولا التجار " (4).

1. لومبارد (موريس)، "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي"، ص. 182.

2. اليعقوبي، المصدر السابق، ص. 105.

3. الحميري، المصدر السابق، ص. 382.

4. الجنحاني (حبيب)، " القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب "، ص. 134.

لا يمكن لي أن أستبعد في هذا الفضل الذي يعود لذهب السودان الغربي في الازدهار الذي عاشته مدينة القيروان، فبعد أن تخلت مصر عن الطريق الذي يربطها بغانة⁽¹⁾ مباشرة أصبح من الضروري أن تمر القوافل بالقيروان ثم تاهرت إلى غاية سجلماسة آخر محطة مغربية ليجتاز بذلك مفاوز الصحراء باتجاه أرض السودان. وبتطور الحركة العمرانية بالقيروان تصبح أهم مدينة في المغرب لتتحول بعد ذلك إلى عاصمة سياسية تصدر منها الأوامر، كما شكلت عاصمة ثلاث دول للمغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى (الأغالبة، الفاطميين و الصنهاجيين)⁽²⁾.

إضافة إلى الدور الهام الذي لعبته القيروان عندما ربطت المغرب بالجنوب الصحراوي، حيث كانت محطة لتجار الجنوب، و يذكر البكري في ذلك : " فإذا أردت التوجه من تادمكة إلى القيروان، فإنك تسير في الصحراء خمسين يوما إلى وارجلان ثم أربعة عشر يوما إلى قسنطينة ثم سبعة أيام إلى القيروان " ⁽³⁾، و لن يزيد القيروان إلا أهمية عندما يشار إلى تمركز اليهود فيها، خاصة إذا عرفنا أن هذه الجالية لا تستقر إلا حيث يوجد الأمن و تكثر الأرباح، و القيروان لها من هذه الصفات ما جعلها قطبا من أقطاب العالم الإسلامي.

1. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 150

2. الجنحاني، " القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب"، ص.57.

3. البكري، المصدر السابق، ص.182.

ب. - تاهـرت :

وقع اختياري على مدينة تاهرت، بالرغم من أن فترة دراستي لا تغطي الدولة الرستمية كاملة، لأسباب عديدة منها كون مدينة تاهرت تعتبر من أشهر مدن المغرب الأوسط، و كذلك لأهمية العلاقات الاقتصادية التي ربطت تاهرت بالسودان، بالإضافة إلى أهمية ذهب السودان المستورد و آثاره الحضارية على تاهرت.

لقد كان لتأسيس مدينة تاهرت أثر على الحياة العمرانية في المغرب الأوسط، حيث ساهم ذلك في انطلاقة حضارية لا انقطاع لها، منذ تأسيسها سنة 161 هـ / 777 م ⁽¹⁾. لم يكن اختيار موضع تاهرت بالأمر الهين حسب رأيي، لأن الازدهار الذي شهدته هذه المدينة لم يكن مصدره الثروة الاقتصادية بل حي العامل الطبيعي كان له أثر كبير في ذلك، ليكون لتاهرت في هذا الأمر شأن القيروان، التي تبرز مدى اعتماد المسلمين على قواعد متينة وصحيحة قبل البدء في تأسيس المدن. لقد كان تأسيس بغداد مثلاً واضحاً لكل الفاتحين الذين أرادوا تخطيط المدن و الاستقرار فيها، و بالتالي فإن كانت القيروان قد حظيت بموقع استراتيجي، فإن تاهرت قد تمتعت بأهم الأراضي الخصبة التي ركنتها أن تضمن لأهلها مردوداً زراعياً وافراً و لأغنامها مرعى خصباً.

1. ابن عذارى (المراكشي)، " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب"، ص. 277.

و من جملة ما ذكره المؤرخون في وصف أهمية تاهرت و جمالها، ما ذكره الأصطخري في قوله : " و تاهرت مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه (1)، " كما بها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار " (2). واختيار بناء تاهرت الحديثة في هذا الموضع سوف يكون له شأن توطيد العلاقات التجارية مع الخارج خاصة مع بلاد السودان والتي تهمني أكثر في هذه الدراسة، ومما سهل على تمتين مثل هذه العلاقات، كون الدولة الرستمية سيطرت على معظم منافذ الطرق المؤدية إلى السودان، إضافة إلى امتلاكها لعدد من القواعد الصحراوية التي تقع على الطرق التجارية مع السودان، و منها ورجلان و غدامس (3).

هذه الأهمية سمحت لتاهرت بأن تصبح مركزا سياسيا واقتصاديا يستقطب كل إباضيي المغرب الأدنى، الأوسط وحتى الأقصى، إضافة إلى تجار البصرة و الكوفة و القيروان (4). كما "عمرت تاهرت أيام الأفلح و كثرت الأموال و المستغلات و أتمته التجار و الوفود من كل الأمصار و الأفاق بأنواع التجارات" (5).

و هذا الازدهار دفع العديد من الكتاب و الرحالة العرب أن يطلقوا عليها اسم العراق: حيث ذكرها الحموي في قوله أنها : " مدينة جليلة كانت قديمة تسمى بعراق المغرب " (6). أما ابن حوقل فيصف كثرة التجار و التجارة بها (7).

1. الإصطخري، المصدر السابق، ص. 34.

2. "الاستبصار"، ص. 178.

3. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، ج 2، ص. 127.

4. أنظر LEWICKI (T.), « Etudes Maghrébines et soudanaises », Varsovie, Académie polonaise des sciences – comité des études orientales – 1976, p.12.

5. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ج. 2، ص 341.

6. الحموي (ياقوت)، المصدر السابق، ص. 8.

7. ابن حوقل، المصدر السابق، ص. 86.

إذن ليس هناك أدنى شك في أن تاهرت قد ازدهرت و نمت و شكلت أحد أقطاب الأمة الإسلامية في جزئها الغربي. و هذا الازدهار يعود إلى حكمة أئمتها و توفر شروط نموها من طبيعية إلى اقتصادية. و إذا حاولت التركيز أكثر على دور ذهب السودان في ذلك و علاقات تاهرت بممالك السودان يدفعني الأمر إلى الإشارة إلى قول الإمام عبد الوهاب : " لولا أنا و محمد ابن جري و ابن زلغين لخرب مال المسلمين أنا بالذهب و محمد ابن جري بالحرث و ابن زلغين بالأنعام" (1). و بروز دور الأبازيين في التجارة الرسمية السودانية جعل بعض الباحثين يطلقون عليها تسمية التجارة الخوارجية، ليس لسيطرة هؤلاء على مسالكها ومحطاتها، بل للعلاقات السياسية التي كانت بين الأئمة الرسميين و ملوك السودان (2) التي أضفت عليها طابع الرسمية، لتصبح التجارة على النمط الحديث الذي نراه اليوم.

و لم تتوقف الدولة الرسمية عند هذا الحد في رسم بصماتها في التجارة مع السودان بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، حيث استطاع التجار الخوارج بأودغشت إلى إبراز مبادئ الأخلاق التجارية التي امتازوا بها، و هذا من خلال ما كانوا يمتازون به من أمانة تجارية منقطعة النظير، و يؤكد هذا أسباب منع الإمام الرستمي عبد الوهاب ابنه الأفلاح من مرافقة قوافله التجارية إلى بلاد كوكو، و التي تتمثل في عدم اجتيازه للامتحان الفقهي و المتعلق بمسائل الربى إلى أن تزداد خبرته بأمور التجارة.

و كان للمسالك التجارية الكبرى التي ربطت تاهرت ببلاد السودان أثر كبير في نمو هذه المدينة و ازدهارها و ورود الذهب إليها، و من أهم هذه المسالك المسلك الذي ينطلق نحو الغرب في اتجاه جاو ثم سجلماسة و أودغشت و غانا (3).

1. جودت (عبد الكريم يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط"، ص. 109.

2. مجاز (ابراهيم بكير)، "الدولة الرسمية"، ط. 1، الجزائر، مطبعة لاموميك، 1985، ص. 16.

3. بن عزوز (فريدة)، "قراءة في أبحاث تاديوش لوفيتسكي - حول فجر العلاقات بين بلاد المغرب و بلاد السودان-"، ص. 460.

أما المسلك الثاني فهو الذي يتوجه دائماً نحو جاو لكن هذه المرة مروراً بورقلة و تادمكة عبر الهقار. وتعتبر ورقلة أهم و اقرب محطة لتاهرت و التي لعبت دوراً في تاريخ الاباضية سواء أيام ازدهار الرستميين أو يوم الاستيلاء عليها من طرف أبي عبد الله الشيعي سنة 296 هـ/ 908 م، حيث أصبحت ملجأ لآخر أئمة الرستميين يعقوب ابن الافلح⁽¹⁾، هذا إما يفسر العلاقات الجيدة التي كانت بين اباضي تاهرت و ورقلة والتي ميزت العلاقات التجارية لمدين المغرب الأوسط التي عاشت انتعاشاً منقطع النظر خاصة إذا كان الطريق الذي يربط بين هاتين المخطتين أي تاهرت و ورقلة يمر على عدة نقاط لا تقل أهمية عن الأخرى و هذا مروراً بجبل عمور، كمدينة الاغواط تيلغمت وبلاد الزاب⁽²⁾.

كما أدى الازدهار الاقتصادي الذي عاشته الدولة الرستمية خاصة في مجال تجارة الذهب مع السودان إلى بروز أثر لها في المجال الفني، كبناء القصور و المباني الضخمة، و اتخاذ الضياع الواسطة، والاستكثار من العبيد و الخدم واتساع ثروة التجار إلى درجة امتلاك الأسواق بأسمائهم الشخصية⁽³⁾.

هذا ما يدفعني إلى القول أن مدينة تاهرت قد استفادت من عاملين أساسيين أديا فعلاً إلى بروزها و ازدهارها في المنطقة، أولهما العنصر الإباضي النشط و علاقاته بالعناصر الخوارجية الأخرى، ثانيهما تجارة الذهب التي كانت و بدون أدنى شك العامل المحرك لكل هذه التوسعات.

1. أنظر LEWICKI (T.), « Etudes Maghrébines et soudanaises », p.13.

2. Ibidem

3. عبد العزيز (سالم)، "تاريخ المغرب الكبير"، ج.2، ص.579.

ج. - سجلماسة :

تقع سجلماسة على الطريق الغربي المؤدي إلى غانة. و المسافة بينها و بين غانة شهرين و بينها و بين وادي درعة خمسة أيام⁽¹⁾، و بينها و بين فاس عشرة أيام⁽²⁾. وتعتبر هذه المدينة من أكبر مدن الصحراء المغربية، تبعد عن البحر خمسة عشر مرحلة. تمتاز بكثرة بساتينها و خضرها و قصورها و ديارها، هذا ما جعلها مقصدا للوارد و الصادر⁽³⁾. و من مدنها : درعة تدنفوست، أشر ، أيل، امصلى، دار الأمير، حصن برارة، الخيامات، تازروت⁽⁴⁾.

يعود غنى هذه المدينة و ازدهار أسواقها و كثرة أهلها إلى أنها تقع على طريق الذهب. يقول الحموي : " اهل هذه المدينة من أغنى الناس اكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب، و لأهلها جرأة على دخولها"⁽⁵⁾. هذا ما دفع بجماعات اليهود أن تستقر فيها و تمتهن حرفة البناء "لما علموا أن التبر بها أمكن منه بغيرها في بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه"⁽⁶⁾.

قرب سجلماسة من السودان على الطريق الغربي جعل كل التجار الذين مارسوا تجارة الذهب يستقرون بها و يؤكد البكري ذلك قائلا : " و من مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة"⁽⁷⁾.

1. البكري، المصدر السابق، ص. 149.

2. الحموي، المصدر السابق، ص. 192.

3. الحموي، المصدر السابق، ص. 305، أنظر كذلك، ابن حوقل، "صورة الأرض"، ص. 42.

4. البشاري، المصدر السابق، ص. 184.

5. الحموي، المصدر السابق، ص. 192.

6. الحموي، المصدر السابق، ص. 306.

7. البكري، المصدر السابق، ص. 149.

كان لمدينة سجلماسة شأن اقتصادي كبير أكدته شبكة الطرقات التي ربطتها بمدن المغرب، منها ورقلة. هذه المدينة التي اعتبرت مرحلة من مراحل الطريق الذي يربط القيروان بسجلماسة، من جهة، و طريق مصر سجلماسة مروراً بطرابلس و الجريد من جهة أخرى، لتعتبر أهم محطة شمالية لطرق قوافل المغرب المتوجهة إلى السودان و محطة وصول ذهب و عبيد غانة⁽¹⁾. كما تذكرني أهمية سجلماسة الاقتصادية بتلك العلاقات التي ربطت تاهرت ببني مدرار في منتصف القرن الثامن. ليستمر هذا إلى غاية ظهور الفاطميين خلال القرن العاشر، الذين استولوا على طريق الذهب من الجريد إلى سجلماسة، حيث قدرت مداخيلها بـ 400 ألف دينار⁽²⁾. لقد كان خروج المهدي منها بأحمال التبر، بعد تعيين الوالي الشيعي إبراهيم بن غالب المزاتني⁽³⁾ دليلاً على أهمية سجلماسة التي أصبح ذهبها يشكل قاعدة اقتصادية للفاطميين، لتنتقل خلال القرن العاشر إلى حكم بني أمية في الأندلس، و الذين عززوا مراكز ضرب عملتهم بذهبها، حيث لم يبق لحاكم قرطبة عبد الرحمن الثالث سوى أن يفتح آفاقاً اقتصادية كبرى مع الصحراء⁽⁴⁾. بنهاية سنة 445 هـ / 1053-1054 م تدخل سجلماسة حكم المرابطين و تزداد أهميتها التجارية، بالإضافة إلى أهميتها السياسية و الروحية، بعد ضربها للدينار الذهبي المرابطي⁽⁵⁾.

إن الأهمية الاقتصادية التي حققتها سجلماسة في المجال التجاري، بعد أن تمكنت من ذهب السودان الغربي دفعها إلى عدم الدخول في التعصب المذهبي⁽⁶⁾. و ربما دفع تعدد التجار بها و ثرائهم و كذا الانشغال في أمور البيع و الشراء، إلى التأقلم بشكل سريع مع كل الأنظمة التي عرفت، و استرجاع نشاطها التجاري كلما عرفت خراباً.

1. أنظر LEWICKI (L.), « Études maghrébines et soudanaises », p.14.

2. أنظر LOMBARD (M.), « Les Métaux dans l'ancien monde », pp.227-228.

3. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، الجزء 2، ص.597.

4. أنظر DIADIÉ (H.I.), « L'Espagne musulmane et l'Afrique subsaharienne », Ed. Donniya, Bamako, 1997, p.41.

5. أنظر MEUNIE (J.D.), « Le Maroc saharien... », p.235.

6. جودت (عبد الكريم يوسف)، "العلاقات الخارجية للدولة الرسمية"، ص.228.

و في انتظار ذلك تبقى سجلماسة صورة لإحدى عواصم المحطات التجارية التي عرفها المغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى و الباب الرئيسي للطريق الغربي التي عرفت اجتياز كميات كبيرة من ذهب السودان الغربي بررت كل تنافس مغربي و إفريقي طهر من أجلها.

و ما زالت أهمية سجلماسة التجارية تكشف عنها يوميا الدراسات الأثرية التي اهتمت بالمنطقة بعد أن وضعت مخطط بحث أولي لمعرفة حقيقة تاريخ المدينة الاقتصادي، و التي أكدت أن تاريخ هذه المدينة لا يعنيها وحدها، بل يعني التاريخ الشامل للمناطق التي كانت على اتصال بها، كمعرفة تاريخ و ثقافة تلك التجمعات البشرية المختلفة أو تاريخ الاتصالات بين الشرق و الغرب أو الشمال و الجنوب، خاصة تلك التي ربطت علاقاتها بموانئ أوربية⁽¹⁾.

لكن تبقى هذه الافتراضات رهينة مثل هذه الأبحاث، دون أن ننسى الاهتمامات التي أولاهها DEVISSE بهذه المدينة. فمن خلال بعض الدراسات الأثرية ركز على دراسة بعض الأواني الخزفية التي عثر عليها في مدينة أود غشت و التي توصل من خلالها إلى أن 50 بالمائة من هذه الأواني صنعت في سجلماسة و 12 بالمائة فقط صنعت في القيروان. كما توصل من خلال دراساته هذه إلى التأكد من أن ذهب عملة سجلماسة التي ضربت منذ سنة 349 هـ/960 م، مصدره إفريقيا الغربية، مما دعاه للافتراض أن قاعدة التبادل بين سجلماسة و السودان الغربي بنيت على معدن الذهب مقابل أواني خزفية⁽²⁾. إلى غاية التأكد من حقيقة تلك المبادلات التجارية التي بنيت على أساس معدن ذهب إفريقيا مقابل بضائع محلية أو مستوردة.

1. انظر BENSLIMANE (J.H.), « Sidjilmasa, du mythe à la réalité -Archéologie- », in « Histoire du Sahara et ses relations... », p.26.

2. انظر DEVISSE (J.), « Sidjilmasa, les sources écrites, l'archéologie, le contrôle des espaces » in « Histoire du Sahara et ses relations... », pp.19-20.

د. - أودغشت :

عندما غادر بربر صنهاجة المثلثين جنوب المغرب، حوالي القرن 3 ق.م، وهم رعاة ورحل، كانوا يتشكلون من عدة قبائل تشمل لمتونة، جدالة، لمتة و مسوفة، فانتشروا في عدة مناطق جنوب موريطانيا الحالية، أين توفرت لهم المراعي، واستقروا في مراكز ثابتة منها أزوكي في أدرار شمال غرب عاتر، وأودغشت التي ظهرت بالقرب من ولاتة، شرق تاجنت⁽¹⁾. هذه المدينة التي تقع بين خطي عرض 18° و 19° شمال خط الاستواء، كانت إحدى المحطات التجارية لصنهاجة على الحدود الشمالية لمملكة غانة⁽²⁾.

و من أهم العوامل التي ساهمت في نمو أودغشت و ازدهارها و اعتبارها محطة تجارية :

- وقوعها على الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة و غانة، هذا الطريق الذي شهد تنافسا بين ملوك صنهاجة و ملوك غانة⁽³⁾ خاصة خلال القرن العاشر للميلاد.

- توفر هذا الطريق على الماء على حد قول البكري أنه أيسر طريق بسبب وفرة الماء، خاصة في جزئه الرابط بين تامدلت و أودغشت، خاصة عند الإشارة إلى بئر الجمالين و بئر هيلسون أو ويطونان.⁽⁴⁾

1. أنظر DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique occidentale française », p.71.

2. حسن (إبراهيم حسن)، " انتشار الإسلام في القارة الإفريقية"، ص 215.

3. أنظر DELAFOSSE (M.), op.cit, p.71.

4. البكري، المصدر السابق، ص.157.

- كون أودغشت همزة وصل بين مناجم ملح كل من أوليل ، إيجيل ، و تغازة الذي كان ينقل إلى بلاد السودان ⁽¹⁾.

- اعتبار أودغشت مستودع تير السودان، حيث تفتح على غانا بمسافة قدرها عشرة أيام، و التي تفتح بدورها على كوغة، أحد مناجم الذهب بمدة زمنية قدرها شهر ⁽²⁾.

- اختلاف مزايا صحراء الأمس عن مزايا صحراء اليوم، حيث كانت أقل صعوبة و أكثر توفرا على شروط الحياة.

لكن تركيزي على معدن الذهب الذي صدرته أودغشت نحو مدن الشمال، التي شكلت أحد مستودعاته، يجعلني أبحث عن كيفية تعامل أودغشت بالذهب الذي عاد عليها بالفائدة الاقتصادية التي تمتعت بها. يقول البكري في هذا الصدد : " يجلب منها الذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة و ذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض و أصحبه " ⁽³⁾. هذه الرواية تؤكد أمرين أساسيين هما :

أولا : أن أودغشت كانت تستقبل ذهب غانة الذي ثم تباعه في سوقها كما في قوله : " و سوقها عامرة الدهر كله [...] اهلة و تبائعهم بالتبر [...] " ⁽⁴⁾.

1. أنظر LEWICKI (T.), « Le Rôle du Sahara... », p.306.

2. أنظر EL-FASSI (M.), « Histoire générale de l'Afrique », T. 3, L'Afrique du VII^e au XI^e siècle, p.287.

3. البكري، المصدر السابق، ص.159.

4. نفسه، ص.158.

ثانيا : أن أودغشت كانت لها مراكز تحويل الذهب، أين يصفى من الشوائب ثم يصنع على شكل فتائل. هذا ما يعطيني صورة على أن الذهب الذي كانت أودغشت تصدره نحو الشمال لم يكن على شكل تبر فقط، بل كان على اشكال مختلفة. إذا كيف لا تتطور مدينة أودغشت و هي تستقبل أئمن بضاعة سودانية عرفها المغرب، وبالتالي ليس غريبا أن أتصور مستوى التطور الذي حققته، و الذي ربما كان يضاهي تطور سجلماسة و ورقلة، خاصة عندما يؤخذ بعين الاعتبار ذلك الوصف الذي تقدم به الحميري في قوله : " فكانت لها مبان حسنة رفيعة، و اهلها اخلاط من جميع الامصار استوطنوها لكثرة خيرها و نفاق اسواقها و تجارتها " (1). ليؤكد ذلك الحموي مرة أخرى في قوله : " بها اسواق جليلة و هي مصر من الامصار جليل، و السفر اليها متصل من كل بلد " (2). و ازدهار هذه المدينة و ثراء تجارتها دفع البعض إلى امتلاك صك و هو من أهل سجلماسة " باثنين و أربعين ألف دينار " (3).

كما برزت هذه القوة الاقتصادية من خلال قوة حاكمها، و هو رجل من صنهاجة ما بين سنة 350-360 هـ/ 961-971 م، حيث كانت له جيوش كثيرة فدان له أزيد من 20 ملكا من ملوك السودان الذين كانوا يؤدون له الجزية (4). و يبدو أن علاقة أود غشت بغانة كانت بسبب ما كان للبلدين من أهمية، فالأول يستحوذ على أهم سلعة تحتاج إليها إفريقيا الاستوائية أي الملح، و الثاني يمتلك أنبل معدن يحتاجه تجار الشمال. يقول ابن حوقل : " أن ملك أود غشت يخالط ملك غانة [...] و يهادي صاحب كوغة، [...] و وحاجتهم إلى ملوك أود غشت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام [...] و ربما بلغ الحمل ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار " (5).

1. الحميري، المصدر السابق، ص. 64.

2. الحموي، المصدر السابق، ص. 278.

3. ابن حوقل، المصدر السابق، ص. 96.

4. "الاستبصار"، ص. 216.

5. ابن حوقل، نفس المصدر، ص. 58.

إن اعتماد أود غشت على مادة الملح لجلب الذهب من غانة جعلها تحقق مستوى اقتصاديا لا مثيل له، هذا الازدهار الذي سوف يختفي باختفاء سيطرة ملوك أود غشت على مناجم الملح خاصة بعد أن أصبح منجم تانتال الواقع في الشرق أكثر استغلال من منجم أو ليل على سبيل المثال. هذا ما يؤكد DEVISSE قائلا أن أهم الأسباب التي أدت إلى تدهور اقتصاد أود غشت وزوال ثراء مدينتها، ظهور ملاحه تانتال⁽¹⁾. و ربما هذا ما دفع الإدريسي خلال القرن الثاني عشر، إلى أن يصفها على أنها " مدينة صغيرة في صحراء عامرها قليل، و ليس بها كبير تجارة ... " ⁽²⁾.

لكن مهما يكن من أمر هذه المدينة فلقد شكلت خلال القرن 10 و 11 للميلاد، إحدى بوابات ذهب غانة و محطة للقوافل القادمة من سجلماسة، والمتجهة نحو غانة و أوليل⁽³⁾. ليكون بذلك طريق أود غشت أوليل و غانة أود غشت هما الطريقان الرئيسيان اللذان أديا إلى ازدهار هذه المدينة وبروزها كإحدى المدن الصحراوية لمنطقة الساحل، يكون لتجارة معدن الذهب الفضل الأكبر في بروز هذه المدينة على المستوى الاقتصادي و الاجتماعي وربط العلاقات بين الشمال و الجنوب.

1. أنظر DEVISSE (J.), « Tegadaoust recherches sur Aoudagust, T.1, pp. 116-117.

2. الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، م.1، ص.19.

3. DEVISSE (J.), op.cit, p.112.

٥- غدامس :

تقع مدينة غدامس بين الحمادة الحمراء و العرق الشرقي الكبير و اعتبرت منذ التاريخ القلم إحدى أهم المحطات الصحراوية و من أشهر أسمائها سيداموس " Cydamus " أو كيدامي " Kedamé "، و تعود شهرتها إلى كونها بوابة السودان للتجار الذين يتوجهون إلى غانة. و تعتبر فترة القرن العاشر من أهم الفترات التي ازدهرت فيها التجارة مع بلاد السودان، خاصة عندما اتصلت بوابتها بالطريق الذي ربط طرابلس وشروش* و بلاد التكرور، وما زالت آثار هذه الطرق توضح أن غدامس كانت تربط فعلا الجزء الشرقي من المغرب ببلاد السودان. و من آثار ذلك الطريق الذي مازال يحمل إلى يومنا هذا اسم طريق السودان و الذي يربط بين شروش و غدامس^(١). و يذكر الحميري: "أنه من غدامس يدخل إلى بلاد تادمكة و غيرها من بلاد السودان"^(٢). و عن وصفها كمدينة جليلة، يقول البكري: "أنها مدينة لطيفة كثيرة النخل و المياه و أهلها بربر مسلمون [...]" تبعد عن جبل نفوسة بسبعة أيام و بين نفوسة و طرابلس ثلاثة أيام"^(٣)، أي أنها تبعد عن طرابلس بعشرة أيام. و تعمير مدينة غدامس يشير إليها صاحب كتاب الاستبصار قائلا: "أنها لم تكن صحراء وإنما كانت خصيبة عامرة"^(٤).

هذا ما يدل دلالة واضحة على أن المدن الصحراوية التي ذكرت في كتب الرحالة و المؤرخين و التي عرفت في فترة العصور تختلف تماما عن تلك المدن التي نراها اليوم في كل من العرق الشرقي الكبير أو العرق الغربي الكبير، و التي تؤكد أن تغييرا كبيرا قد طرأ على طبيعة الصحراء و إلا كيف يمكن أن نتصور مدينة مثل غدامس الواقعة في الصحراء في مثل هذا الازدهار، و اهتمام التجار بها حتى و لو أنها كانت تشكل بوابة السودان.

* شروش: تقع في الجزء الغربي لجبل نفوسة.

1. أنظر LEWICKI (T.), « Le rôle du Sahara ... », p.312.

2. الحميري، المصدر السابق، ص.427.

3. البكري، المصدر السابق، ص.182.

4. "الاستبصار"، ص 146.

لكن رغم قلة المعلومات التي تحصلت عليها، فأثما تكفي لأستتج أن
غدامس إحدى المحطات التجارية الصحراوية التي استفادت من ذهب السودان الذي لم
يحتكر من طرف مدن الغرب فقط.

ب. القصور

تعتبر دراسة القصور في المغرب الإسلامي من أهم الدراسات التي أصبحت تحظى بعناية كبرى من طرف المؤرخين و علماء الآثار بسبب ما لهذه القصور من دور في إبراز المعالم الحضارية التي عرفتھا المنطقة خلال العصور الوسطى. و مادامت تجارة الذهب قد أثرت على هذه المعالم، حاولت و لو بشكل وجيز إدراجھا ضمن هذه الرسالة. لدراسة نموذج أو نموذجين للتأكد من أنھا فعلا كانت وراء توسيع شكل البناء العمراني الذي عرفته صحراء المغرب، و التي أصبحت فيما بعد تحافظ على استمرارية هذه التجارة بتأمين طرقھا و تجارھا من كل المخاطر التي كانت تتعرض لھا القافلة أثناء رحلتھا التجارية.

تبدو قصور الشمال الأفريقي من خلال امتدادھا و تقارب المسافات بينها، و كأنھا شيدت لتقوم بدور المحطات، حيث تتمكن القافلة التجارية من الاستراحة و التزود بما تحتاجه من مؤن و ماء، زيادة على عرض ما لديها من بضائع لتسويقھا.

و امتداد هذه القصور يبدأ من شرق طرابلس، ثم جنوب غرب جبل نفوسة مرورا بفریان، يفرن، جادو ثم كابا و نالوث. أما شمالا فتبدأ من الجنوب التونسي مرورا بقصور تطاوين ومطماطة، لتتجه غربا نحو الجنوب الجزائري، أي بقصور وادی ريسغ، ورقلة ثم إلى الجنوب الغربي أي إلى توات، قورارة تيديكلت ثم غربا نحو بني ميزاب جبل عمور، و القصور إلى غاية أقاصي المغرب الأقصى⁽¹⁾.

1. حملاوي (علي)، "قصور مدينة جبل عمور - من القرن العاشر إلى الثالث عشر الهجري / 16-19 م"، دراسة تاريخية و أثرية، بحث لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية قسم الآثار، ص.37.

و تعرف القصور الصحراوية، أنها عبارة عن تكتلات سكنية متلاحة فيما بينها، تقطنها مجموعات بشرية، تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة، يحيط بها أحيانا أسوار مدعمة بأبراج، كما تمتاز بوجودها بالقرب من الأراضي الصالحة للزراعة و المجارى المائية، كما يمكن أن توجد فوق قمم الجبال، أو على سفوحها أو على هضاب صخرية (1).

ومن أمثلة هذه القصور التي لعبت دورا كبيرا في ازدهار تجارة ذهب السودان الغربي، قصور منطقة توات التي تقع على بعد ثلاثة عشر يوما جنوب سجلماسة، و التي كان يصل عددها إلى مائتي قصر في أقصى الشرق، في المنطقة التي تدعى غنطيط، هذه المنطقة لعبت قصورها طيلة فترة العصور الوسطى دور المحطة التجارية للقوافل المتجهة إلى السودان الغربي وسوقا لبضائعها (2). إضافة إلى منطقة القلعة*، التي شكلت قصورها واحات الصحراء الجزائرية. عرفت هذه المنطقة ازدهارا كبيرا بعد حفرها لعدد من الآبار الارتوازية حولت المنطقة إلى واحات نخيل خضراء، كما عرفت ازدهارا بسبب وقوعها بين العرق الشرقي الكبير و العرق الغربي الكبير المؤدى إلى ميزاب، توات و تيديكلت (3). يبدو أن هذه القلعة لعبت هي الأخرى دور المحطة التجارية التي كانت القوافل تستريح فيها قبل مواصلة سيرها باتجاه توات وميزاب.

إذا كانت هذه القصور قد شيدت لتستقر فيها التجمعات البشرية، لأسباب حربية أو اقتصادية عادية، فإن هناك من القصور ما ظهر بسبب وجود مادة الملح التي اعتبرت المعدن الأساسي الذي استبدل بالذهب. و من أمثلة ذلك قصر تاويلة الذي أشار إليه الأستاذ حملاوي : " أنه يقع على الطريق الذي كانت تجوبه القوافل التجارية القادمة من ورقلة إلى سرسو و التي من المحتمل أنها اتخذت من جبل الملح الواقع على مقربة من تاويلة مقلعا تزود منه بالملح الذي تسوقه إلى أدغال أفريقيا السوداء (4).

1. حملاوي (علي)، "قصور جبل عمور..."، ص. 57.

2. GAUDIO (A.), « Les Civilisations du Sahara », p.201.

* تقع على بعد 350 كلم جنوب غرب ورقلة، و 390 كلم شمال عين صالح.

3. El-Golée, In « E.I », Paris, 1927

4. حملاوي (علي)، نفسه، ص. 30.

إلا أن أهم ما يمكن الإشارة إليه تلك القصور التي شكلت مدينة ورقلة و سدراتة التي اعتبرت من اكبر المحطات التجارية التي عرفها المغرب الأوسط خلال العصور الوسطى و نقطة اتصال العديد من الطرق المؤدية إلى السودان الغربي . كما اعتبرت ورقلة من أكبر واحات الصحراء الجزائرية التي كانت تسقى بالآبار الارتوازية، و من أهم قصورها الشط و العجاجة. و وصل بها الازدهار و النمو إلى أن تعتبر عاصمة الصحراء من الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى غاية القرن السادس عشر (1).

و تعود أهمية ورقلة التجارية إلى موقعها الاستراتيجي بالنسبة لطريق ذهب غانة، حيث كانت القوافل المتجهة نحو السودان تخرج من ورقلة و سدراتة مرورا بالقلعة التي كانت تشكل محطة تستريح فيها القوافل، لتصل بعدها إلى توات ثم تتوجه إلى تادمكة و أخيرا جاو (2).

ومن أهم المناطق التي كانت تتصل بغانة مرورا بورقلة مدينة تاهرت التي ربطت علاقاتها بجاو، لأن الطريق عبر ورقلة تعتبر من اقصر الطرق المؤدية إلى السودان الغربي. إضافة إلى مدينة سجلماسة التي ربطتها هي الأخرى بها علاقات تجارية تعود إلى القرن الثامن للميلاد، و هذا من خلال ما ذكره لوفتسكي نقلا عن المؤرخ الاباضى الذي عاش خلال القرن الحادي عشر و هو أبو زكريا يحيى ابن أبي بكر الوردجاني في كتابه " السيرة و أخبار الأئمة ". فإذا كان طريق ورقلة - جاو قد جعل من هذه المدينة أهم مدينة تجارية في العصور الوسطى، فإن الطريق الذي ربطتها بغانة جعلتها تتصل بأهم مناجم ذهب السودان الغربي (3). حيث كان تجار ورقلة ينقلون إلى السودان التمر و يعودون بالذهب الذي ضربت منه عملتهم (4).

1. أنظر LETHIELLEUX (J.), « Ouargla - Cité saharienne des origines au XX^{ème} siècle- », Seprint, à Cergy, 1984, p.35.

2. أنظر BRIGOLE (M.R.), « Le pays de Ouargla », Paris, 1975, p.2.

3. أنظر LEWICKI (T.), « Etudes maghrébines... », pp.31 - 41.

4. أنظر ROMÉY (A.), « Histoire - Mémoire et société- exemple de N'Goussa : Oasis berbérophone du sahara », L'Harmattan, Awal, Paris-Alger, 1992, p.22.

فازدهرت بذلك مدينة ورقلة إلى درجة أن بعض المؤرخين أرادوا إرجاع تاريخ تأسيسها إلى عام 919 م، بسبب ما لهذا الذهب من فضل في تحصين مدينتها و الدفاع عنها و تنشيط زراعتها. و الكلام عن ورقلة و ازدهارها بسبب تجارة الذهب يقودني إلى ذكر عاصمتها سدراتة التي عاشت عام 281 هـ/ 894 م حملة قادها بنو الأغلب الذين أرادوا الاستحواذ على ذهبها⁽¹⁾.

في النهاية يمكن لي أن استنتج انه مهما يكن من أمر هذه القصور فان واقع وجودها في الصحراء يؤكد أنها ساهمت بشكل كبير جدا في توسيع شبكة الاتصالات التجارية بين الشرق و الغرب و بين الشمال و الجنوب، إضافة إلى أنها ساهمت في تدعيم تجارة الذهب التي عادت عليها بالنمو و الازدهار. حتى و لو أن معظم هذه المدن قد اندثرت إلا أن آثارها الباقية التي ما زالت الدراسات الأثرية تكشف عنها يوما بعد آخر، ما زالت شاهدة على تلك الحقبة التاريخية التي تطورت فيها قصور الصحراء في ظل ازدهار تجارة الذهب.

1. أنظر. LETHIELLEUX (J.), « Ouargla - Cité saharienne... », pp. 37 - 47.

الفصل الرابع

دور اليهود في تجارة الذهب

1. - الوجود اليهودي في المغرب و السودان

- أ. الوجود اليهودي في المغرب
- ب. الوجود اليهودي في السودان

2. - اليهود و الحياة الاقتصادية في المغرب

- أ. النشاط الاقتصادي اليهودي في المغرب
- ب. اليهود و تجارة الصحراء

3. - اليهود و تجارة الذهب

- أ. اهتمام اليهود بمعدن الذهب
- ب. اهتمام اليهود بتجارة الذهب

1. الوجود اليهودي في المغرب

* مرحلة ما قبل الفتح

يعود الوجود اليهودي في المغرب الإسلامي بجزوره إلى الماضي البعيد، حيث تعتبر الجماعات اليهودية أول التجمعات البشرية غير البربرية التي دخلت المغرب⁽¹⁾. و من أهم التواريخ التي تعود إليها الدراسات لتحديد بداية هذه الهجرات باتجاه المغرب، سنة 320 ق.م، التي ظهرت فيها جماعة يهود برقة. هذه الجماعة التي وجدت في استقرارها ببرقة ما مكنها من التكاثر و زيادة عددها في ظل حماسة البطلمة خاصة ما تمتعت به من استقلال قضائي، وفق شريعتهم اليهودية في الأحوال الشخصية كحرية ممارسة طقوسهم وإقامة المعابد و إرسال هبات مالية إلى هيكلهم المقدس في مدينة القدس⁽²⁾.

أما التاريخ الثاني، فيعود إلى سنة 70* للميلاد. هذا التاريخ، يعتبر مرحلة ثانية دعم خلالها اليهود وجودهم في المغرب، خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الصراع الحاد الذي نشب بين الرومان و اليهود، و الذي أنهاه القائد ماركوس توربو " Marcus Turbo " عام 118 م، حيث تسبب في تشتت يهود برقة، الذين توجهوا إلى كل من جبل نفوسة، طرابلس، مصر ثم بقية المغرب العربي⁽³⁾. إضافة إلى ما تعرضت له هذه الجماعات من اضطهاد** على يد تراجان، الأمر الذي دفعها إلى أن تحتل الصحراء الوسطى و صحراء موريطانيا و السينغال⁽⁴⁾.

1. ZEFRANI (Haim), « Mille ans de vie juive au Maroc », Paris, maisonneuve & Larose, 1983, p 11.

2. يعيو (مصطفى عبد الله)، "المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا"، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1974، ص 29.

* 70 م : هي السنة التي حطم فيها القائد الروماني تيتوس مدينة القدس.
3. MAUNY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale », in : B.I.F.A.N, T.XI, n° 3-4 juillet-octobre, p.359.

** تراجان : حدث ذلك خلال عام 115 م.
4. JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », T.1, p.87. أنظر :

غير أذ. ذلك لم يكن العامل الوحيد الذي سهل هجرة اليهود باتجاه المغرب، بل هناك عوامل أخرى ساهمت في ذلك منها: وجود العنصر السامي المتمثل في الفينيقيين في المنطقة و الذين عاملوهم معاملة حسنة. إضافة إلى خيارات المنطقة و موقعها الهام الذي يطل على بحر الروم و بحر الظلمات*⁽¹⁾. و يذكر الأستاذ مسعود كواقي أن العامل التجاري ووجود أقلية يهودية تعتبر من أهم الأسباب التي ساعدت اليهود على القدوم إلى المغرب⁽²⁾.

هذا ربما ما يوضح امتداد الوجود اليهودي في المغرب من برقة إلى غاية المغرب الأقصى. و من المظاهر التي تؤكد ذلك، بيعة سطيف التي تعود إلى القرن 3 للميلاد و بيعة تيبازة التي بنيت عام 347 م. ليرز هذا الوجود أكثر بعد غزو الوندال للمغرب عام 429 م، أين استفادوا من الحرية الدينية التي منحت لهم تحت حكم جيترييك. لكن هذا لن يدوم طويلا، فأتناء الحكم البيزنطي تقلص نشاطهم بعد تحديد حريتهم الدينية والاقتصادية، ما عدا في المناطق التي كانت بعيدة عن الحكم البيزنطي كمنطقة الجزائر الحالية⁽³⁾. و ما يجب ذكره هنا، هو منطقة توات التي عاشت نفس الهجرات بشكل متسلسل عبر التاريخ و التي جاءت من برقة خلال القرن الثاني للميلاد، بعد الاضطهاد الروماني السالف الذكر. و من العراق وشبه الجزيرة خلال القرن السادس والسابع وحتى من إسبانيا عام 613 م، خاصة الهجرات التي تمت بعد انعقاد مجلس طليطلة عام 75 هـ/694 م⁽⁴⁾.

* بحر الظلمات : بحر الظلمات : تسمية أطلقت على المحيط الأطلسي في العصور الوسطى.

1. أنظر : التميمي (عبد الملك خلف)، "الخليج العربي و المغرب العربي -دراسات في التاريخ السياسي و الاجتماعي والاقتصادي-"، ط.1، بيروت، دار الشباب للنشر، 1986، ص.231.

2. كواقي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين"، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1411-1412 هـ/1990-1991 م، ص.41.

3. أنظر : AYOUN (R.) ، « Les Juifs d'Algérie – Deux mille ans d'histoire- »،

AYOUN (Richard) et COHEN (Bernard), éd. RAHMA, 1994, pp.9-10.

4. أنظر : GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », Paris, éd. Scribe, 1992,

p.64

و هذا التمرکز اليهودي في شمال الجزائر و جنوبه، يؤكد فعلا على أن هجرة اليهود لم تختَر مستقرا واحدا لها، بل شملت كل المناطق دون استثناء. ليظهر هذا الوجود واضحا من خلال ما استتجته بعض الدراسات التي اهتمت بجذور بعض العائلات اليهودية بالجزائر ومناطق تنقلها. فعند الحديث مثلا عن يهود بوسعادة وجدت أن الجذور تعود إلى أصل إيبيري، مغربي، جريدي، سوفي، صحراوي، مزايي، وجزائري (العاصمة حاليا) و حتى تلي.

و إذا حاولت شرح بعض هذه الجذور و ذكرت على سبيل المثال الأصل المزايي، فإن الجماعات اليهودية قد استقرت في غرداية بمجرد تأسيسها، أي بعد طرد الاباضيين من سدراتة. و أن عائلة جاوي مثلا، الموجودة اليوم في بوسعادة تنحدر من عائلات يهود غرداية، وإن عائلة برتوش من أصل يهود تمنطيط⁽¹⁾.

أما بالنسبة لمنطقة المغرب الأقصى، فقد أشارت الدراسات إلى فترة القرن الرابع ق.م. خاصة عندما يتعلق الأمر بمستوطنة يهود سلا التي تعتبر نتاجا للهجرات التي عاشتها الجماعات اليهودية نحو المغرب بعد تحطيم هيكل سليمان. لتشمل بعد ذلك كل منطقة الأطلس. وكانت منطقة جنوب المغرب الأقصى أنسب منطقة للجماعات اليهودية الأولى، التي مارست حرفة الزراعة و عملت على تهويد البربر. مما أدى إلى ميلاد عائلات ما زالت الأسماء التي تحملها دليلا على وجود هذه العناصر في المنطقة. و من الأمثلة التي يمكن ذكرها، عائلة أيت بن داود، أيت يعقوب وأولاد موسى⁽²⁾.

-
1. أنظر : NACIB (Y.), « Cultures oasiennes de Bou-Sâada », Belgique, Essai d'histoire sociale, Publi-sud, 1986, pp 204 et 205.
 2. أنظر : GOLDENBERG (A.), op.cit, p.53.

و يستمر هذا الوجود إلى غاية ميلاد الممالك اليهودية بعد القرن الثاني للميلاد⁽¹⁾، كمملكة إفران التي تعتبر أقدم مملكة عرفها المغرب الأقصى⁽²⁾. ثم مملكة زقورة، تافيلالت، تلوات و تمقروت. و من هنا بدأت، هذه الجماعات في ربط علاقاتها بيهود إسبانيا* الذين عرفوا بحركتهم التجارية المكثفة عبر العالم⁽³⁾.

• مرحلة ما بعد الفتح :

تعتبر مرحلة ما بعد الفتح الإسلامي للمغرب مرحلة هامة في تاريخ الوجود اليهودي في هذه المنطقة. و هذا بمجيء جماعات يهودية من شبه الجزيرة العربية مع القبائل العربية المهاجرة و أخرى من مصر، و التي اتخذت من المدن الساحلية مستقرا لها، لتنتشر بعد ذلك في المدن الداخلية⁽⁴⁾.

و في سنة 77 هـ/ 669 م، بعد تأسيس عقبة للقيروان، حُلب إليها ألف عائلة من اليهود والأقباط المصريين لتصبح بعد ذلك عاصمة اليهود في المغرب العربي⁽⁵⁾. هذه الجماعات اليهودية التي انتقلت إلى المغرب برفقة العرب الفاتحين سوف تدعم ذلك الوجود اليهودي الذي سبقها، و الذي يعود كما سبق ذكره إلى فترة الفينيقيين، أيام هيمنتهم على الضفة الجنوبية لبحر الروم. حيث كانت صيدا و صور مراكز انطلاق هذه الهجرات⁽⁶⁾. استطاعت نفس الدراسة إن تحصي عدد اليهود قبل الفتوحات الإسلامية و مقارنته بعدد السكان الأصليين،

1. أنظر : GOLDENBERG (A.), op.cit, p.53.

2. أنظر : MEUNIE (J.), « Le Maroc Saharien – des origines à 1670 », Librairie Klincksieck, p.60.

* معظم هذه الجماعات لا تنحدر من كنعان و إنما من القفقاس ، أي أنهم أوثق انتماء إلى قبائل الهون و الجر منهم إلى ذرية إبراهيم و إسحاق و يعقوب.

3. أنظر : GOLDENBERG (A.), op.cit, p. 53.

4. التميمي (عبد الملك حلف)، " الخليج العربي و المغرب العربي .."، ص.231.

5. Encyclopédie coloniale : Les Juifs esquises depuis les origines jusqu'à nos jours, T.II, p.148.

6. فارح (فيليب)، " المسيحيون و اليهود في التاريخ الإسلامي العربي و التركي"، (ت : بشير السباعي، يوسف كرباح)، ط.1، سينا للنشر، 1994، ص ص. 58-68.

و العناصر الأخرى، فقد رُفِعَ بعشرين ألف يهودي خلافا للمسيحيين الذين قُدرُوا بمليون ونصف مليون نسمة لتقدر هذه النسبة في العهد البيزنطي بـ 2 % من مجموع السكان. و لم ترتفع هذه النسبة كثيرا بعد الفتح الإسلامي للمنطقة⁽¹⁾. هذا ما يدفعني للاستنتاج أن هذه الهجرات لم تكن بالأعداد الهائلة التي تستدعي الغرابة والاهتمام الكبيرين . غير أن تسجيل هذه الهجرات كانت حدثا مؤكدا بدون أدنى شك في ذلك.

و إذا كانت الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا قد وسعت إمبراطورية المسلمين التي امتدت من الصين إلى بحر الظلمات، فيمكن اعتبارها أيضا بمثابة الفرصة السانحة لتلك الجماعات اليهودية المشتتة عبر العالم لكي تعيد بناء روابط الصلة بينها خاصة تلك التي كانت في المغرب العربي و إسبانيا. و يؤكد ذلك أندري شوراكوي "CHOURAQUI" قائلا : " هذه الفتوحات كانت بمثابة نسمة جديدة استنشقتها يهود طليطلة و الأندلس". و يشير قولدنبيرق "GOLDENBERG" إلى ذلك قائلا : " قرر مسيحيو إسبانيا طرد كل اليهود الذين أقاموا بالعمل من أجل تحويل شبه جزيرة إيبيريا إلى دولة يهودية، خاصة بعد أن ثبتت اتصالاتهم القوية مع يهود المغرب"⁽²⁾.

و ربما هذا ما دفع بالأستاذ كواقي إلى القول : " أن التنظيم الجديد الذي حظيت به ولاية إفريقيا قد جلب اليهود إليها"⁽³⁾. إضافة إلى أن الدولة الإسلامية كانت أكثر الأمم تسامحا مع اليهود و النصارى و أن حركتها قد اتسعت أكثر بسبب الاتصال التجاري و الحربي والعلمي المكثف⁽⁴⁾، لتصبح هذه الجماعات بعد توسع الإمبراطورية الإسلامية أكثر تنظيما

1. فارغ (فيليب)، نفس المرجع، 58-68.

2. CHOURAQUI (A.), « Marche vers l'occident – Les Juifs d'Afrique du nord- », France, 1952, p.58.

3. كواقي (مسعود)، " اليهود في المغرب الإسلامي ..."، ص. 88.

4. أمين (أحمد)، "ظهر الإسلام"، ج. 1، ط. 2، بيروت، دار الكتاب العربي، ص. 81.

ووحدة. فخلال القرن العاشر مثلاً، أصبحت بعض الجماعات اليهودية بسبب كثرتها وتنظيم اتصالاتها بالجماعات اليهودية الأخرى تشكل أمة، كيهود توات التي كانت تأوي رهبان و علماء يهود، إضافة إلى مدرسة لتعليم العبرية. لتصبح بعد ذلك تخطيط عاصمة من عواصم اليهود، يتوجهون إليها و يتلقون فيها مبادئ حياتهم و شعائر دينهم⁽¹⁾.

و سمح ظهور هذا التنظيم بين أوساط اليهود المستقرين في الجزائر، بميلاد منظمة تدعى "جماعة اليهود" خلال القرن العاشر للميلاد، هذه المنظمة التي عززت فيما بعد روابط الصلة بين يهود مدينة الجزائر و يهود كل من بجاية و تلمسان خلال القرن الحادي عشر⁽²⁾. و يبدو هذا جلياً في مدينة فاس التي اعتبرت أهم مركز لليهود منذ تأسيسها و أكثر بلاد المغرب التي تركز بها اليهود⁽³⁾، واقع أكده ابن أبي زرع في قوله : " لما فرغ إدريس من بناء المدينة أي فاس اجتمع بها خلق كثير من اليهود ممن رغب في العافية فأنزلهم بناحية اعلان إلى باب حصن سعدون "⁽⁴⁾.

و بما أن الباحث في تاريخ المغرب الإسلامي يجد نفسه دوماً أمام فسيفساء من الأنظمة أثناء دراسة أوضاعه السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، فهذا يدفعني إلى البحث عن الوضع الذي عاشته هذه الجماعات اليهودية تحت ظل هذه الأنظمة و لو بشكل مختصر. تعتبر فترة حكم الخوارج من أهم الفترات التي ينبغي الإشارة إليها، و يعود ذلك لما لشخصية طريف* اليهودية من اثر في المنطقة و الذي أدى إلى تأسيس دولة خارجية عام 124 هـ/741-742 م تسمى دولة برغواطة**.

1. أنظر : OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat – du 1^{er} siècle à 1492 » Paris, 1990, p. 40.

2. أنظر : AYOUN (R.), « Les Juifs d'Algérie », Ed. du Scribe, p.50.

3. احمد موسى (عز الدين)، "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي..."، ص.106.

4. ابن أبي زرع "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و مدينة فأس"، بدون سنة و دار الطبع، ص.24.

* هو طريف ولد شمعون بن يعقوب بن اسحاق.

** برغواطة، تقع في إقليم تاهسنا الواقع بين مدينتي سلا و أزموور، على ساحل المحيط الأطلسي. أنظر كذلك :

— كواقي (مسعود)، " اليهود في المغرب الإسلامي "، ص.90.

هذه الدولة التي ادعى فيها صالح* بن طريف النبوة، استطاعت استمالة العديد من القبائل البربرية، بسبب المعاملة القاسية التي تلقتها من الولاة العرب، والتي دفعتها إلى اعتناق المذاهب الخارجية و القيام بعدة ثورات للإطاحة بمؤلاء الولاة. لكن دولة برغواطة لم تكن الوحيدة التي استقطبت العناصر اليهودية، بل كان لها استقرار آخر في عواصم التجمعات السياسية الخارجية الأخرى، كناهرت، تلمسان، سجلماسة بالإضافة إلى المراكز الإباضية كجبل نفوسة، منطقة الجريد ثم قابس ووحدات ورقلة و ميزاب⁽¹⁾.

و لقد حاول الأستاذ كواي مسعود في غياب المصادر التاريخية الثابتة، استبعاد الطابع اليهودي الذي اكتسبه هذه الدولة، إضافة إلى أن قوتها تعود إلى انقسام المغرب إلى دويلات، بينما أرجعها البعض الآخر إلى نفوذ هذه الدولة خاصة أيام حكم الملك يونس الذي استطاع أن يخضع لسيطرته 387 قبيلة بقوة السيف و محاربة كل مرتد عنه⁽²⁾.

كما أوت القيروان في فترة حكم الأغالبة العديد من الجماعات اليهودية. و أهم ما يمكن الإشارة إليه عمل عبد الله بن أحمد بن طالب الذي اتخذ إجراءات صارمة** ضد اليهود⁽³⁾. لكن من خلال فترة الحكم الإدريسي تأكد لي أن المغرب الأقصى كان فعلاً ملجأ للعديد من الجماعات اليهودية التي جاءت من المشرق بعد عام 70 م أو التي جاءت من الأندلس بعد طردهم منها، كما سبق ذكره.

* كان رجلاً خبيثاً يهودي الأصل من شمعون بن يعقوب، نشأ برنات من بلاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق فقرأ على عبد الله المعتزل القدري و اشتغل بالسحر، وفتح المغرب فزل بلاد تامسنا، ووجد بها قبائل من البربر جهالاً، فأظهر لهم الإسلام و الزهد واستمالهم بسحره و لسانه. أنظر ابن أبي زرع الأنيس المطرب، ص 83.

1. أنظر CHOURAQUI (A.), « Histoire des Juifs en Afrique du Nord –en exil au Maghreb-», éd. Du Rocher, Monaco, France, 1998. p.111.

2. أنظر GHALI (B.M.), « Le Monde arabe et les Juifs », éd. Cujas, 1972. p.86.

** جعل على أكتاف اليهود و النصارى رقاعاً بيضاء، في كل رقعة صورة قرد و خنزير و على أبواب دورهم ألواحاً مسمرة في الأبواب مصور فيها قردة.

3. كواي مسعود، نفس المرجع، ص. 97.

بعد أن أسس إدريس الأول أسرة الأدارسة عام 172 هـ / 788 م، حارب جماعات اليهود* التي كانت في المغرب لإرغامها على اعتناق الإسلام. لكن هذه الأخيرة لم تتأثر بهذه السياسة حيث راحت تعزز روابط الصلة بينها وبين يهود إسبانيا من أجل مواجهة تحدي قوة المسلمين. ذلك ما يبدو بوضوح بعد تأسيس إدريس الثاني لمدينة فاس عام 193 هـ / 808 م. استقطبت هذه المدينة يهود سيفرو، مقابل دفع جزية قدرها ثلاثين ألف دينار ذهبي. و أهم منطقة استقروا فيها "فندق اليهود" ** إضافة إلى منطقة القيروانيين والأندلسيين. لتأتي أفواج أخرى من يهود مصر و بلاد فارس و قرطبة⁽¹⁾، و الذين قدر عددهم بالتقريب بخمسة و أربعين ألفا⁽²⁾. و تعتبر هذه الفترة فترة الازدهار الثقافي للجماعات اليهودية خاصة تلك التي وجدت في فاس، لتليها عناصر يهود سبتة، مكناس، سجلماسة، اغمات و وادي درعة و توات.

و لقد كان لهذا الازدهار الديني و الثقافي الذي عاشته الجماعات اليهودية المغربية أثر على ازدهار و نمو هذه العناصر في إسبانيا، لتعكس شخصية حسداي بن شبروط هذا الوضع في بلاط عبد الرحمن الثالث عام 300 هـ / 912م و ذلك عندما عينه وزيرا في دولته. لتظهر شخصية شلوم بن يهودا اليهودي الفاسي الذي برز في بابل عام 480 هـ / 1087 م⁽³⁾. و بعد مجيء الفاطميين وجد اليهود ضالتهم خاصة بعد تأسيس المهديسة، التي أصبحت بعد تطورها مركزا للجماعات اليهودية المهنيّة. وهذا يعود إلى أهمية موانئ المهديّة التي اشتهرت في تلك الفترة. دون التقليل من أهمية الجماعات التي بقيت في القيروان⁽⁴⁾.

* الجماعات اليهودية : من المحتمل أن تكون من قبائل زناتة التي اعتنقت اليهودية في تاريخ يصعب تحديده، أنظر عبد الكريم عزاز، تاريخ المغرب العربي، ص. 155.

** فندق اليهود : أو ما يسمى بمخطط حارة فندق اليهود - أو حارة العالية بفاس.

1. أنظر : GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p.62.

2. أنظر : CHOURAQUI (A.), « Histoire des Juifs ... », p.111.

3. أنظر : GOLDENBERG (A.), Op.cit, p.62.

4. أنظر : CHOURAQUI (A.), Op.cit, p.113.

و مما رفع شأنهم أيام الحكم الفاطمي، توليهم العمل في الديوان، مثل أبو سعيد التستري في عهد الخليفة المستنصر و أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى الذي تولى الوزارة. و زادت هذه المناصب من شأن اليهود إلى درجة التحكم في شؤون القصر⁽¹⁾. خاصة بعد أن مارسوا مهنة اطب داخل القصر، كإسحاق الإسرائيلي الذي كان طبيبا لعييد الله المهدي و إسحاق بن سليمان الذي كان طبيبا للمنصور و موسى بن العازار طبيب المعز لدين الله⁽²⁾. و بعد ظهور فكرة نقل القاعدة الفاطمية إلى مصر، برزت شخصية يعقوب بن كليس* الذي اقترح فكرة غزو مصر على المعز، و هي الفكرة التي نجحت بعد ثلاث محاولات فاشلة⁽³⁾، فالأولى كانت عام 301 هـ/913 م والثانية كانت 307 هـ/919 م و الثالثة 321 هـ/933 م⁽⁴⁾. لتوكل مهام تحضير الغزو ليهودي آخر يدعى جوهر الصقلي الذي استطاع أن ينفذ الخطط الحربية بإحكام بالموازاة مع الضعف الاقتصادي الذي كانت تتخبط فيه مصر⁽⁵⁾.

لكن وضعهم أيام دولة المرابطين سوف يختلف تماما نظرا لما حققته هذه الدولة ذات الطابع الديني المتعصب من توسع على حساب العديد من المراكز التي استقر بها اليهود بشكل مكثف، كمنطقة درعة و سوس⁽⁶⁾.

1. كواتي (مسعود)، "يهود المغرب الإسلامي .."، ص.101.

2. جودت (عبد الكريم يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الأوسط ..."، ص.302.

* كان يهوديا من أهل بغداد، حبيبا ذا مكر و له حيل و دهاء و فيه فطنة و دهاء، نزل مصر أيام الإخشيدى فرأى منه فطنة و سياسة و معرفة بأمر الصنائع فقال : "لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيرا ! فطمع في الوزارة فأسلم ثم هرب إلى المغرب و اتصل بيهود كانوا مع المعز. و خرج معه إلى مصر.... و تولى الوزارة لدى العزيز نزار بن المعز، و عظمت منزلته عنده. و كان يأخذ من العزيز في كل سنة مائة ألف دينار". أنظر كذلك : أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج.1، ط.5، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، (بدون سنة الطبع)، ص 81.

3. أنظر : GHALI (I.A.), « Le Monde arabe et les Juifs », p.88.

4. كواتي (مسعود)، نفس المرجع، ص.102.

5. GHALI (I.A.), op-cit, p.88.

6. GOLDENBERG, « Les Juifs du Maroc », p.62.

و أهم ما يمكن ذكره أنه بعد تأسيس يوسف ابن تاشفين لمدينة مراكش عام 454 هـ/1062 م، منعت على اليهود الذين استقروا في أغمات و أورريكة⁽¹⁾. لم يتوقف يوسف ابن تاشفين عن منع اليهود من الاستقرار في مراكش، بل راح يفرض عليهم ضريبة ثقيلة عام 464 هـ/1071 م. و يقول في ذلك ابن عذارى المراكشي : " و في سنة أربع و ستين وأربعمائة، افترض يوسف ابن تاشفين على اليهود فريضة ثقيلة في جميع طاعته اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية و نيف على ثلاثة عشر ألف دينار⁽²⁾. لتختفي بذلك العديد من هذه العناصر، هروبا من السياسة التي طبقها المرابطون في كل من مكناس، سبتة و سوس. و ما يمكن استنتاجه هو أن الانقسام المذهبي والسياسي الذي عاشه المغرب الإسلامي بعد نجاح الفتوحات الإسلامية ساهم بشكل كبير في توسيع نفوذ الجماعات اليهودية و خدمة مصالحها الاقتصادية و الدينية.

و قبل طي صفحات هذا الموضوع، تجدر الإشارة إلى فكرة لا تقل أهمية عن الموضوع الذي سبق التطرق إليه، و تتمثل في تهويد القبائل البربرية، حيث ما زالت العديد من الدراسات التاريخية تحاول الفصل في هذا الموضوع من أجل قطع السبيل أمام تلك المحاولات اليهودية التي تهدف من خلال أبحاثها في هذا الموضوع إثبات الوجود التاريخي لليهود في المنطقة.

1. أنظر : p.62، « Les Juifs du Maroc ... »، GOLDENBERG.

2. ابن عذارى (المراكشي)، "البيان المغرب ..."، ج.4، ص.23.

من خلال ما سبق ذكره أستخلص أن الجماعات اليهودية التي دخلت إلى المغرب لم تكن في مستوى الأعداد التي تشكل ممالك كبرى، كالتى شهدتها العصور الوسطى أو القديمة. وهذا انطلاقاً مما هو معروف في تاريخ هذه الجماعات اليهودية. فما عدا مملكة داود و سليمان عليهما السلام، لم تكن جل ممالكهم تتجاوز الواحدة منها المدينة أو القرية و ضواحيها، خاصة وأنهم يطلقون على شيخ القبيلة لقب الملك⁽¹⁾. وهذا ما ينطبق فعلاً على ممالك ترعة، إفران وتوات. أما فيما يخص مسألة تهويد برغواطة، يمكن الاحتفاظ برأي الأستاذ مسعود كواقي الذي يقول، نقلاً عن شلوش: " أن هذه الدولة إسلامية في شكلها، بربرية في طقوسها و عاداتها، ويهودية في أساسها و اتجاهاتها"⁽²⁾. فإذا كان صالح ابن طريف يهودي الأصل وليس مغربياً، يمكن البحث عن الأسباب التي دفعته إلى أن يجمع البربر تحت لواء الإسلام في ظل توجهه اليهودي. حيث أكد التاريخ أنه نظراً لشعور اليهود بالنقص والتشرد و الحرمان، فقد تحولوا إلى عناصر شغب و تخريب في كل البلاد التي حلّوا بها. و أنهم كانوا وراء معظم الحركات السرية والفئات المذهبية التي شذت عن الإسلام⁽³⁾. و بالتالي لما لا تكون دولة برغواطة مثالا حيا لمثل هذه التصرفات ؟

أما الاستنتاج الثالث، فيتعلق بقضية عدد اليهود الذين وجدوا في المغرب. فما دامت هناك طائفة من اليهود اندمجوا مع المغاربة و تحدثوا البربرية و العربية، فإن هذا لا يعني مغربيتهم على نطاق بربري و عربي، إنما هناك من المغاربة من تهودوا. و هنا يمكن الإشارة إلى عاملين أساسيين لعبا دورا تاريخيا في ذلك :

-
1. شريب (سبيريدوفيتش)، " حكومة العالم الخفية"، (ت: مأمون سعيد)، الجزائر، قصر الكتب، مطبعة اللغتين، ص.16.
 2. كواقي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص.90.
 3. شريب (سبيريدوفيتش)، نفس المرجع، ص.19.

فالأول يتمثل في طبيعة الدين اليهودي الذي أصبح ديناً مغلقاً بعد ظهور التلمود، بعد القرن الخامس ق.م⁽¹⁾. للقول أن عملية التهويد التي حدثت في المغرب توقفت بعد القرن 5 م، عملاً بقولهم أن اليهودية دين مغلق في وجه كل من يريد الانضمام إليه. و المبادئ التي تحكم سلوك اليهود سرية لا يجوز إطلاع غير اليهود عليها⁽²⁾. فكيف يمكن و الحال كذلك ، التسليم بعمليات التهويد التي أشارت إليها العديد من الدراسات اليهودية، كتلك التي أشار إليها بواتييه "Poitier" حينما يتطرق إلى منطقة قورارة التي يعود اسمها إلى قوراري، الرجل اليهودي الديني الذي عرف كيف يدخل جماعة من مسلمي قورارة في اليهودية، بعد قتلهم في أداء فرائض الدين الإسلامي على الوجه الأصح⁽³⁾. و العملية التي أشار إليها "Lewicki"، و التي انطلقت خلال القرن الثاني للميلاد بعد انتشار يهود برقة في الصحراء الكبرى و موريتانيا، و التي انتشرت فيما بعد، في كل من قورارة و توات، و يستدل قوله بوجود بيعتين في هذه المنطقة، الأولى بنيت عام 517 م و الثانية 107 هـ/725 م⁽⁴⁾.

و العامل الثاني يتمثل في الإسلام و مدى انتشاره في المغرب حيث أثبتت بعض الدراسات أن العديد من العناصر اليهودية اعتنقت الإسلام و اندججت في المجتمع المغربي. ومن الأمثلة التي يمكن الإشارة إليها، يهود توقرت الذين لقبوا بالمجاهرية أو المهاجرة أو ولاد جاري إضافة إلى جماعات أخرى في كل من تاغيت و بني عباس⁽⁴⁾ لتبقى قضية يهود المغرب دراسة تتطلب الدقة في البحث و العناية الكبرى نظراً لأهمية هذه العناصر والدور الذي لعبته في تاريخ المنطقة إيجاباً أو سلباً بعد أن وطأت أقدامها أرض المغرب.

1. غراس (عبد الكريم)، "تاريخ المغرب العربي"، ص. 155.

2. شريب (سيرويدوفيتش): نفسه، ص. 19.

3. POITIER (R.), « Histoire du Sahara... », pp. 65-66.

4. LEWICKI (T.), « Le Rôle du Sahara... », p.329.

5. POITIER (R.), op-cit, pp. 66 - 65.

ب. الوجود اليهودي في السودان

انطلاقاً من أهمية معدن الذهب في التجمعات اليهودية، أصبح من الضروري البحث عن تلك الدلائل التي من شأنها أن تؤكد على وجود رباط وثيق بين هذا المعدن و الأرض المنتجة له. فرغم كل الصعوبات التي واجهت تقريباً جل الدارسين للموضوع، أصبح من المستحيل التسليم بواقع احتكار اليهود لمعدن الذهب و تجارتها، دون التسليم بأمر معرفة منبعه أو الاتصال بمن لعبوا فيه دور الوسيط من بني جلدتهم. و الحديث عن أرض السودان و اتصال اليهود بها والاستقرار فيها أصبح أمراً طبعياً بعد ظهور العديد من الدراسات التاريخية اليهودية و غيرها، و التي أزال الغموض عن هذه الفكرة، التي كانت شبه أسطورة في الماضي.

و من بين هذه الدراسات، تلك التي أشارت إلى أن سنة 370 ق.م هي السنة التي بدأ فيها اليهود الساميون هجرتهم إلى فلسطين تحت قيادة موسى عليه السلام⁽¹⁾. و أهمية هذا التاريخ لا يعود إلى هذه الحادثة فحسب، بل إلى أن التجمعات اليهودية الأخرى التي بقيت ولم تهجر مع موسى عليه السلام، بدأت هجرتها باتجاه الغرب صوب برقة، ثم جنوباً نحو أعماق إفريقيا. و يبدوا أن الجماعة التي بقيت في مصر، تنقلت على طول النيل باتجاه إثيوبيا، و يعتمد رأي موني في ذلك على بقايا يهود الفلاشا في إثيوبيا إلى حد اليوم. أما مع سليمان عليه السلام أصبح اليهود نوعاً ما تجاراً، و كانت سفنهم تنطلق من ميناء العقبة إلى بلاد سبأ و تسير باتجاه عدن⁽²⁾.

1. انظر : DELAFOSSE (Maurice), « Histoire de l'Afrique occidentale française.. », p.43.

2. انظر : MAUNY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale », T.XI, n° 3-4, juillet-octobre 1949. p.358.

هذا الاتصال اليهودي بالسواحل الإفريقية من خلال البحر الأحمر مكنهم من الاستقرار في هذه الأراضي بشكل لا يثير أدنى شك. و الملاحظ في هذه المسألة أن جل الدراسات، احتاطت من أمر تواجد اليهود غرب إفريقيا، و لم تسلم بشكل بسيط بالرأي الذي يتول أن هذه الجماعات اليهودية التي دخلت إفريقيا كانت مصدر ظهور شعوب البول "Peuls" في السودان الغربي دون تقديم أي مبرر لذلك، و اكتفت بقول أن هذه الجاليات اليهودية التي فرت من بطش الرومان دخلت السودان الغربي عبر هجرات متتالية، لتختلط مع شعوبه⁽¹⁾.

و للذين يعتقدون أن العبريين ينتمون إلى جماعات الهكسوس، فيقولون أنها أتت من آسيا و استولت على مصر عام 2300 ق.م، و في عام 1700 ق.م، أي ستة قرون من بعد، طردها المصريون و اختارت الانتشار في صحراء ليبيا و السودان الغربي، هذا و إن افترضنا أنه لا يوجد اختلاف بين هكسوس الروايات المصرية و العبريين المذكورين في الإنجيل⁽²⁾.

و لا تفوتني فرصة المقارنة فيما سبق بين قول كل من "Delafosse" و "Mauny" حول مظهر هذا التواجد اليهودي غرب إفريقيا لتصبح حقيقة وجودهم واختلاطهم مع تلك الشعوب أمر لا يريه أدنى شك. و يذكر "DELAFOSSSE" : " أن هؤلاء الساميين انتشروا وسط شعوب السودان بشكل مسالم"⁽³⁾، أما "MAUNY" فيقول : " أن اليهود اختاروا الاختلاط والاندماج وسط هذه الشعوب، دون تحولهم إلى عبيد"⁽⁴⁾. هذا ما يدفعني إلى الاعتقاد أن الجاليات اليهودية التي هاجرت إلى إفريقيا لم تجد أمامها سوى الاستسلام لقدرها و قبول الاستقرار في هذه المنطقة من أجل الحفاظ على بقايا جماعاتها التي عانت، من ويلات البطش والهجرة في مختلف مراحل تنقلها من آسيا إلى مصر ثم فلسطين ثم المغرب و إفريقيا السوداء.

و من جهة أخرى يمكن لي أن أدرج موضوع الذهب الذي يكون قد استقطب أنظار هذه الجماعات اليهودية التي اختارت التوجه إلى إفريقيا دون البقاء في مصر أو الهجرة مع موسى عليه السلام إلى فلسطين. و إلا كيف يمكن لي تفسير استقرار اليهود في مختلف المراكز الصحراوية التي عرفت ازدهارا في تجارة الذهب عبر الصحراء، كواحات فران و الصحراء الوسطى

* حدث هذا عام 115 م في مدينة برقة، بليبيا في عهد الامبراطور الروماني تراجان.

1. أنظر: MAUNY (R.), « Le judaïsme, les Juifs et l'Afrique ... », P 359.

2. أنظر : DELAFOSSSE (M.), « Histoire de l'Afrique ... », P.43.

3. Ibidem

4. أنظر : MAUNY (R.), op.cit, p.359.

و بلاد شنقيط و السنغال ⁽¹⁾، و على الخصوص منطقة توات و منطقة وادي الساوره ⁽²⁾ وودان* ⁽³⁾ إضافة إلى مناطق أخرى سأحاول إدراجها ضمن انتشار هذه الجماعات و امتهاها لحرفة التجارة الصحراوية. وبين هذا و ذاك، فالأمر واحد و هو أن اليهود استقروا في السودان و ساهموا في بناء حضارته، بالرغم من اختلاف الآراء و تضاربها، لتكون لهم يد في ظهور أجداد البول " Peuls " الأولين، و تأسيس مدينة غانة خلال سنة 300 م. في هذا الصدد يقول موني " R. Mauny " نقلا عن الفتاش : " أن بني إسرائيل شعب عاش في منطقة النيجر إلى غاية القرن 15م، أو ما أشير إليه في روض القرطاس إلى قبائل سوداء بالقرب من تكلسين **⁽⁴⁾ يهودية الديانة " ⁽⁵⁾.

وهذه الجماعات اليهودية التي اختارت الاستقرار في السودان الغربي ، كانت تتشكل من الرعاة و الحرفيين، و إن كانت جذورها كما - ذكرت الروايات الأولى - تمتد إلى الجماعات التي استقرت في مصر، فتكون قد حملت معها حضارة أكثر تقدما. و هذا بسبب احتكاكهم بأقدم الحضارات و أكثرها تقدما، و هي حضارة الفراعنة. ليكون تأثيرهم في المنطقة بارزا من خلال ما نقلوه من نشاطات تركوا بصماتهم فيها و من أبرزها نقلهم لحرفة تربية الأغنام و إدخالهم للثيران ذات السنام و الأغنام فضلا عن إدخالهم لفنيات زراعة البقول في السبخات. كما ساهموا في إستحداث فن معماري جميل، مع حفر الآبار و بنائها خاصة ما عرف بالآبار ذات الجدران الزجاجية***⁽⁵⁾.

كثيرا ما وردت فكرة الآبار و ربطتها بالعناصر اليهودية، و إشارة كيوك إلى ذلك يزيد من أهمية هذا الموضوع، خاصة إذا ما حاولت التركيز عليه و ربطه بتواجد هذه الجاليات بكثرة في المناطق الصحراوية، و لما لا السودان الغربي، و يقول في ذلك كيوك نقلا عن تاريخ

-
1. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », p.87.
 2. أنظر : HUGOT (H.J.), « Le Sahara avant le désert », édition des Hehépérides, 1974, p.22. و دان : تأسست عام 1147 م/ 542 للهجرة على يد الحاج علي، كان فيها حي لليهود بالقرب من المسجد.
 3. أنظر : GAUDIO (A.), « Le dossier de la Mauritanie », p.91.
 - ** تكلسين : يعتقد أن تكون في موريطانيا الحالية.
 - *** الآبار الزجاجية : استخدموا فيها المواد التي بعد ذوبانها و تبريدها تتحول إلى مادة تشبه الزجاج. أنظر : MAUNY (R.), « Tableau géographique ... », p.459.
 4. ابن أبي زرع، "الأنيس المطرب"، ص.24.
 5. أنظر : DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique occidentale », p.44.

استوطنوا منطقة تاندرمة "Tenderma" بالقرب من قوندام "Goundam" و كلفوا بحفر آبار عديدة، وأعتقد أن هذه الرواية تؤكد ما ذكر على أن الاهتمام بالري و فن تصريفه في الصحراء يعود إلى عبقرية اليهود فيه بعد امتهائهم لحرفة البناء (1).

أثناء دراستي لمسألة الوجود اليهودي في السودان الغربي استوففتني مسألة يهود قمنوريا، التي أشار إليها موني Mauny في تحليله أن سكان قمنوريا* ليسوا يهود، لكن وثنيين ادعوا فقط اليهودية لكي لا يحولهم المسلمون إلى عبيد عكس الإدريسي الذي أشار إلى أنهم يهود وديانتهم مزيج لعدة تصرفات (2). لا أدري ما هي الأسباب التي دفعت موني إلى رفض رواية الإدريسي و التي أراها الأقرب إلى الواقع لأن المزج بين الوثنية و اليهودية أو الوثنية و الإسلام لا يمكن اعتبارها قاعدة لإثبات الرأي القائل أنهم يهود أو العكس، هذا ما رددته الروايات التي كتبت عن تاريخ إفريقيا، خاصة ابن بطوطة الذي أشار إلى هذا الأمر عندما زار مدينة مالي، و التي استنتجت منها أن سكانها مسلمون لكنهم يحتفظون بعادات الوثنية (3) ر من الأسباب التي تدفعني إلى تقبل رواية الإدريسي :

- أولا : أن الخلط بين الديانات ليس بالأمر الغريب في أوساط القبائل الإفريقية،
- ثانيا : ان الموقع الجغرافي الذي حددت فيه منطقة قمنوريا و هو جنوب موريطانيا الحالية كان موطناً لعدة جماعات من اليهود (4).
- ثالثا : إذا كانت خلاصة موني صحيحة و هي أن سكان قمنوريا من غانة و من أصل جماعة السونينك الذين اعتنقوا الإسلام على أسس غير صحيحة، فإنه يمكن الاعتقاد أنهم كانوا يهودا قبل انتشار الإسلام إلى كل من إفريقيا و السنغال. هذا ما أكدده CUOQ أن سكان قمنوريا من اليهود، معتبرا رواية الإدريسي تأييدا ذلك (5).

1. انظر : CUOQ (J.M.), « Recueils des sources arabes du XIII^e au XVI^e Bilad-Al-Sudan », Inst. de rech. d'hist. des textes arabes. CNRS, Paris, 1975. p.147.

* قمنوريا : تقع بين درعة شمالا و السنغال جنوبا.

2. انظر : MAUNY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique Occidentale », in B.I.F.A.N., pp.362 et 363.

3. ابن بطوطة، "الرحلة"، ص.195.

4. انظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », T.1, p.87.

5. انظر : CUOQ (J.M.), op.cit, 146-147.

و هناك من الدراسات الأخرى التي حاولت إعطاء الدلائل لذلك، ليس من خلال الأدلة المادية فقط بل من خلال أدلة بشرية أيضا، و هذا بالعودة إلى دراسة عادات و تقاليد الشعوب الإفريقية لتستخلص منها ما يؤكد هذا الترابط و الاختلاط الذي حدث بين الشعوب السوداء و الجنس اليهودي الأبيض. ليتوصل من خلالها دي لافوس M. DELAFOSSE إلى القول " أن اليهود الساميين دخلوا إلى إفريقيا و بالتحديد إلى السودان الغربي خلال العصور الميلادية الأولى. و كانت تنقلاتهم بين المناطق الغربية. فبعد أن دخلوا إلى منطقة دياكا " Diaka " أو ما يسمى بماسينا الغربية، استقروا بجوار الونقارة الذين سبقوهم إلى المنطقة، ليواصلوا فيما بعد زحفهم باتجاه الشمال و يتم لهم الاستقرار في منطقة الحوض و بالتحديد في منطقة أوكار " Aukar " أو ما يسمى بواقادوقو " Ouagadougou " أين جاوروا سكان الونقارة أيضا. و بسبب تلك الصفات التي ميزتهم عن بقية الشعوب الإفريقية نجحوا في فرض وجودهم بينهم و الاختلاط معهم ليعطوا ميلاد الجماعات الإفريقية التي تدعى ساراكولي " Sarakoullé " أو البول " Peuls " والذين عرفوا بالسونينك. و المنحدرين إذن من الساميين البيض و الونقارة الزنوج و لغتهم أقرب إلى لغة الونقارة⁽¹⁾. و ما استطعت استنتاجه من هذا التحليل هو أن جماعة الونقارة الذين هم أسلاف الديولا قد مارسوا التجارة و احتكروا تجارة الذهب. و إذا كان لليهود دور في هذه التجارة فيعود إلى هذا الارتباط الوثيق بين الجماعات الإفريقية و اليهود.

1. لغة الونقارة : لغة الماندينغ، و هي اليوم لغة الساراكولي من الساحل و السنغال و سكان تيشيت المستقرين. أنظر كذلك :
- Delafosse (M.), « Histoire de l'Afrique occidentale », p.44.

2. اليهود و الحياة الاقتصادية في المغرب

أ. النشاط الاقتصادي اليهودي في المغرب

لعب اليهود دورا لا يستهان به في الحياة الاقتصادية للمغرب الإسلامي، خاصة إذا أخذت بعين الاعتبار تلك المراحل التي مرت بها حياتهم الوظيفية عبر التاريخ. لقد اشتغل غالبية يهود فلسطين في الزراعة، بينما كانت الجماعات المستقرة في الاسكندرية و برقة تشكل جماعات استيطانية أو قتالية أو مالية*، إضافة إلى قيامهم ببعض الحرف البدائية. ولم يعملوا في التجارة على نطاق واسع، إلا بعد ما ظهرت بينهم طبقة من الأثرياء الذين امتهنوا أعمال الصيرفة. و مع ظهور الجماعات اليهودية المختلفة خارج فلسطين، بدأ اليهود يتعدون عن الزراعة و يعملون في التجارة و الحرف المختلفة، خاصة بعد استقرارهم في العالم الإسلامي. فلم يعملوا بأعداد كبيرة في الزراعة، و أن التجار و الممولين خاصة اليهود كانت لهم علاقة بالقطاع الزراعي، لا كمزارعين و إنما كتجار و جامعي ضرائب، حيث كانوا يبيعون الخمر و يتاجرون في المحاصيل الزراعية⁽¹⁾.

بالنسبة لتحديد هذا النشاط في المغرب الإسلامي خاصة في فترة ازدهار التجارة، بدت كتابات المؤرخين شحيحة للغاية، ولا أدري إن كان السبب يعود كما ذكره الأستاذ كواتي مسعود "إلى إهمالهم لفئة يهود ريف المغرب"⁽²⁾، أم إلى ابتعاد اليهود عن ممارسة هذا النشاط بعد دخولهم إلى المغرب الإسلامي بالرغم من ميولهم إليه، خاصة بوجود بعض الإشارات التي تؤكد ذلك، ناهيك عن تلك الأدلة التي أثبتت ممارستهم لهذا النشاط قبل الفترة الإسلامية.

* الجماعة الوظيفية المالية : هي الجماعات اليهودية التي اضطلع أعضاؤها بوظائف مالية مختلفة مثل الرى و جمع الضرائب.

1. المسيري (محمد عبد الوهاب) "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ج2، ص ص. 236-239.

2. كواتي (مسعود)، المرجع السابق، ص 149.

وما تجدر الإشارة إليه، أنه في برقة مثلا، استطاع البطلمة * بعد بسط سيادتهم عليها أن يطوروها بشريا و عقائديا، و ذلك بتشجيع أعداد كبيرة من اليهود على الاستيطان في مدنها، ليشكلوا بذلك عنصرا هاما من عناصر سكان المدن المزدهرة. و كان وجودهم هذا ظاهرا في كافة ميادين العمل خاصة عندما أعطيت لهم حرية مزاولة النشاط الزراعي و الرعي و المهن الزراعية المتصلة بهما، سواء كانوا أصحاب إقطاعات زراعية أم مستأجرين لمساحات زراعية أو فلاحية يعملون في مقابل أجور لهم محدودة⁽¹⁾.

أما في الفترة الرومانية فقد كان لليهود دور فعال في توسيع النشاط الزراعي، خاصة بعدما أصبحت المنطقة، أي المغرب، مركزا استراتيجيا للإنتاج الزراعي بالنسبة لروما، أين كان ثلث إنتاج الحبوب مصدرة نحوها. و كان للبحارة اليهود القرطاجيين امتياز في الإشراف على ذلك، و إن كان هذا الأمر قد حدث فعلا فلا يستبعد على الإطلاق ممارسة اليهود للنشاط الزراعي في الفترة الإسلامية للمغرب خاصة عندما تسند إليهم ممارسة زراعة النخيل في الصحراء⁽²⁾. و ربما هذا ما دفعهم أيضا إلى امتهان حرفة حفر الآبار و بناء الفوقارات في الصحراء⁽³⁾.

لكن فيما يخص ملكية الأراضي و ممارسة اليهود للنشاط الزراعي يمكن الإشارة إلى العمل الذي قام به يوسف ابن تاشفين عندما أراد توسيع مسجد مدينة فاس، حيث اشترى الأملاك التي كانت بجوار المسجد و التي كانت معظمها ملكا لليهود⁽⁴⁾. بالرغم مما لهذه الرواية من توضيح لظاهرة تركز اليهود في المدن الكبرى من جهة، فإني أراها توضح من جهة أخرى صلة اليهود بالأرض و اهتمامهم بها، حتى و لو لم تكن لهم أرض. ورغم الاعتقاد أن اليهود ليسوا ممن مارسوا النشاط الزراعي في المدن الكبرى أو الأرياف، تكفي الإشارة إلى أنهم كانوا على صلة وثيقة بهذا النشاط، من خلال إشرافهم على بيع الإنتاج الزراعي في المجال الإقليمي و الدولي، حيث كانوا ينقلون و يصدرون من المغرب الزيت، الزعفران، نبات الصباغة، القطران، قشور اللوز والقمح⁽⁵⁾.

* البطلمة، هم ملوك مصر الذين خلفوا الاسكندر الأكبر.

1. بعيو (عبد الله)، "مشروع استيطان اليهود في ليبيا"، ص. 28-29.

2. AYOUN (R.), « Les Juifs d'Algérie », p.241.

3. MEUNIE (J.), « Le Maroc Saharien - des origines à 1670 », p.60.

4. كولاني (مسعود)، المرجع السابق، ص. 149.

5. نفسه، ص. 142.

— الصناعة —

اعتبر النشاط الصناعي من أهم الأنشطة التي ميزت الحياة الحرفية للجماعات اليهودية في المغرب الإسلامي. و أهم ما يمكن الإشارة إليه، الصناعة المعدنية سواء كانت معادن ثمينة أو غيرها. ففيما يتعلق بالمعادن الثمينة، ذكر أندري شوراكي A. CHOURAQUI أن لهذه العناصر، أي اليهود، الاحتكار شبه الكلي، لصناعة الذهب و الفضة، لأنهم كانوا يدركون القيم الحقيقية لهذه المعادن في السوق. فأشرفوا على صناعة المجوهرات، و أشرفوا و راقبوا عملية تذويب المعدن الأصفر. كما اشتهر اليهود بعملية سبك الذهب، كاليهودي المغربي الذي كان يسافر خلال القرن التاسع للميلاد بين عدن و جزيرة سيلان. ⁽¹⁾ فإذا كانوا قد أشرفوا على هذه الصناعة، فهذا معناه أنهم هم الذين قاموا بتحلية السروج و اللحم بالذهب، و صناعة مجوهرات النساء التي تمثلت في الأقراط و الأساور و دبابيس تزيين الصدر والخواتم و الخلاخل، إضافة إلى بعض الأواني كالأكداح و الأباريق المذهبة. ⁽²⁾ و من المدن التي اشتهرت بهذه الصناعة و تحويل المعدن الأصفر، مدينة فاس، سجلماسة و تمنطيط. ⁽³⁾

و يرجع جاك مونيي J. MEUNIE وجود هذه الصناعة المعدنية في الصحراء، بصفة عامة إلى أزمنة قديمة، و بالتحديد إلى وجود الجماعات اليهودية بها ⁽⁴⁾. هذه الجماعات التي يطلق عليها تسمية المعلمين* عند سكان الصحراء ⁽⁵⁾. و لم يقتصر النشاط الصناعي اليهودي على الذهب و الفضة، بل شمل أيضا النحاس و الحديد. و ذكر GOLDENBERG أن يهود توات كانوا يشرفون على تحويل معدن الذهب و الفضة و النحاس ⁽⁶⁾. و ما زالت قبائل الهقار تحتفظ بالروايات القائلة أن صناعة الحديد في الصحراء مرتبطة بالوجود اليهودي ⁽⁷⁾.

-
1. CHOURAQUI (A.), « Les Juifs en Afrique du Nord », p.142.
 2. جودة (عبد الكريم يوسف)، « الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط »، ص 102.
 3. OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat – du 1^{er} siècle à 1492 », p 58.
 4. MEUNIE (J.), « Le Maroc saharien », p.60.
 - * المعلمين، كانت تعني عند سكان الهقار الحرفيين اليهود الذين كانوا يمارسون صناعة الحديد.
 5. ABITBOL (M.), « Communautés Juives—des marges sahariennes du Maghreb », p.235.
 6. GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p.64.
 7. AYOUN (R.), « Les Juifs d'Algérie », p.241.

- التجارة -

استفادت الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي من شبكة الاتصالات الدولية، فاشتغلوا بالتجارة الدولية⁽¹⁾، مثل تجارة الفراء والمنسوجات والتوابل والرقيق وأعمال الصيرفة، ليزداد طلبهم أكثر على الحرف التي تتطلب مهارة فنية، كصناعة الصباغة والزجاج والذهب وديبج الجلود وكلها سلع نفيسة ذات طابع استهلاكي⁽²⁾. ومشاركتهم في هذا النشاط في المغرب الإسلامي لا تختلف عن صورة مشاركتهم في العالم الإسلامي ككل. يشير الأستاذ مسعود كواتي أن مشاركتهم هذه كانت فعلية وأن أهم نشاط اقتصادي شاركوا فيه هو التجارة⁽³⁾. فإذا كانت التجارة هي أهم نشاط اقتصادي مارسه اليهود في المغرب الإسلامي، فلأن هذه المنطقة شكلت جزء من الشبكة التجارية العالمية التي نسجوها. والتي كانت تعني لديهم طرقا دينية، من خلالها تكونت روابط الصلة بينهم⁽⁴⁾.

إن تطور شبكة التبادل التجاري إلى شبكة تبادل ثقافي وديني بين اليهود لن يكون مجرد قول بل تعداه إلى التنظيم الذي يقوم على أساس المسؤولية والتضامن الضروري لكسب الثقة في المعاملات التجارية وفي عملية الاعتماد والائتمان.⁽⁵⁾ هذا التنظيم الذي سهلت له السلطات الإسلامية كل السبل والوسائل أصبح أمرا مسلما به ولا يمكن تجاهله خاصة عند مراجعة قراءة خريطة انتشار الجماعات اليهودية في المغرب الإسلامي ومشاركتهم في مختلف النشاطات التجارية والحرفية. لم تكن ممارستهم لتجارة ذهب السودان التي أشرفوا على طرقها ومحطاتها⁽⁶⁾ سوى دليل على معرفتهم لأهم الأنشطة التي تمكنهم من تثبيت وجودهم وتعزيز روابط الصلة بينهم وبين الجماعات اليهودية الأخرى المتنقلة عبر العالم.

-
1. ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص 131.
 2. مسيري (محمد عبد الوهاب)، "موسوعة اليهود"، ص ص. 236-239.
 3. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص. 141.
 4. لومبارد (موريس)، "الإسلام في مجده الأول"، ص. 305.
 5. نفسه، ص. 313.
 6. أحمد (علي)، "اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى"، ص. 166.

ولم تتوقف الجماعات اليهودية في المغرب الإسلامي على ممارسة تجارة الذهب، بل توصلت بعض العناصر الأخرى إلى خلق طبقة من التجار لها أسواق خاصة بها، مثل سوق اليهود و دكاكين الرّهادنة بالقيروان، و درب الرّهادنة بتاهرت⁽¹⁾. و هذا ما أدى إلى بروز بعض العائلات اليهودية في الحياة التجارية للمغرب الإسلامي خاصة خلال القرنين الثاني عشر و الثالث عشر⁽²⁾.

و في عهد الفاطميين أصبحت المهديّة مركزا لكبار تجار اليهود⁽³⁾. أما تجار تنطيط فقد بلغوا من الغنى ما دفعهم للاستغناء عن التكفل بالصفقات التجارية و الاهتمام بالجمال والبضائع. بل أوكلوا هذه المهام إلى وسطاء من تجار البربر، الذين كانوا يقطعون المدن ويلتحقون بأكبر الأسواق في كل من فاس، تلمسان، سجلماسة، ورقلة، جاور، تمبكتو، ودان، ولاتة وأودغشت⁽⁴⁾. ليسمح لهم هذا النشاط بتوسيع اهتمامهم ليمارسوا الصيرفة التي مكنتهم من اكتساب حوائث خاصة بها، كتلك التي اكتسبوها في القيروان لتبديل العملة⁽⁵⁾. أما فيما يخص النشاطات الأخرى التي من شأنها أن توضح مظهر حيوية العنصر اليهودي في المغرب الاسلامي ومشاركتهم في الحياة الاقتصادية، فلقد أشار كل من الأستاذ مسعود كواتي⁽⁶⁾ واندري شوراكى⁽⁷⁾ إلى ما يدعو للاعتقاد أنه لم توجد أية حواجز من شأنها التخفيف من هذا النشاط الذي تناسب و وجود هذه الجماعات في أرض المغرب، إلى درجة القول أن هذه الجماعات قد تمتعت فعلا بسياسة التسامح الديني التي ميزت علاقة المسلم بأهل الذمة خاصة اليهود، حيث لا يمكن التمييز بينهم و بين المسلمين في وسائل و طرق مباشرة حياتهم اليومية.

-
1. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص 141.
 2. عن هذه العائلات، أنظر : كواتي مسعود، المرجع السابق - فوزي سعد الله، "يهود الجزائر، هؤلاء المجهولون"، ص 67-68.
 3. CHOURAQUI (A.), « Histoire des Juifs en Afrique du Nord », p.113.
 4. OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat », p.39.
 5. كواتي (مسعود)، المرجع السابق، ص. 145.
 6. نفسه.
 7. نفسه.

ب. اليهود و تجارة الصحراء

في العديد من التجمعات السكانية و في أغلب أقطار العالم، ارتبطت الجاليات اليهودية باحتراف التجارة و امتهان عدد من الحرف، هذا بالرغم من أن التاريخ المدون ذكر أنهم كانوا بدوا و رحلا يقومون بالرعي و التجارة، و عند استقرارهم بأرض كنعان، عملوا بالزراعة أساسا، و ظل نشاطهم محدودا، بل يكاد يكون منعما.

لقد حاول اليهود في فترة الفينيقيين خلق علاقات تجارية بينهم و بين الهند لبناء موانئ على البحر الأحمر، إلا أن هذه المحاولات أجهضتها السيطرة الفينيقية على هذه التجارة⁽¹⁾. هذه الحادثة أصبحت تؤخذ كمعيار للرد على أسئلة عديدة طرحت حول النشاط التجاري الذي أصبحت الجالية اليهودية تمارسه و تحتكره في آن واحد خاصة في الفترة الإسلامية، وكذلك لكي لا تردد عبارة أن اليهود ولدوا صيارفة و تجار. هذا معناه أنهم لم يولدوا تجارا، بل أن الظروف التاريخية التي مرت بها الجماعات اليهودية في مختلف المناطق التي وجدت فيها دفعتها إلى امتهان التجارة بعيدا عن الزراعة، في العصور القديمة و الوسطى أو الحديثة⁽²⁾. و بظهور المملكة العبرانية ظهرت حاجة الدونة إلى تمويل المؤسسات المعمارية الكبرى، مثل مشروع هيكل سليمان، الذي يمكن توفير اعتماداته من خلال النشاط التجاري.

و من أهم العوامل التي شجعت اليهود على الاهتمام بهذا النشاط، موقع فلسطين الذي كان يشكل لمعبر الرئيسي الحضاري بين مصر و بلاد الرافدين، ووقعها على أهم الطرق التجارية في العالم القديم. و انطلق هذا النشاط بشراء المملكة العبرانية للعربات الحربية من مصر والأحصنة من مصادر أخرى، تبيعها للملك سوريا من الحيثيين* و الأراميين، و هنا يبدأ الاحتكار التجاري الأول للمملكة العبرانية. ليتطور هذا النشاط التجاري أكثر بعد التهجير البابلي** 587 ق.م. هذا معناه أن الشعب المزارع لم يكن تجاريا بالغريزة، بل أجبر على أن يصبح كذلك،

1. المسيري (عبد الوهاب محمد)، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ص. 252.

2. أنظر : « La vie économique des Juifs », in « Revue des études Juives », T.23, Paris, 1894. pp.1-2.

* الحيثيون (Hittites)، شعب هندي أوروبي، برز في بداية الألف الثاني قبل الميلاد و تعد هجرهم أقدم الهجرات الهندية الأوروبية، وهي من بين القوى التي هيمنت على الشرق الأدنى القديم و أصل تسميتهم بالحيثيين، نسبة إلى مقاطعة حاثي التي كانت فيها عاصمتهم حاتو شاش، و التي تبعد بمائة و مائتين كلم عن أنقرة.

** كانت للإمبراطورية البابلية تجارة دولية نشطة في ذلك الوقت.

فالهجرة علمته كيف يختار النشاط الذي يسترجع به قواه، ما دامت المناطق التي تنقل إليها لم يتحكم في تربتها و لا في طبيعة مناخها، فلم يكن أمام اليهود سوى الاهتمام بهذا النشاط وممارسته، ليتبلور تماما بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، حيث اهتم اليهود بالنشاط التجاري، بعد اتساع الهوة بين طبقة السادة، ملاك الأراضي و طبقة الفلاحين. و كان أعضاء الجماعة اليهودية يقطنون المدن و الموانئ مع التجار الفينيقيين. وقال في هذا الشأن الخاخام أجوس : " لقد ورثت المسيحية القانون الروماني المعادي للتجارة و الربا، بينما ورث اليهود المدن و الحياة في المدينة وتقاليدھا القانونية و الحضارية". بعد ظهور الإسلام، شكل اليهود الرابط التجاري والمالي بين العالم الإسلامي و المسيحي، كما شكلوا أول نظام ائتمان عالمي سهل عملية انتقال التجار من بلد إلى آخر⁽¹⁾. و كانت إشارة ابن خرداذبة⁽²⁾ لطبقة التجار الرادانية باعتبارهم تجارا دوليين، كافية للدلالة على أن هذه الجماعات استطاعت فعلا أن تتكيف في بيئتها الجديدة و تستغل كل الظروف التاريخية لصالح جماعاتھا المنتشرة عبر العالم. ل يبدو بذلك دورهم في تجارة الصحراء أمرا طبيعيا، بل عضو استكمل أطراف الهيكل الذي تشكل عبر التاريخ، خاصة قبل دخول الإسلام إلى المغرب وبعده.

قبل التطرق إلى نشاط اليهود التجاري في الصحراء تجب العودة إلى خريطة الاستقرار أو تمركز اليهود فيها، و الصورة التي تقدمها خريطة انتشارهم تعتبر جوابا واضحا لأهمية هذا النشاط التجاري لدى الجاليات اليهودية. لقد كان تمركزهم منذ القدم على طول المسالك التجارية الكبرى، حيث يبدأ الاستقرار في المدن المشككة للموانئ الساحلية الكبرى، ثم يليه الاستقرار على طول مسلك القوافل التي تربط بين المغرب و الجنوب، حيث سمحت بإقامة قواعد تجارة مع إفريقيا السوداء. و من بين أهم هذه المراكز، في المغرب الأوسط، بسكرة ورقلة و غرداية، أما في المغرب الأقصى سجلماسة و فاس⁽³⁾.

1. (المسيري) عبد الوهاب محمد، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ص 253-254

2. ابن خرداذبة، "المسالك و الممالك"، دار إحياء التراث العربي، ط. 1، 1988م، 1408هـ، ص. 131.

* الحيتيون (Hittites)، شعب هندي أوروبي، برز في بداية الألف الثاني قبل الميلاد و بعد هجرهم أقدم الهجرات الهندية الأوروبية، وهي من بين القوى التي هيمنت على الشرق الأدنى القديم و أصل تسميتهم بالحيتيين، نسبة إلى مقاطعة حاثي التي كانت فيها عاصمتهم حاتو شاش، و التي تبعد بمائة وثمانين كلم عن أنقرة.

3. CHOURAQUI (A.), « Les juifs en Afrique du Nord », p.137.

و في هذا الصدد يقول POITIER : "بعد هروب الجماعات اليهودية من الاضطهاد البشع انذني تعرضت له، و هي مستقرة على ضفاف نهر النيل فتح لها المسلك عبر الصحراء، هذه الصحراء التي هي أقل قسوة من التي نراها اليوم. و هناك من الجماعات اليهودية من استقرت في الواحات الأولى، و هناك من ذهبت إلى أبعد من ذلك أي في أعماق الصحراء لكي لا تضايق الجماعات التي استقرت قبلها في عملياتها التجارية " (1).

و لم يكن الظرف التاريخي هو الذي حتم على اليهود الاستقرار في الصحراء بل كان للعامل التجاري كما ذكرت أيضا، دور رئيسي في ذلك، و بالدرجة الأولى تجارة الذهب التي كانت مصدر ثروة هذه الجماعات منذ البداية، ليتوسع نشاطهم الصحراوي إلى العمل في المعادن عامة، و حتى في حفر الآبار و الفوقارات، هذه الصفة التي كانت تنسب دائما إلى اليهود والسودانيين في الصحراء. و لم يستبعد الباحثون أن تكون هذه الحرف قد انتقلت معهم من المشرق (2)، و أن التجارة الصحراوية كانت تمثل الصورة الحقيقية للنشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي. كما أن استقرار العائلات اليهودية جنوب توات، عبر طول فترات العصور الوسطى، شكل القاعدة الأمامية لكل الجماعات اليهودية * في المغرب على أبواب مسالك التجارة في إفريقيا الوسطى (3). انطلاقا من هنا يمكن لي معرفة التمرکز الحقيقي لليهود في لصحراء الكبرى و دورهم في التجارة الصحراوية.

1. أنظر : POITIER (R.), « Histoire du Sahara », Nouvelles Editions Latines, Paris, 1947, p. 68.

2. MEUNIE (J.D.), « Le Maroc saharien des origines au XVIe siècle », p 60. * مثل جماعة يهود ملاح التي جئت تسميتها نسبة إلى النشاط الذي كانت تمارسه هذه الجماعات اليهودية، أي تجارة الملح. و هذه

جماعات كانت تشكل في منطقة درعة وسوس القاعدة الأمامية للمسالك التجارية الغربية العابرة للصحراء.

3. MONEY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique Occidentale », p361.

كانت تجارة الصحراء تقوم وفق مخطط جغرافي مقسم إلى ثلاث مراكز

رئيسية :

- الأول : يتمثل في إفريقيا السوداء التي تقوم بجمع المواد والسلع الخام ؛
- الثاني : يتمثل في مدن شمال الصحراء التي تلعب دور الموزع بين الأول والثاني؛
- أما الثالث : فيشمل مدن شمال منطقة المغرب الإسلامي و التي تقوم بعملية تحويل المواد الخام ⁽¹⁾.

و إذا حاولت المقارنة بين الخريطين أو المخططين الجغرافيين لاستقرار الجماعات اليهودية في المغرب و مخطط التبادل التجاري بين الشمال و الجنوب، ألاحظ أن الجالية اليهودية استقرت في المركز الثاني الذي لعب دور الوسيط و المحرك للنشاط التجاري. و هذا التمرکز اليهودي الهام في الصحراء ساعدته ظروف جغرافية و دينية، قائمة في الأساس على استراتيجية الفكر الاقتصادي عند اليهود. فالتشتت و الانتشار الذي عرفته هذه الجماعات اليهودية في شمال إفريقيا و الاتصال بكامل المراكز التجارية فيه ساهم في إبراز دورهم في التجارة الصحراوية خاصة و أن التضامن الذي لوحظ لدى هذه الجماعات في المجال الروحي سهل من عملية احتكار الإعلام الاقتصادي التجاري، دون أن أنسى العامل السياسي الذي عاشته دول المغرب الإسلامي و الذي سهل بدوره مهام هذه الجماعات قبل ظهور المرابطين و الموحدين الذين شددوا الخناق عليها و احتكروا هذه التجارة ⁽²⁾. لذا أجد أن المدن التي استقرت فيها هذه الجماعات عبارة عن سلسلة متصلة ببعضها البعض لهذا الوجود في الصحراء الذي سمح لها أن تلعب دور الوسيط و الموزع و المراقب لتجارة الصحراء ⁽³⁾.

1. سعد الله (فوزي)، "يهود الجزائر هؤلاء المجهولون"، ص ص. 70-71.

2. أنظر : MONEY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique Occidentale », p.361.

3. أنظر : NACIB (Y.), « Cultures Oasiennes, Bou-Saâda », Belgique, essai d'histoire sociale, Publisud, 1986, pp. 200-201.

كما لا يمكن لي تجاهل دور هذه الجماعات التي أشرفت على تتبع و مراقبة حركة تجارة الصحراء، و هذا بتوفير الراحة و الأكل لأعضاء القافلة، الرجال منهم و الحيوانات، الذين كانوا يقطعون مفازات الصحراء لأسابيع دون انقطاع، في آن واحد مع استغلال هذا الدور في القيام بعملية التبادل مباشرة مع تلك القوافل التي كانت تنقل بضائع الشمال و الجنوب، لصالحها بالقيام بصفقات تجارية مربحة⁽¹⁾. و في هذا الشأن يشير لومبار : " أن الجماعة اليهودية كان لها دليل يخبرها عن وصول القافلة وأهمية شحناتها و نوع السلع التي تنقلها⁽²⁾. و هذا ما سمح لها أن تسيطر على أغلب طرق التجارة و يروز دورها في تجارة الصحراء بالذات.

فإن حاولت التركيز على أهم هذه الجماعات اليهودية و دورها، يستوجب الرجوع إلى تلك الجماعات التي استقرت في منطقة توات*. هذه المنطقة التي تعتبر امتدادا لتافيلالت بوادي ربيع و الساورة و بعاصمتها تمنطيط، التي هي من أبرز المراكز التي لعبت دورا فعالا في تنشيط التجارة الصحراوية. لقد اعتبرت منطقة تمنطيط قلدس اليهود في الصحراء، كونها محطة تجارية ذات أولوية لدى هذه الجماعات، لأنها تقع في مفترق أكبر الطرق الصحراوية بين المغرب و السودان و جنوبا بين بلاد شنقيط و ليبيا باتجاه المشرق⁽³⁾.

تميز النشاط اليهودي في هذه المنطقة بالذات بحرفة الصياغة و كل ما يتعلق بالعمل المعدني كالفضة و النحاس، إضافة إلى وجود رجال القوافل هذه الفئة التي تتحكم في أسرار الصحراء بشكل دقيق، أما طبقة التجار فكانت مهامها مراقبة القوافل التي تعبر منطقة توات. هذه العوامل جعلت من توات مركزا اقتصاديا ذا طابع مميز بالنسبة للمغرب الإسلامي خاصة الجماعة اليهودية التي تزداد أهميتها لديهم بعد تحويلها إلى مركز للرّبيين⁽⁴⁾. بهذا الشكل، استطاع يهود

1. NACIB (Y.), « Cultures Oasiennes... », p. 201.

2. لومبار (موريس)، "الإسلام في مجده الأول"، ص 313.

3. GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p.64.

* توات : تقع في وسط العرق الغربي الكبير، في الصحراء الجزائرية، بين تميمون و تابلالة.

4. GOLDENBERG (A.), op.cit, p.64.

تمنيط أن يعطوا ميلاد نمط من التجارة يدعى التصدير و الاستيراد، فالقوافل التي المتجهة من الشمال إلى الجنوب، كانت تلتقي في توات أين كانت تتم عملية المفاضة و حتى التبادل الذي كان يتم بين أوروبا و المغرب و إفريقيا كان يسير وفق هذه الخطة. و من المراكز التجارية الأخرى التي ارتبطت بتوات بودا، تافيلالت، سوس، درعة، تاغازة، ولاتة و أخيرا السودان الغربي. إضافة إلى هذه المحطات الغربية التي ارتبطت بتوات بشكل مباشر هناك مراكز شرقية أخرى زادت من أهمية المنطقة كنقطة ارتكاز للمسالك العابرة للصحراء، منها تيديكلت وتاوريرت، باتجاه كل من ورقلة و تونس عبر غدامس⁽¹⁾.

و من العوامل التي زادت من أهمية توات كمحطة متقدمة لكل القوافل التجارية ونقطة اتصال كل المسالك الصحراوية الغربية و الوسطى الشرقية، توفرها على ثروة مائية كبيرة خاصة بعد ظهور الفوقارات فيها خلال القرنين التاسع و العاشر للميلاد، ولم ترد هذه العوامل إلا في نمو نشاط اليهود في هذه المنطقة بارتفاع عددهم و عدد القرى التي كانوا يقطنونها و التي حددتها الروايات بمائتي حي في كل من توات، قورارة و تيديكلت⁽²⁾.

و هناك مراكز تجارية أخرى لا تقل أهمية عن مركز توات، إستقرت فيها الجماعات اليهودية، كمركز سجلماسة الذي كان من أبرز المراكز الغربية التي توفرت فيه للجماعات اليهودية حرية ممارسة النشاط التجاري بشكل ناجح. هذه المنطقة التي أسسها بنو واسول خلال القرن التاسع للميلاد أوت جماعة هامة من اليهود أغلبها من التجار، الأمر الذي جعلها تكتسي طابعا تجاريا محضا. خاصة بعد أن ربطت علاقتها مع البلدان الواقعة على ضفاف نهر النيجر ووسط إفريقيا و مصر والهند⁽³⁾. و مما ميز هذا التبادل التجاري اختصاص اليهود في نقل نوع من البضائع التي أصبحت تميزهم و تتميز طبيعة معاملتهم التجارية، و أهمها الملح، المعادن، الحبوب، التمور، التبغ والأقمشة⁽⁴⁾.

1. أنظر : OLEIL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat... », p.39.

2. Ibid, p.40.

3. أنظر : ZEFRANI (Haim), « Juifs d'Andalousie et du Maghreb », Paris, Maison-neuve, 1996, p.234.

4. أنظر : OLEIL (J.), op-cit, p.38.

و إذا حاولت تقييم هذه البضائع أجدها أساسية و نادرة لدى سكان الشمال والجنوب خاصة مادتي الذهب و الملح، و هو ما يؤكد الرأي القائل أن اليهود لا يتاجرون إلا فيما هو أغلى ثمنا و يأتي من البلدان النائية⁽¹⁾. و تكفي الإشارة إلى يهود ملاح عند ذكر يهود فاس لكي أتأكد أن اليهود كانوا يراقبون و يتحكمون في أسواق الذهب و الملح⁽²⁾.

أما مركز فاس في الغرب و شروش و غدامس في الشرق فقد ساهمت هي الأخرى في توسيع خريطة هذا الانتشار الاقتصادي و الاجتماعي للجماعات اليهودية في الصحراء. لكن ما لا يمكن تجاهله هو دور تجارة الجماعات اليهودية في الصحراء و التي ساهمت بشكل كبير في ظهور عدة مدن و ازدهارها و التي فتحت الطريق نحو السودان. لكن هذا ربما ما جعل الإحتكار الشبه الكلي للتجارة الصحراوية من طرف الجماعات اليهودية أمرا أكدته جميع الدراسات و البحوث، خاصة تلك التي احتضنت في رسم الخرائط خلال فترة العصور الوسطى. حتى و لو أن هذه الخرائط ظهرت خلال القرن الرابع عشر إلا أنها تؤكد قدم أهميتها واهتمام اليهود بها، و يظهر هذا جليا بعد اهتمام اليهود بفن رسم الخرائط و استخدام وسائل الإبحار كالمربعات والإسطرلاب. و من أهم الخرائط التي يمكن الإشارة إليها، خريطة الميورقي Angéline JULCERT عام 1339م، الذي ذكر الطريق الرابط بين سجلماسة و أرض الذهب و وسط الصحراء إضافة إلى إشارته إلى القصر الكبير، وفي عام 1375 م ظهرت خريطة إبراهيم غريسك " Abraham CRESQUES " و الذي أشار إلى كل من سجلماسة، تلبلت، بودا، غدامس، عين زيزة، تمبوكتو، جاو ونياسي. أما خريطة اليهودي ميسيا دي فيلادست Mecia DE VILLADESTES التي وضعت عام 1413 م، فقد أشارت إلى مسالك القوافل المتوجهة إلى سجلماسة و التي تخرج من بورا و تمنطيط. و في الطريق الشرقي الرابط بين تونس و تمبوكتو، يشير إلى بسكرة، توزر، توقرت، عين صالح، الهقار، عين زيزة، و في أقصى الجنوب جاو⁽³⁾.

1. لومبار (موريس)، "الإسلام في مجده الأول .."، ص. 315.

2. أنظر : OLEIL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat... », p.39.

3. أنظر : LHOTE (H.), « Le Hoggar – espace te temps », Paris, Armand Colin, 1984, p.184.

3. اليهود و تجارة الذهب

أ. اهتمام اليهود بمعدن الذهب

من الضروري البحث عن العلاقة التي تربط بين العنصر اليهودي و معدن الذهب، قبل معرفة الدور الذي لعبوه في تجارته عبر العالم خاصة تجارة ذهب السودان الغربي. لقد اعتبر المعدن الأصفر من الأشياء المقدسة عند اليهود، فقبل استقرار بني إسرائيل و اجتيازهم مرحلة الشتات، تنقل اليهود بالكيفية التي سمحت لهم أن يراقبوا بها هذا المعدن الأصفر أي الذهب دون امتلاكه أو الاستحواذ عليه، من الفرات إلى النيل تحصلوا على معلومات غزيرة حول هذا المعدن من تلك الحضارات التي راقبوا فيها مؤسساته دون تقليدها. فاحترموه و قدسوه لأنه يعنى السعادة التامة، و عدم تقدسه يعتبر شتما لديانتهم التوحيدية (1).

هذا التقديس يعود إلى قصة العجل الذهبي، أي إلى ذلك التمثال الذهبي الذي عبده أعضاء جماعة إسرائيل عند قاعدة جبل سيناء، عندما كان موسى عليه السلام يتعبد فوق جبل طور، حيث قام الرجل الذي أطلق عليه القرآن اسم السامري بجمع زينتهم و حلهم و اخرج منها عجلا جسدا له خوار، و قال لهم : هذا هو إلهكم و إله موسى، فجعلوا يطوفون به ويعبدونه و يتخذونه إلهًا من دون الله (2). وبعده تظهر قداسة معدن الذهب في الاستخدامات اليهودية العديدة. ففي عهد سليمان عليه السلام يدخل الذهب ميدان الزخرفة و تطعيم المعبد أو تغليفه بشكل يؤكد حب و احترام اليهود لهذا المعدن الأصفر (3). وأهم ما يميز هذا الاستخدام داخل هيكل (4) سليمان عليه السلام الحوائط المطعمة بالذهب و التي نقشت عليها صور النخيل و الأزهار و الملائكة، إضافة إلى وجود عشرة شمعدانات من الذهب داخل البهو المقدس، و المذبح هو أيضا مطعم بالذهب، أما الأواني القربانية الموجودة خارج الهيكل و المصنوعة من البرونز و النحاس فداخلها مصنوع من ذهب، و هو ما يرمز إلى تزايد درجات القداسة.

1. SEROUSSI (R.), « L'Histoire de l'Or », p.66.

2. الخالدي (صلاح عبد الفتاح)، "الشخصية اليهودية من خلال القرآن"، شركة الشهاب، الجزائر، ط1، 1407هـ/1987م، ص 82. أنظر في ذلك سورة طه، الآية 89 و سورة الأعراف الآية 148.

3. SEROUSSI (R.), op.cit, p.66.

4. الهيكل : كلمة يقابلها بالعبرية همقدش أي بيت المقدس أو هيخال، و هي كلمة تعني البيت الكبير، و هي الطريقة التي كان يشار بها إلى مسكن الإله، و من أهم أبنائه "بيت يهوه"، بناه سيدنا سليمان عام 960-953 ق.م، و لذا يطلق عليه هيكل سليمان أو الهيكل الأول. وحسب الاعتقاد اليهودي بني فوق جبل موريا و هو جبل بيت المقدس أو هضبة الحرم التي يوجد فوقها المسجد الأقصى و قبة الصخرة.

أما الغرفة المربعة و التي تدعى قدس الأقداس*، فلها بابان من الخشب مطعمان بالذهب، و داخل محراب قدس الأقداس يوجد تمثالان للملكين مذهبين من خشب الزيتون و هما رمز الحماية الإلهية⁽¹⁾.

ليس غريبا أن يقدر اليهود معدن الذهب، مثلهم مثل العديد من الشعوب التي سبق و أن تطرقت إليها في هذه الدراسة، كالقراغة و الإغريق أو قبائل إفريقيا الغربية، هذه الشعوب التي لم تدخر أي جهد للحصول عليه. لكن طبيعة الاحتكار اليهودي لمعدن الذهب هي التي تدعو للغرابة وتدفعني لأتساءل مرة أخرى عن الأسباب الحقيقية التي دفعتهم لاحتكاره، و تسير مؤسساته عبر العالم مع الإشراف على صناعته و احتكار تجارته عبر العصور ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال دون الحصول على معلومات دقيقة و كافية تسمح بتكوين فكرة موضوعية عن هذه الدراسة.

لقد استعنت ببعض النصوص و لو أنها حديثة، إلا أنها لمحت لهذه الفكرة و أعطت جوابا لما تحمله من معان قد يفسر العديد من الأهداف التي كان اليهود يخططون لها عبر العصور، و كانت نصوص البروتوكولات أنسب لذلك و أهمها البروتوكول الثاني و العشرين الذي يقول: " و في أيدينا تتركز أعظم قوة في الأيام الحاضرة، و أعني بها الذهب ففي خلال يومين نستطيع أن نسحب أي مقدار من حجرات كنوزنا السرية [...] هل يمكن أن نعجز بعد ذلك عن إثبات أن كل الذهب الذي ظللنا نكدسه خلال قرون كثيرة جدا لن يساعدنا في غرضنا الصحيح للخير" ⁽²⁾.

فحب، اليهود للذهب و التفنن في صناعته و إتقان عمله كان له هدف مسبق مبني على أسس ثابتة ليكون التلمود دستورهم المقدس في ذلك، و لتكون التجارة أحسن وسيلة لبلوغ كل الأهداف، حيث يعتقد اليهود، حسب التلمود، أن غير اليهود نجسون و لا يمكن لليهودي إدخالهم إلى بيته، أو أن يأكل عندهم، و ليس له أن يتعامل معهم إلا بغرض التجارة⁽³⁾. بذلك تكون ممارسة النشاط التجاري أنبل وسيلة و أسهل طريقة يمكن بواسطتها الإشراف على هذا المعدن أينما كان وحيثما حل. لتصبح بذلك مهنة الصيرفي أو صائغ المجوهرات أو وازن الذهب من اختصاص اليهود، بل تنسب إليهم أكثر مما تنسب إلى النصارى و المسلمين، خاصة خلال الفترة الإسلامية أيام ازدهار تجارة الذهب، و ظهور الدينار الذهبي الإسلامي، حيث كان لليهود دور بارز لا يمكن تجاهله، و الذي دفعهم أن يبلغوا من الثروة ما لا يعد و لا يحصى.

* قدس الأقداس : هي غرفة مربعة لا نوافذ لها، لا يدخلها إلا كبير الكهنة في يوم الغفران، فينطق باسم "يهوه" و يعني إله الصحراء والرعي.

1. المسوري (عبد الوهاب محمد)، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ج4، ص. 161.
2. بن مينا آل علي (محمد)، "أصالة الإسلام في مواجهة التحدي الفكري"، ط. 1، الرياض، دار المؤيد، 1998، ص. 287.
3. خان (ظفر الإسلام)، "التلمود، تاريخه و تعاليمه"، دار النقاش، ط. 7، بيروت، 1410هـ/1998م، ص. 72.

فالاضطهاد و التهجير اللذان تعرضوا لهما عبر التاريخ علمهم كيف يعيدون بناء
شبكتهم عبر العالم، كما علمهم كيف يضربون على الوتر الحساس للحياة الاقتصادية
العالمية، لتصبح القوة المادية التي نعرفها اليوم وليدة هذا التحول و التخطيط. و الدليل هذه
المرّة يأتي من نص الخطاب الذي ألقاه أكبر المحاضرات اليهود في روسيا عام 1870، أين
قال : " إذا كانت الأجيال الماضية قد خضعت لأعدائنا فإن الجيل الحاضر
و الأجيال القادمة يجب أن تخضع لحكمنا وتنفذ مقاصدنا نحن بني إسرائيل، فقد
ملك شعبنا بقوته أعظم الملوك، و نال بصيره و ثباته خير ما يملكون، ألا و هو الذهب، العجل
الذهبي الثمين الذي قدمه هارون (كرم الله عنهم) قربانا لله، أصبح إله الأرض في
عصرنا هذا" (1).

استنتج من خلال ما سبق أن علاقة اليهود بمعدن الذهب تمتد إلى قصة العجل
الذهبي، أيام موسى عليه السلام، هذا الوضع الذي حول الذهب إلى مادة مقدسة، و هذا التقديس
بدوره يتحول إلى عملية الاحتكار للحفاظ عليه و العودة إليه متى دعت الحاجة لذلك،
لكن هذا الأمر لم يتحقق إلا باحتكار كل الأنشطة التي لها صلة بهذا المعدن و هذا ما
يفسر فعلا امتهان اليهود لكل الحرف ذات الربح الوفير خاصة في فترة
ازدهار الإسلام و بروز الدول الإسلامية العديدة. قبل التطرق إلى أهم الحرف
المتصلة بالمعدن الأصفر و التي احترفها اليهود يجب الإشارة إلى أن اليهود لم يجيدوا
صناعة الذهب بشكل دقيق منذ البداية بالرغم من اهتمامهم بهذا المعدن و صناعتهم
لتمثال العجل الذهبي، و هذا ما يؤكد حقيقة أن العبرانيين كانوا يجهدون أصول فنون
الهندسة و العمارة و ألوان الفنون الأخرى نظرا لكونهم بدوا رعاة و لعدم وجود
تقاليد حضارية ثابتة لديهم، هذا ربما ما دفع سليمان عليه السلام أثناء بنائه للهيكل
أن يجلب المهندسين و البنائين من صيدا و صور إذ ساعده ملكها و حليفه
"خيرام" الذي صنع له أواني الهيكل (2). لكن بعد إتمام عملية الفتح و دخول المغرب
ضمن إطار التنظيم الجديد حظيت به و لاية إفريقيا ظهرت الجاليات اليهودية
بشكل لا مثيل له، أين لعب اليهود دورا اقتصاديا في كل الفترات و في جميع الميادين.

1. بن مهنا آل علي (محمد)، "أصالة الإسلام..."، ص 290.

2. المسيري (عبد الوهاب محمد)، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ج 4، ص 162.

ففي المجال الحرفي كان اليهود يحتكرون صناعة المعادن الثمينة كالذهب و الفضة، فكانوا صاغة، و كلفوا بمراقبة عملية صهر المعدن الثمين ووزنه لأنهم كانوا يعرفون القيمة الحقيقية لهذا المعدن، أثناء استبداله بعملة أو ببضاعة، و هذا مقابل المسؤوليات التي أوكلت لهم من طرف التجار المسلمين أو غيرهم ⁽¹⁾ فازداد ثراؤهم و نجحهم في فاس الذي يعود إلى عملهم في الصياغة والصيرفة ⁽²⁾. و يشير الاستاذ مسعود كواتي إلى ذلك قائلا : " شارك اليهود في النشاط الصناعي في المغرب الإسلامي بصورة واضحة، إذ اقتصر بعض الصناعات على اليهود، و منها صناعة الذهب و الفضة و النحاس و معظم الصاغة في المغرب من اليهود ⁽³⁾."

هذه المهارة التي اكتسبوها في صناعة الذهب جعلت منهم المراقبين الأولين لأسواق الذهب والملح، ليكون تركزهم في كل من فاس و سجلماسة و تمتيط أكبر دليل على ذلك، وعلى ممارستهم لحرفة الصياغة ⁽⁴⁾. كما يعود ثراء اليهود و نجحهم في ممارسة النشاط التجاري بشكل محكم إلى عملهم في الصياغة و الصيرفة، على حسب قول عز الدين أحمد موسى ⁽⁵⁾.

لقد لاحظت أن اشتغال اليهود في صناعة المعادن الثمينة لا يقتصر على صناعة المجوهرات و الأواني المذهبة بل تعداه إلى صناعة النقود فما قام به يهود درعة يكفي للدلالة على ذلك حيث كان يهود تُدغّه مختصين في صناعة المعادن و ضرب العملة. و يذكر جاك مونيي MEUNIE استنادا على مخطوط شط المخزن أنه خلال المحاولات التي قام بها مسلمو تافيلالت لغزو وادي درعة لجأ ملك اليهود إلى قبيلة القيروانيين بفاس لاستئجار اثني عشر ألف محارب بعملة ذهبية لصد المسلمين. لم يعرف تحت اسم من ضربت هذه العملة لكن يحاول أن يؤكد أن العملة الذهبية التي أراد أن يستأجر بها المحاربين هي عملة يهود درعة و من صنعهم خاصة عندما يقول : " كان لليهود في سجلماسة و باقي المغرب الأقصى مكانة معتبرة في تجارة المعادن الثمينة و صناعة النقود حيث كانوا يتحكمون في صناعة الذهب و الصيرفة و جمع الضرائب و المكوس ⁽⁶⁾."

1. CHOURAQUI (A.), « Les Juifs de l'Afrique du Nord », p.147.
2. أحمد موسى (عز الدين)، "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي"، ص.109.
3. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص.147.
4. OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat », pp. 38-58.
5. أحمد موسى (عز الدين)، المرجع السابق، ص.109.
6. MEUNIE (J.), « Le Maroc Saharien, des origines au XVI », pp. 225-226.

و هذا ما ميز حياتهم الاقتصادية في البلاد الإسلامية، فضرب العملة لا يعتبر حرفة صناعية فقط، بل مالية أيضا، لذا استفاد منها اليهود بشكل كبير جدا، خاصة بعد ان احتكروا أسواقها، و عرفوا قيمتها في مختلف البلدان. عندما يباشر اليهود صناعة العملة يتنبه إلى كل الذرات الدقيقة أو شذرات الذهب التي تتناثر هنا و هناك أثناء صهر المعدن أو تحويله إلى عملة. فالاحتفاظ بهذه البقايا يعني تحويلها إلى مجوهرات أو أشكال أخرى⁽¹⁾. لكن رغم هذا لم يبق اليهودي في انتظار ما تسفر عنه صفقات البيع من ربح أو بقايا صناعته، بل يلجأ إلى أسهل وسيلة يراها الأفضل في الحصول على الربح السريع والتي تحقق له عملية الاحتكار التي كان يصبو إليها، و التي أملت عليها تلك "المبادئ المقدسة" التي يراها تنبعث من بريق العجل الذهبي المقدس، أو من بين ثنايا أسطر التلمود أو بروتوكولات صهيون. تتمثل هذه العملية في ظاهرة الغش التي كثيرا ما عانى منها العالم الإسلامي عامة والمغرب خاصة، و التي ارتبطت بشكل وثيق بعملية الربا، هذه الصفة التي حرمت على المسلمين دون استثناء تبناها اليهود بكل بساطة وإيمان، حتى أن أحبارهم يبيحون لهم الغش و يكذبون لهم على أنبيائهم في وجوه إباحته بالرغم من عدم صحة هذا الأمر في مذهبهم القديم⁽²⁾.

و قد انقطعت صلتهم بمعنى الدين و سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي، لأن شهواتهم الغالبة مؤثرة على عقيدة التوحيد و أحكام التوراة، ولذا فهم، أي اليهود، شعب نشيط، وهم حيث حلوا يبدلون جهودا معتبرة للسيطرة على زمام التوجيه المالي، و لا يبالون بأساليب القتل و المكر لبلوغ أهدافهم⁽³⁾.

1. BENAYOUN (Ch.), « Les Juifs et l'économie... » par BENAYOUN (Ch.), MEDAIN (A.), JACQUES ROJMAN (P.), Presse Universitaire du Murail, Toulouse, 1992, p.44.

2. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص. 118.

3. الغزالي (محمد) "فتنه السيرة"، الجزائر، مكتبة رحاب بور سعيد، 1989، ص.ص 145-243.

هذا ما دفعهم إلى امتهان هذه الحرف التي تتصل بشكل مباشر بمعدن الذهب، ويؤكد ذلك أبي الحسن قائلا : " إن سبب دخول أهل الذمة في الصياغة و المصارفة حدث لما اتسع نطاق ملك المغرب، رسمت همة أمرائه أن يتميز مكانهم بالأمثلة والأسلحة المصنوعة من الذهب و الفضة والمموهة بهما، و المكلفة بالأحجار النفيسة الرفيعة، أهبة للإسلام و نكاية لعبدة الأصنام، استدعوا من سائر الأفاق و الأصقاع، و اجتمع منهم جملة وافرة، فأبدعوا الصنائع العجيبة الفائزة، فداخلهم إذ ذاك الذمة من اليهود و خادموهم بالخدمة الظاهرة والباطنة وسرقوا لهم صناعتهم و صياغتهم" (1).

لقد أشار الونشريسي ولو في فترة متأخرة أن اليهود كانوا يشتغلون غالبا بالمغرب خطة أو وظيفة الصرف ببيت مال المسلمين لخبرتهم في أعمال الصيرفة والحسابات المالية (2).

كما أشار الحميري إلى هذه الصفات التي كانت منتشرة بين يهود سجلماسة قائلا : " وسبب تسخير أهل سجلماسة لليهود في ذلك أي في صناعة البناء كونهم محبين في سكنى بلادهم للاكتساب، لما علموا أن التبر بها أمكن منه غيرها في بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه، فهم يعاملون التجار به ليخدعهم بالسرقة و أنواع الخداع" (3). و هذا ربما ما دفع المسلمين إلى الابتعاد عن امتهان هذه الحرف، أي خوفا من الوقوع في المحضورات (4)، إضافة إلى أنهم لم يرضوا أن يكون أولادهم خدما لأهل الذمة، لذا انفرد بها أهل الذمة من اليهود و اختصوا بها وأقاموا بها سوقا (5). رغم إلحاح جل الفقهاء إلى عدم توكيل مثل هذه المهام إلى أهل الذمة، ولقد نبهنا عمر رضي الله عنه إلى هذا الأمر قائلا : " لا تبيع الأعاجم في سوقنا إلى أن يتفقهوا في الدين و هي أحق التجارات بأهل العلم و الفضل". و عن نقولا زيادة، نقلا عن أبي عبدون إذا كان أصل الأثمان : الذهب و الفضة، و مرجعهما إلى أهل

1. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص.ص 117-118.

2. أبو مصطفى (كمال) "جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي"، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1997، 85 ص.

3. الحميري، المصدر السابق، ص. 306.

4. CHOURAQUI (A.), « Les Juifs en Afrique du Nord », p.142.

5. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص. 118.

الصرف في الغالب، فمن النظر إلى ذلك ألا يستعمل فيه ذميا و لا متهما في كسبه⁽¹⁾. و هذا بسبب المعرفة الدقيقة لهذه الصفات التي اتصف بها أهل الذمة من اليهود، و يؤكد المغيلي هذا القول مشيرا إلى " أن كل ما زعموا أنهم ذبحوه لنا فهو جيفة، و كل ما زعموا أنهم صرفوه لنا فهو ربا" و "على المسلم ألا يقرب كافرا من نفسه أو عياله، أو يستعمله في أعماله و يجعل بيده شيئا من ملكه، إلا من لا دين له و لا عقل و لا مروءة"⁽²⁾.

وجاءت أحاديث الرسول (ص) واضحة المعالم في التعامل بهذا المعدن الثمين تفاديا للوقوع في المحذور، فقال (ص): " لا يباع مثقال ذهب عین بمثقال و شيء من تبر غير مضروب، و كذلك حرم التفاوت بين المضروب من الفضة و غير المضروب منها"⁽³⁾. و في حديث آخر في استبدال القطع الثمينة بالقطع التلثية، قال: "أنه لا يشف بعضها عن بعض، فإن شف صار ربا"، لأن الذهب يتفاضل حينئذ⁽⁴⁾.

و من هنا يأتي حكمه (ص) على أكل الربا و موكله و كاتبه و شاهده، و المعلوم من الفقه أن كل من استحل الربا فهو كافر، حلال سفك دمه، فإن تاب و إلا قتل⁽⁵⁾. و عن الإمام مالك رضي الله عنه، فقد أشار إلى البعض من هذه الأحكام بقوله: " لا يجوز بيع درهم زائف أو ستوق بدرهم فضة وزنا بوزن لأن ذلك داعية لإدخال الغش على المسلمين"⁽⁶⁾. وانتشار مثل هذه الصفات بالرغم من محاربة الإسلام لها، يعود و بكل تأكيد إلى سماحة الدين الإسلامي، الذي لم يعط للذميين حرية الدين و الثقافة فحسب، بل منح لهم في جميع مسائل حياتهم الاستقلال التام، و كان الرسول (ص) مرة أخرى قدوة حسنة في ذلك عندما حدد طبيعة المعاملة مع اليهود قائلا: " من أذى ذميا فقد آذاني، و من آذاني فقد آذى الله"، كما

-
1. زيادة (نقولا)، "الحسبة و المحتسب في الإسلام"، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1963، ص 141.
 2. المغيلي، "مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، تحقيق بونار (رابح)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1986، ص 31-43.
 3. القرطبي، "جامع الأحكام الفقهية"، جمع و تصنيف فريد عبد العزيز الجندي، ج.2، ط.1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1414هـ/1994، ص.14.
 4. ابن رشد، "فتاوى ابن رشد"، جمع و تعليق المختار بن طاهر التليلي، السفر الأول، ط.1، بيروت، دار الطبع الإسلامي، 1407هـ/1987م، ص.571.
 5. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص. 117.
 6. الإمام مالك، "المدونة الكبرى"، م.3، بيروت، دار صادر، ص. 444.

أنه (ص) يبرأ إلى الله ممن قتل ذمياً أو كافراً، ويعلن : " من ظلم معاهداً أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة " و كانت له سنن في التعامل معهم فكانوا يسلمون ⁽¹⁾.

إلا أن الأوضاع تختلف تماماً في المغرب الإسلامي عن تلك التي كان الرسول (ص) يعيشها مع أهل الذمة، فحدث أن تسامح أمراء المغرب معهم بالكيفية التي سهلت لهم مهامهم، وحقت لهم أهدافهم و أغراضهم. و يشير الونشريسي إلى ذلك قائلاً : " أن ولاية الأمر في البلدان المغربية كانوا يعتمدون على ما كان اليهود يقولونه حول الصيرفة، و الحسابات المالية و وزن الدنانير المقبوضة إلخ.. و يكتبونه في سجلاتهم رغم أن الفقهاء أو أهل الفتوى كانوا يحثونهم دائماً على عدم إبقاء اليهود في العمل ببيت مال المسلمين " ⁽²⁾.

و السؤال يبقى مطروحاً حول الأسباب التي جعلت حكام البلاد المغربية على الخصوص يتسامحون مع أهل الذمة في مثل هذه الحرف التي حددها الإسلام و نهي عن استخدام اليهود فيها، باستثناء معاملات المرابطين و الموحدين لهم، خاصة و أن بعض الكتابات أشارت إلى العديد من عمليات الغش التي كان يلجأ إليها اليهود لسرقة الذهب و الحصول على الربا. و من أهم هذه العمليات ما حدث في دار سكة سجلماسة، عندما أخذت بعض الذهب الطيبة و غيرت، ظهر في عبارها ضعف كثير أدخل الريية في الأمين و شاهديه، و رفع ذلك لمن يجتهد فيه، فأحضر اليهود الذين سبكوه فاعترفوا بغشهم لها، بالاعتماد على الطريقة التالية : أخذ أحدهم قطعة من الفحم جعل في جوفها جزءاً من الفضة، و بعد تذويب الذهب أخذ منه مقدار الفضة. أما عن وزن الذهب، فكان اليهودي يستعمل حيلة* أخرى، أكدت على مكرهم و شدة خداعهم للمسلمين و غيرهم. فلقد عثر بيد أحد اليهود على حبات من شعير أعدها ليزن بها، فاقمهم أحد النبلاء لثقل إحداهن، فاخترها فإذا في جوفها أطراف من حديد ركزها فيها، بعد أن رطبها بالماء و جففها ⁽³⁾.

1. الجندي (عبد الحليم) " الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي "، القاهرة، دار المعارف، 1997، ص ص. 262-263.

2. أبو مصطفى (كمال) "جوانب من حضارة المغرب الإسلامي - من خلال نوازل الونشريسي"، ص. 85.

* كانت هذه العملية تسمى في لغتهم بالمعمرة، و هذه الحيلة للغش في الوزن كانت منتشرة بين التجار، و منهم من يربط القمح و الشعير فإذا رطب غرز فيه إبر الحديد و أخفى مغارزها ليوهم عند القبض أن الشعير على أصله، و كذلك يجعلون في قلب النواة من الخروب و غيره.

3. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص ص. 61-63.

و كان اليهودي إذا قبض لنفسه وزن بالتي فيها أطراف الإبر، و إذا وزن لغيره وزن بالتي لا إبر فيها ⁽¹⁾. و ربما كانت هناك حيل وطرق أخرى لجأ إليها اليهود للحصول على هذا المعدن الأصفر و احتكاره ضمن ممتلكاته التي ميزته عن بقية العناصر البشرية الأخرى.

و أجد ما أشار إليه الإمام الغزالي جواباً يمكن قبوله قبل إصدار أحكام أخرى على تصرفاتهم هذه التي لا تمت بصلة لأية عقيدة. و يقول: " و قد ألفوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد، و خشوا أن يغنوا إذا اشتبكوا معهم في صراع ساخر، فاحتالوا حتى زرعو الضغائن بين الأقرباء، و مازلوا بها حتى أتت ثمرها المر، فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً في سلسلة متصلة من المعارك التي لا مبرر لها، على حين قوى اليهود و تكاثروا، و تمت ثرواتهم، و استحكمت حصونهم و ضيق سطوهم " ⁽²⁾.

فمن خلال ما ورد في تحليل موضوع علاقة اليهود بمعدن الذهب يمكن لي استنتاج أمرين أساسيين وهما، أولاً: أن اليهود لجئوا إلى تقديس الذهب وفق المبادئ التي أملاها عليهم تاريخ بنو إسرائيل و نظرتهم الروحية إلى تمثال العجل الذهبي. ثانياً: أن اليهود استخدموا كل الطرق و الحيل لاحتكار الذهب و الاستحواذ عليه من أجل استخدامه فيما تمليه عليهم عقيدتهم واهدافهم. كما يمكن لي أن استنتج أن هناك علاقة بين ما حدث في الماضي و ما يحدث اليوم، فيما يخص احتكار الذهب، فهم اليوم سادة أسواق الذهب و بنوكه.

1. أبو الحسن (ابن علي ابن يوسف الحكيم)، المصدر السابق، ص. 61-62.

2. الغزالي "فقه السيرة"، ص. 144.

ب. اهتمام اليهود بتجارة الذهب

لقد سبق أن تطرقت إلى موضوع تجارة ذهب السودان و اهتمام المغرب الإسلامي بها، خاصة بعد الفتح الإسلامي للمغرب الذي أعطى للتجار العرب و البربر دفعا قويا لممارسة نشاطهم التجاري، و الذي بفضلهم اكتست هذه التجارة طابعا اقتصاديا مميزا. أما قبل هذه الفترة، أي فترة ازدهار النشاط التجاري بين المغرب و إفريقيا فلم يشر إليها بشكل يوضح حالة هذه التجارة بدقة. لكن بالنسبة لما ذكره هيرودوت فيما يخص وجود تجارة الذهب جنوب المغرب الأقصى و التي سبق ذكرها، فالأمر يختلف خاصة إذا تعلق الأمر بدراسة العنصر اليهودي. هذا ما يمكن أن يكون جوابا عن الأسئلة التي راودت العديد من الباحثين و هي : إذا لم يتوغل الرومان في الصحراء و لم يمارسوا تجارة الذهب السوداني، فمن مارسها ياترى ؟

يقودني هذا السؤال إلى البدايات الأولى لعلاقة اليهود بتجارة هذا المعدن الأصفر، فبعد تحطيم هيكل سليمان، حطت الجماعات اليهودية رحالها على ساحل المحيط الأطلسي، عام 361 ق.م، لتسفر عن ميلاد أقدم مملكة يهودية عرفها المغرب و هي مملكة إفران* . و منطقة إفران هذه، ليست الوحيدة التي أوت الجماعات اليهودية، بل كانت هناك منطقة أخرى لا تقل أهمية عنها و هي درعة، التي أعطت ميلاد مملكة يهود درعة خلال القرن 5 م، و هذا بعد صراع طويل دام قرونا للسيطرة على السكان الأصليين للمنطقة و هم سود يلقبون بأيت درعة أو الدراوة، و الذين طردوا منها⁽¹⁾.

* إفران : إفران أو أفري، معناها بالبربرية الكهوف أو المغارات.
1. MEUNIE (J.), « Le Maroc saharien », pp.60-61.

فإذا كان اليهود قد استقروا في كل من درعة و إفران بعد تدمير هيكل سليمان بفترات وجيزة، فهذا معناه أنهم مارسوا فعلا تجارة الذهب. و تعتبر إشارة هيرودوت خلال القرن 5 ق.م، لهذا النوع من التجارة، أقرب إلى الفترة الزمنية التي وجدت فيها هذه الممالك جنوب المغرب الأقصى في كل من درعة و إفران. و لتدعيم هذا الاستنتاج أعود إلى ما ذكره GOLDENBERG، في قوله أن يهود سالا* "Sala" مارسوا تجارة الذهب مع الفينيقيين منذ القرن 4 ق.م، و أصبحت منطقة جنوب الأطلس مركزا مخصصا لتصدير الملح و الذهب عبر موانئ المحيط الأطلسي، هذه البضائع التي كان يأتي بها اليهود من الجنوب (1).

هذا ما يؤكد اهتمام اليهود بمعدن الذهب و تجارته عبر الصحراء، خاصة من خلال أدائهم لدور كبير في تنشيط التجارة الصحراوية، ليكون بذلك الهدف راضحا بنقلهم لبضائع نادرة وقيمة إلى إفريقيا، تضاهي قيمتها قيمة معدن الذهب. ظهور "يهود ملاح"، أي اليهود المختصين في تجارة الملح، أكبر دليل على احتكارهم لأهم بضاعة استبدلت بمعدن الذهب.

أما خلال القرن الثالث الهجري، فبعد أن نشطت التجارة بين المغرب و إفريقيا، اشتهر اليهود بتجارة الذهب، حيث اكتشفوا أسرار نجاحها و طرقها المربحة (2). و يؤكد الأستاذ مسعود كواقي ذلك قائلا: "أن الأعمال التجارية التي اشتغل بها اليهود في المغرب الإسلامي كانت تجارة الذهب المستخرج من السودان" (3). ومن بين العوامل التي سهلت لهم هذه المهام، الاستقرار في المحطات الكبرى لهذه التجارة و بوابات إفريقيا، منها سجلماسة، التي برر الحميري وجودهم فيها بما يلي: "لما علموا أن التبر بها أمكن منه غيرها في بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه، فهم يعاملون التجار به ليخدعوههم بالسرقة و أنواع الخداع" (4). كما كانت سجلماسة أكبر سوق للذهب و الملح قبل سنة 349 هـ/960 م، حيث ضربت قطعاً ذهبية و فضية (5).

* سالا : تمثل اليوم منطقة شلاح بالرباط عاصمة المغرب الأقصى.

1. أنظر : GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p 53.
2. أحمد (علي) "اليهود في الأندلس و المغرب خلال العصور الوسطى"، جامعة دمشق، ص.166.
3. كواقي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص 142.
4. الحميري : "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق إحسان عباس، ط.2، مكتبة لبنان، 1984، ص 306.
5. GOLDENBERG (A.), op.cit, p 64.

أما المحطة الثانية التي حافظت على سمعة اليهود فكانت تنطيط، التي لا داعي لذكر أهميتها من حيث الموقع و تركز اليهود فيها، بل من حيث إيوائها لتلك الجماعة اليهودية التي أشرفت على تحويل الذهب الذي كانت تنقله القوافل⁽¹⁾. فكيف لا يمارس اليهود صناعة الذهب وهم يشرفون على القوافل الناقلة للذهب من السودان، و كيف لا يمارسون تجارة الذهب و هم يتصلون بكل التجمعات اليهودية الأخرى المنتشرة في الصحراء كسجلماسة، وسوسة و درعة، و ولاتة و السودان⁽²⁾. و أعتبر إشارة البكري إلى تركز هذه الجماعات جنوب الصحراء أكبر دليل على استقرار هذه الجماعات في أهم المراكز التي أشرفت على تجارة الذهب، خاصة عند ذكره ليهود منطقة جادو⁽³⁾، هذه المنطقة التي اعتبرها المؤرخون العاصمة السياسية و الإدارية لجبل نفوسة. و أن القوافل التي تنطلق من طرابلس باتجاه زويلة و فزان كانت تمر بها⁽⁴⁾.

و لم يتوقف نشاط اليهود على تجارة الذهب طول مدة استقرارهم في الصحراء الكبرى و على معرفتهم لأكبر المحطات التجارية، بل تعدوا ذلك، حيث دخلوا إلى السودان الغربي كما سبق ذكره وانتشروا فيه. فوجدوهم المكثف أيام إمبراطورية غانة في المدن، ومارستهم لصناعة الذهب والحدادة⁽⁵⁾ لدليل لاحتكار اليهود لذهب السودان الغربي ومارستهم لتجارته والإشراف على صناعته. و من خلال ما ورد في هذا التحليل يمكن لي أن استنتج أن العناصر اليهودية اهتمت بتجارة الذهب و مارستها عن قرب، بعد أن ساهمت عدة عوامل في تبسيط السبيل إليها.

1. أنظر : GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p 64.

2. أنظر : OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat », 39 p.

3. البكري، المصدر السابق، ص.9.

4. فحار (إبراهيم)، تجارة القوافل في العصر الوسيط و دور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى، ص 47.

5. أنظر : CISSOKO (S.M.), Op-cit, p 20.

و لم يعد في الأمر من شك، إذ أصبحت عبارة طرق الذهب تعني طرق اليهود⁽¹⁾، بسبب ارتباطهم بهذا المعدن و معرفتهم للسبل التي تؤدي إليه. و ربما هذا ما دفع اليهود في فترات متقدمة من العصور الوسطى، إلى احتكار تجارة بعض المنتجات، خاصة في الفترة الممتدة بين القرنين 14 و 15م، أين كانوا يحتكرون تصدير الحبوب من الجزائر إلى الخارج و أين برز يهود توات كوسطاء تجاريين مع إفريقيا السوداء التي كانت لهم علاقات تجارية بيهود وهران و تلمسان و هذا باستبداهم لريش النعام و التبر مقابل القمح و النحاس⁽²⁾.

و ما يمكن استنتاجه من خلال تحليل هذا العنصر، هو أنه بمجرد الإشارة إلى وجود اليهود في الصحراء و السودان الغربي و المدن المغربية الكبرى، يمكن معرفة طبيعة الخريطة الاقتصادية التي رسمها اليهود لنشاطهم التجاري أين أصبح ذهب السودان الغربي محورها الرئيسي بشكل لا يدعو إلى الغرابة. ذلك بالرغم من تراجع دورهم هذا بشكل ملحوظ أيام المرابطين الذين توسعوا حتى إفريقيا خاصة بعد أن احتكروا هذا القطاع و أظهروا مدى مقدرتهم على التحكم فيه، بفضل أصولهم الصحراوية و قوتهم السياسية و التنظيمية، خاصة بعد أن طردوا من معظم مراكز الذهب التجارية الحساسة بالصحراء، نظرا للتشدد المرابطي الديني، و عدم ثقتهم فيهم⁽³⁾.

و مما تجدر الإشارة إليه، حصول يوسف ابن تاشفين عام 464 هـ/ 1071 م، من يهود مراکش و وهران و تلمسان و تنس، على مائة ألف 100.000 دينار ذهبي لمحاربة مسيحيي إسبانيا⁽⁴⁾. و خلاصة القول أنه بالرغم من سوء العلاقة بين اليهود و المرابطين و بالرغم من الدور الكبير الذي لعبه اليهود في تجارة الذهب، لا يمكنني التسليم ببول كل من AYOUN و COHEN الذان ذهبا إلى أبعد ما تفسره حقيقة الوجود اليهودي في المغرب الإسلامي و طبيعة علاقاتهم بمعدن ذهب السودان الغربي و الذي يشير إلى أن أسباب انهيار اقتصاد المغرب الإسلامي يعود إلى تعصب سياسة كل من المرابطين و الموحيدين تجاه اليهود⁽⁵⁾ دون الأخذ بعين الاعتبار حقيقة تاريخ هذا العنصر منذ أن وطأت أقدامه أرض المغرب.

1. انظر : NACIB (Y.), « Cultures Oasiennes », p.200.

2. سعد الله (فوزي) "يهود الجزائر"، ص75.

3. نفسه، ص73

4. AYOUN (R.) « Les Juifs d'Algérie », p.69.

5. Ibid, p.71

من خلال ما سبق دراسته يتضح أن الذهب كان يشكل إحدى البضائع التي زخرت بها أسواق المغرب الإسلامي في الفترة الممتدة ما بين القرنين الثالث و الخامس الهجري، الموافق للتاسع و الحادي عشر ميلادي. هذه الفترة التي يمكنني القول عنها أنها فترة العصر الذهبي، لما حققته تجارة الذهب من توسع و ازدهار ناهيك عن اهتمام الحكام بها، إضافة إلى كون هذه التجارة استطاعت أن تتجاوز كل الصراعات و الخلافات التي عرفتها دول المغرب سواء من أجل الاستحواذ على مسالك تجارة هذا المعدن، أو من أجل تحقيق أغراض أيديولوجية و سياسة، بدليل عدم تسجيل أي توقف عن استمراريتها. فانتقال مركز التجارة من الشرق إلى الغرب، لدليل على الرغبة في الحفاظ عليها ودوام نشاطها. وانتقال سجل ماسة من سلطة بني مدرار إلى الفاطميين ثم المرابطين، لبرهان آخر على أهمية هذا المركز التجاري الذي شكل أهم بوابات السودان على طون الطريق الغربي الذي ربط سجل ماسة بغانة. و لن أبالغ إذا قلت أن تجارة الذهب هذه، استطاعت أن تخلق وحدة اقتصادية بين شعوب المغرب و السودان الغربي، بل حتى بين المغرب و الشرق و الأندلس.

هذه الوحدة التي حققتها إرادة الجماعات التي تنقلت عبر مفازات الصحراء، والتي عرفت كيف تخضع لإرادتها الصحراء و ما تحتويه، بشق الطرقات و حفر الآبار و معرفة تقلبات الجو و الزوابع الرملية، و الاهتمام بالجمل الذي شكل الضمانة الأساسية لهذه التجارة العابرة للصحراء الكبرى.

و لا غرابة إذا اعتبر العامل الديني و المادي هما المحركان الأساسيان لهذه الإرادة الجماعية، و التي كانت من أجل استكمال الدعوة الإسلامية و الاستحواذ على معدن الذهب، و بالتحديد في هذه الفترة التي كان فيها العالم الإسلامي في أمس الحاجة إلى ثروة الذهب، لفرض سيادته و بسط نفوذه عبر القارات و المحيطات.

و كانت كميات الذهب التي جلبها التجار المسلمون من السودان الغربي مؤشرا حقيقيا لمستقبل الاستعمار في أفريقيا. فاستجابة ذهب السودان لتحقيق مطالب حكام المغرب وقرطبة و بغداد في ضرب الدينار الذهبي، كان عاملا آثار رغبة العديد من الأنظمة غير الإسلامية كالغرب المسيحي الذي حاول مرارا كيف يسترجع عملته الذهبية التي فقدتها منذ القرن التاسع للميلاد، أمام قوة المسلمين العسكرية، التي رهنت قدراتها بالقدرات الاقتصادية هذه التي تمثلت في ثروة سمحت لها أن تحمي المغرب الإسلامي لفترة زمنية طويلة. و بدت هذه القوة أيام المرابطين واضحة المعالم، خاصة لما حققوه من انتصارات في معركة زلاقة، على القوى المسيحية التي حاولت مرارا استرجاع مكانتها الاقتصادية، للاستحواذ على مرافق في بحر الروم الذي كان محالا تنقل فيه ذهب السودان بشكل يثير الدهشة و الإعجاب. كما استطاعت ثروة السودان الغربي، المتمثلة في الذهب، أن تجعل من ممالك السودان الغربي قوة عسكرية لا يستهان بها. فاستمرار حكم سلطة غانة من القرن الثالث إلى غاية القرن الحادي عشر، دليل على الدور الذي لعبه معدن الذهب في تثبيت سلطتهم، و قوة منافستهم للحيران الذين حاولوا مرارا الاستيلاء على مناجم الذهب. وبفضل ذهب السودان شكلت القافلة التنظيم البشرية الذي عرف كيف يخلق انسجاما في العمل و وحدة في التفكير، تاركا وراءه كل التزايدات المذهبية و الاختلافات الجنسية والجهوية. فلم يكن تجار البصرة و الكوفة بغرباء في سجلماسة، كما لم يكن تجار تاهرت وتلمسان و ورقلة بالغرباء في جاو. و ما مشاركة اليهود لهذه الفرق من التجار في رحلتهم، سوى دليلا على مدى قوة الانسجام الذي عرفته " قافلة الذهب " و من جهة أخرى أكدت مشاركة التجار اليهود في هذه التجارة على اهتمامهم المبكر بمعدن الذهب و المناطق المنتجة له.

و بهذا الشكل يمكن لهذه الدراسة أن تكون نافذة علمية فتحتها على موضوع ما زالت آفاق دراسته بعيدة و أهميته أكبر. لأنني لم أقدم سوى لمحة وجيزة عن هذا الموضوع، الذي حاولت فيه الإلمام بالعناصر المشكلة له، التي بإمكانها أن تحفز في المستقبل على إنجاز أبحاث علمية أكاديمية في مستوى الدراسات العليا. و من أمثلة هذه المواضيع : موضوع الذهب و البحر الأبيض المتوسط، خاصة و أنني تفاديت موضوع تجارة الذهب و الأندلس، ليس من باب الإهمال أو التقصير و لكن لشساعة هذا الموضوع و لكونه يكتسي أهمية تاريخية بالغة.

و إذا حاولت أن أوضح أكثر هذه الفكرة، أقول أنه من الضروري مواصلة هذه الدراسة و البحث في مواضيعه، من خلال طرح عدة إشكاليات، و من أهمها كيف استمر وصول معدن ذهب السودان إلى البحر المتوسط دون اجتياز أقطار المغرب ؟ هل هذا يعود فعلا إلى تقلص نشاط اليهود التجاري في هذه الأقطار، خاصة بعد هجرتهم لأكثر مدن المغرب، كفاس و تاهرت و القيروان وغيرها، بسبب ما تعرضوا له من محن أيام المرابطين و الموحدين، أم لأن هناك وضع آخر تمثل في عدم رغبة اليهود في البقاء، بإيجادهم لبديل أحسن تمثل في مدن إيطاليا التي أصبحت تستقطب ذهب السودان عن طريق المحيط الأطلسي. و ما هو الدور الذي لعبه اليهود في تحريف طريق الذهب عبر المحيط الأطلسي، وما مدى مساعدتهم للبرتغاليين في اكتشاف ساحل غينيا لاستغلال الذهب و استمالة الأفارقة لصالحهم. و لماذا لم ينجح المسلمون في الاحتفاظ بهذه الثروة لصالحهم و لصالح خدمة مصالحهم داخل القارة الأفريقية. أم لأن تذوق الأفارقة للنمط الغربي دفعهم إلى تقبل عرض المسيحية دون الإسلام. و لما لا أقول أن التاجر الذي لعب دور الداعي، حدد مهامه بمجرد الحصول على الذهب الذي كان من أجله يجتاز الصحراء و يتحدى مخاطرها. أم أن هناك عدة مشاكل حساسة دفعت بالمغرب الإسلامي إلى أن ينهار بعيدا عن اختفاء معدن الذهب من أسواقه و من مراكز ضرب عملته.

رغم كل هذا تبقى فترة القرن الثالث و الخامس الهجري من أزهى فترات ازدهار
تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي، باستيراد كميات كبيرة من الذهب إلى
المغرب، و التي عادت بالفائدة الكبرى على دور ضرب العملة المغربية. فعالمية وجودة ذهب
السودان الغربي جعلت من المغرب المستفيد الأول، وجسرا للعبور إلى بقية مناطق العالم الأخرى
كالأندلس، المشرق و العالم الغربي. و يكفي لذهب السودان فضلا فيما حققه الدينار المرابطي من
شهرة، و ما حققه المعز لدين الله الفاطمي من انتصار ببناء القاهرة، الذي لولا ذهب السودان
الغربي، ما كان له أن يحقق حلمه و حلم أجداده و هو قهر أعدائهم العباسيين باستقرار دولة
الفاطميين بمصر.

ثبت بالمصادر و المراجع

المصادر و المراجع العربية

أ. المصادر العربية

1. الإدريسي (أبو عبيد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي)، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الأول، ط.1، بيروت، عالم الكتب، 1409 هـ/1989 م.
2. ابن أبي زرع، ' "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و مدينة فأس"، بدون سنة و دار الطبع.
3. ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمداني)، "مختصر كتاب البلدان"، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، سنة 1302.
4. ابن بطوطة (محمد ابن عبد الله)، "تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار"، المكتبة التجارية، بدون سنة الطبع، ص 141.
5. ابن حوقل (أبو القاسم محمد ابن العلي الموصلي)، توفي 367 هـ/977م "صورة الأرض"، بيروت، لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة، بدون سنة الطبع.
6. ابن خرداذبة (ابن القاسم عبيد الله)، "المسالك و الممالك"، ط.1، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1408 هـ/1988.
7. ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد)، "كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، ط.1، ج.1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعة، 1996.
8. ابن سعيد المغربي (أبي الحسن علي بن موسى)، "كتاب الجغرافيا"، تحقيق إسماعيل العربي، ط.2، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

9. ابن عذاري (أبو عبد الله محمد المراكشي)، " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب"، ج.1-4، ط.5، تحقيق إحسان عبد القدوس، بيروت، لبنان، دار الثقافة، 1414هـ/1998م.
10. البشاري (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي)، " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1408 هـ/1987م.
11. البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)، " المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب -جزء من كتاب المسالك و الممالك-"، باريس، نشر ديكيين دو سنان، 1965.
12. البلاذري (أحمد ابن يحيى جابر)، "فتوح البلدان"، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، 1956، ص. 268.
13. الحموي (ياقوت)، "معجم البلدان"،
14. الحميري (محمد ابن عبد المنعم)، " الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق د. إحسان عباس، ط.2، لبنان، مكتبة لبنان، 1984.
15. الدمشقي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري المعروف بشيخ الربوة)، " نخبة الدهر في عجائب البر و البحر"، ط.2، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1419 هـ/1998م.
16. الرعييني القيرواني (محمد ابن أبي القاسم المعروف بابن أبي دينار)، " المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس"، ط.3، بيروت، لبنان، دار المسيرة للصحافة و الطباعة و النشر، 1993.
17. الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر)، " كتاب الجغرافيا"، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1990.
18. عماد الدين (إدريس الداعي) توفي سنة 872 هـ/1488 م، " عيون الأخبار"، الجزء الخاص بتاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق محمد اليعلاوي، ط.1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1985.
19. القاضي (النعمان بن محمد)، " كتاب افتتاح الدعوة" تم تأليفه سنة 346هـ/957م، تحقيق فرحات الدشراري، ط.2، تونس- الشركة التونسية للتوزيع، و الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.
20. المغيلي، " مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، تحقيق رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1986.

21. اليعقوبي (أحمد ابن أبي يعقوب بن واضح)، "كتاب البلدان"، السلسلة الجغرافية، ط.1، دار إحياء التراث العربي، 1408هـ/1988م.

ب. المصادر الفقهية

1. ابن رشد، "فتاوى ابن رشد"، جمع و تعليق مختار بن طاهر التليلي ، السفر الأول، ط.1، بيروت، دار الطبع الإسلامي، 1987.
2. الغزالي (محمد)، "فقه السيرة"، الجزائر، بور سعيد، مكتبة رحاب، 1989.
3. الونشريسي، "المعيار العرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا و الأندلس والمغرب"، ج.6، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1401 هـ/1981م.
4. القرطبي، "جامع الأحكام الفقهية"، جمع و تصنيف فريد عبد العزيز الجندي، ج.1، ط.1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1994.

ت. المراجع الحديثة

1. أبو مصطفى (كمال)، "جوانب من حضارة المغرب الإسلامي - من خلال نوازل الونشريسي - الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1998.
2. أحمد باي (حسين)، "سلع التجارة الصحراوية - الصحراء الكبرى"، إعداد عماد الدين غانم، ليبيا، طرابلس، 1979.
3. أحمد علي "اليهود في الأندلس و المغرب خلال العصور الوسطى"، .
4. أحمد موسى (عز الدين)، "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي - خلال القرن السادس الهجري -"، ط.1، بيروت، دار الشروق، 1403هـ/1983م.
5. ابن قربة (صالح)، "المسكوكات المغربية - من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد -"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.
6. ابن مهنأ (آل علي محمد)، "أصالة الإسلام في مواجهة التحدي الفكري"، ط.1، الرياض، دار المؤيد، 1998.
7. اسماعيل (العربي)، "الصحراء الكبرى و شواطئها"، سلسلة الدراسات الكبرى، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
8. باشا (نجاة)، "التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى الثامن هـ"، تونس، منشورات الجامعة التونسية، كلية العلوم الإنسانية، 1976.
9. بحاز (إبراهيم كبير)، "الدولة الرستمية 160-296 هـ/777-909 م"، دراسة في الأوضاع الاقتصادية و الفكرية، ط.1، الجزائر، مطبعة لافوميك، 1985.
10. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ط.2، ترجمة د. الهادي أبو لقمة و د. محمد عزيز، بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، 1988.
11. التميمي (عبد الملك خلف)، "الخليج العربي و المغرب العربي - دراسات في التاريخ السياسي و الاجتماعي والاقتصادي -"، ط.1، بيروت، دار الشباب للنشر، 1986.
12. حرجي (زيدان)، "تاريخ التمدن الإسلامي"، ج.1، بيروت، دار الهلال، بدون سنة الطبع.
13. الجنحاني (حبيب)، "القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي"، الدار التونسية للنشر، 1968.

28. ريب (نجيب)، "الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس"، تقديم أحمد بن سودة، ط.1، بيروت، لبنان، دار الأمير للثقافة و العلوم، 1995.
29. زبادة (عبد القادر)، "الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء"، -دراسات و نصوص-، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989.
30. زبادة (عبد القادر)، "مملكة سونقاي في عهد الأسقيين - 1493-1591"، الجزائر، الشركة الوطنية للتوزيع.
31. سافان، (كارل)، "الكون"، ترجمة نافع أيوب، الكويت، سلسلة علم الفلك، 1993.
32. سالم (عبد العزيز)، دكتور، "المغرب الكبير - دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية"، 4 أجزاء، الجزء 2 الخاص بالعصر الإسلامي، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.
33. سعد زغلول (عبد الحميد)، "تاريخ المغرب الكبير"، ط.1، أج.1-4، من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا، تونس، الجزائر و المغرب)، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1995.
34. سلطان (عبد المنعم)، "الأسواق في العصر الفاطمي"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1997.
35. شاوش (الحاج محمد بن رمضان)، "باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان"، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.
36. شعيرة (محمد عبد الهادي)، "المرابطون - تاريخهم السياسي-"، ط.1، القاهرة، مكتبة القاهرة، 1969.
37. شلي (أحمد)، "موسوعة التاريخ الإسلامي"، ج.6، ط.2، مكتبة النهضة المصرية، 1990.
38. شنوف (عيسى)، "يهود الجزائر - 2000 سنة من الوجود-"، الجزائر، دار المعرفة، (بلا سنة الطبع).
39. شريب (سيريديفيتش)، "حكومة العالم الخفية"، (ت: مأمون سعيد)، الجزائر، قصر الكتب، مطبعة اللغتين (بدون سنة الطبع).
40. عاشور (سعيد عبد الفتاح)، "دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية"، سعيد عبد الفتاح عاشور، سعد زغلول عبد الحميد، أحمد مختار العبادي، الكويت، منشورات دار السلاسل، 1405 هـ/ 1985 م.
41. العبادي (أحمد مختار)، "دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس"، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر و التوزيع.

14. الجندي (عبد الحليم)، "الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي"، القاهرة، دار المعارف، 1997.
15. جودت (عبد الكريم يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط خلال القرنين 3 و 4 هـ/ 9 و 10 م"، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.
16. جوزيف (جوان)، "الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء"، ط.1، ترجمة مختار السويقي، دار الكتب الإسلامية، 1984.
17. حركات (إبراهيم)، "النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط"، الدار البيضاء - المغرب، 1996.
18. حسن (إبراهيم حسن)، "انتشار الإسلام في القارة الإفريقية"، ط.2، مكتبة النهضة المصرية، 1963.
19. حسن (إبراهيم حسن)، "انتشار الإسلام و العروبة فيما يلي الصحراء الكبرى"، قسم الدراسات التاريخية و الجغرافية، 1957، (بدون مركز الطبع).
20. حسن (إبراهيم حسن)، "تاريخ الإسلام"، ط.4، بيروت، لبنان، دار الجليل - القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1996.
21. حسن (علي حسن)، "الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس - عصر المرابطين و الموحدين -"، ط.1، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1990.
22. حسن محمود (أحمد)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، حسن محمود (أحمد) و حسن محمود (منى)، ط.1، القاهرة، 1419هـ/ 1999م.
23. الخالدي (صلاح عبد الفتاح)، "الشخصية اليهودية من خلال القرآن - تاريخ و سمات ومصير -"، ط.1، الجزائر، شركة الشهاب، 1407هـ/ 1987م.
24. خان (ظفر الإسلام)، "التلمود تاريخه و تعاليمه"، ط.7، بيروت، دار النقاش، 1410 هـ/ 1998.
25. الخطيب (عبد القادر)، "دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية"، جامعة الأزهر، مطبعة الحسين الإسلامية، 1991.
26. الدشراوي (فرحات)، "الخلافة الفاطمية بالمغرب"، ت. حماد الساحلي، ط.1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1994.
27. دنيز (بولم)، "الحضارات الإفريقية"، ط.2، ترجمة نسيم نصر، بيروت و باريس، منشورات عويدات، 1982.

42. عطون (مروان)، "أزمات الذهب في العلاقات النقدية الدولية"، الجزائر، دار الهدى، (بدون تاريخ).
43. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، المجلد الأول، ط.1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1414 هـ/1994 م.
44. فيلاي (عبد العزيز)، "العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و دول المغرب" الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982.
45. لقبال (موسى)، دكتور، "المغرب الإسلامي"، ط.2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.
46. لقبال (موسى)، دكتور، " دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية - منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)"، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، سلسلة الدراسات الكبرى، 1979.
47. لومبار (موريس)، " الإسلام في مجده الأول"، ت. إسماعيل العربي، بيروت، دار الجيل - المغرب، دار الأفاق الجديدة. بدون سنة الطبع.
48. مؤنس (حسين)، " تاريخ المغرب و حضارته"، المجلد الأول، ج.1، ط.1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، 1412 هـ/1990 م.
49. مؤنس (حسين)، " معالم تاريخ المغرب و الأندلس"، ط.1، القاهرة، دار و مطابع المستقبل، 1980.
50. مؤنس (حسين)، "الإسلام الفاتح"، ط.1، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1408 هـ/1987 م.
51. مارسيه (جورج)، " بلاد المغرب و علاقاتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى"، مراجعة أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف الإسكندرية، بدون سنة الطبع.
52. محمود (حسن أحمد)، "قيام دولة المرابطين"، ط.2، دار الكتاب الحديث، 1996.
53. محمود (محمد عبد العزيز)، " الجمل العربي"، ط.1، الإسكندرية، مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية، 1999.
54. محمود السيد، "تاريخ دولة المرابطين و الموحدين"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1999.

55. مرمول (محمد الصالح)، دكتور، " السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي"، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.
56. المسيري (عبد الوهاب)، " موسوعة اليهود و اليهودية والصهيونية"، ج.2، 3 و 4، بيروت، دار الشروق، 1999.
57. نجيب (زبيب)، "الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس"، (تحقيق أحمد بن سودة)، ط1، بيروت، لبنان، دار الامير للثقافة والعلوم، 1995.
58. نقولا (زيادة)، " الحسبة و المحتسبة في الإسلام"، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1963.
59. نلّينو (السنير كرلو)، " علم الفلك — تاريخه عند العرب في القرون الوسطى—"، روما، 1911.

ث. الموسوعات :

1. أبو الحسن (ابن علي الحكيم)، " الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة"، (تحقيق، حسين مؤنس، مدريد)، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1960.
2. أبو الحسن (أحمد بن فارس بن زكريا)، " معجم مقاييس اللغة"، (تحقيق عبد السلام محمد هارون)، المجلد الخامس، ط.1، بيروت، دار الجيل، 1991.
3. أبي الفيض (محب الدين السيد مرتض الحسين الواسطي الزبيدي الحنفي)، " تاج العروس من جواهر القاموس"، المجلد الخامس عشر، دار الفكر للطباعة و النشر.
4. ابن منظور، لسان العرب"، المجلد الأول و الثالث، دار الجيل و دار لسان العرب، 1408 هـ / 1988م.
5. البستاني (بطرس)، "دائرة المعارف"،
6. شيخاني (سمير)، "الموسوعة العالمية"، بيروت، لبنان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1994.

ج. المقالات :

1. إسماعيل (العربي)، " العمران و النشاط الاقتصادي في الجزائر _ في عصر بني حماد- " مجلة الأصالة، السنة الرابعة، مارس - أبريل 1974.
2. الأمين (عوض الله)، " تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي"، في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404هـ / 1984 م.
3. ابن قربة (صالح)، "انتشار المسكوكات المغربية و أثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى"، في "سلسلة الندوات والمناظرات"، رقم 48، الرباط، منشورات كلية العلوم الإنسانية.
4. ابن عزوز (فريدة)، " قراءة في أبحاث تاديوش لويتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب و بلاد السودان"، كلية الآداب، تيطوان، المغرب.
5. بوعزيز (يحيى)، "طرق القوافل و الأسواق التجارية بالصحراء الكبرى، كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر"، مجلة الثقافة، السنة العاشرة، العدد 59، شوال سبتمبر .
6. زنيير (محمد)، " تجارة القوافل في المغرب"، في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404هـ / 1984 م.
7. فخار (إبراهيم)، دكتور " تجارة القوافل في العصر الوسيط و دور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى"، في " تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404هـ / 1984 م.
8. الكعبي (المنجي)، "أسباب توطيد الإسلام بإفريقيا و المغرب"، في " مجلة الثقافة"، السنة الرابعة عشرة، العدد 84، 1984.
9. لومبار موريس، " الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية"، في " بحوث في التاريخ الاقتصادي"، (ترجمة اسكندر توفيق)، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1961.

ح. الرسائل :

1. ابن ديب (عيسى)، " التجارة في عصر الدولة المرابطية " رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، 1411 هـ/1990 م.
2. جودت (عبد الكريم)، " العلاقات الخارجي للدولة الرستمية "، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، وزارة التعليم العالي، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة التاريخ، 1978.
3. حملاوي (علي)، " قصور مدينة جبل عمور - من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الهجري - 16-19 م، دراسة تاريخية و أثرية "، بحث لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ.
4. شنايت، " دولة بني مدرار - سحلماسة و دور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري - "، رسالة ماجستير، 1990/1991 م.
5. كواقي (مسعود)، " اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين "، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1411-1412 هـ/1990-1991 م.
6. مختار (حساني)، " الصراع بين الأمويين و الفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي خلال القرن العاشر ميلادي، الرابع هجري "، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، وزارة التعليم العالي، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة الدراسات التاريخية و الآثار، السنة 1978/77.

المراجع الأجنبية

أ. الكتب

1. ABITBOL (MICHEL), « COMMUNAUTÉS JUIVES DES MARGES SAHARIENNES DU MAGHREB », JÉRUSALEM, 1982.
2. AYOUN (Richard), " Les Juifs d'Algérie – Deux mille ans d'histoire- », AYOUN (Richard) et Bernard (Cohen), éd. RAHMA, 1994.
3. BATHILY (Abdoulaye), « Les portes de l'or – Le Royaume de Galan Sénégal de l'ère musulmane au temps de négériens XIII^e – XVIII^e siècle », Paris, L'Harmattan, 1989.
4. BENSLIMANE (Joudia Hassar), « SIDJILMASA, DU MYTHE À LA RÉALITÉ – ARCHÉOLOGIE- HISTOIRE DU SAHARA ET SES RELATIONS ... », P.26.
5. BRAUDEL (FERNAND), « LA MÉDITERRANÉE ET LE MONDE MÉDITERRANÉEN À L'ÉPOQUE DE PHILIPPE II », TOME.I, PARIS, ARMAND COLIN, 1932.
6. BRIGOLE (MADELEINE ROUVILLOI), « LE PAYS DE OUARGLA », PARIS, 1975, P.2.
7. CAHEN (Claude), « Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale », Institut français de Damas, éd. D'Amérique et d'Orient.
8. CAPOT (R.), « Nomades et Nomadisme au Sahara – Recherches sur la zone aride - », UNESCO, 1963.
9. CHOURAQUI (André), « Histoire des Juifs en Afrique du Nord en Exil du Magreb », T.1, Éd. Rocher, 1998.
10. CHOURAQUI (André), « Marche vers l'occident – Les Juifs d'Afrique du Nord », Presse Universitaire de France, 1952.
11. CISSÉ (Daniel Amara), « Histoire économique de l'Afrique Noire – économies et sociétés médiévales de l'Afrique Noire Subsaharienne de 622 à 1794 », T.III, Le moyen âge, Paris, L'Harmattan, 1988.
12. CISSOKO (Sékéné Mody), « Histoire de l'Afrique occidentale – moyen âge et temps modernes XII^e à 1850- », Paris, Présence africaine, 1966.
13. COHEN (M.), « La Civilisation Musulmane du IX^e au XI^e siècle
14. DAVIDSON (BQSIL), « THE GROWTH OF AFRICAN CIVILISATION »

15. DELAFOSSE (Maurice), « Les civilisations disparues - Les civilisations Negro-Africaines », Paris, Librairie Stock, 1925.
16. DEVERSE (R.) « Tegdaoust – Recherches sur Audaghust- », T.1, par DEVERSE (R.), SERGE (R.) et DEVERSE (J.), Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1970.
17. DEVERSE (JEAN), « LE BASSIN DES VALLÉES DU NIGER – CHRONOLOGIE ET ESPACE », , PARIS, BIBLIOTHÈQUE DE L'ÉCOLE DES HAUTES ÉTUDES EN SCIENCES SOCIALES.
18. DIADIÉ (H.i.), « L'ESPAGNE MUSULMANE ET L'AFRIQUE SUBSAHARIENNE », ED. DONNIYA, BAMAKO, 1997
19. EL-FASI, « Histoire générale de l'Afrique » T. III. l'Afrique du VII^e au XI^e siècle, comité scientifique international pour la rédaction d'une histoire générale de l'Afrique, sous la direction de M. El-Fasi, co-directeur I.Hrbek, Paris, Edicef/UNESCO, 1997.
20. FAGE (J.D.), « A HISTORY OF WEST AFRICA », DAMAS, 1977 – CAMBRIDGE, 1969.
21. FEVRE (L), « MAHOMET ET CHARLEMAGNE », A.H.E.S, AVRIL, LIBRAIRIE ARMAND COLIN, 1948.
22. FONDS (E. Terray), « Histoire de l'Afrique occidentale -- Moyen âge et temps modernes VIII siècle à 1850 », Centre d'Etudes Africaines, Fresence.
23. GAUDIO (Attilio), « Les Civilisations du Sahara », Marabout université, Éditions Gérard & C^{ie}, Verviers. 1967.
24. GAUDIO (Attilio), « Le dossier de la Mauritanie », Paris, Nouvelles éditions latines, 1978.
25. GENET (Jean-Philippe), « Le monde au moyen Age -- Espace - pouvoirs -- civilisations », Paris, éditions Hachette, 1991.
26. GHALI (Brahim Amin), « Le monde arabe et les Juifs », éd. Cujas, 1972.
27. GIRI (Jacques), « Histoire économique du Sahel », Paris, Karthala, 1994.
28. GOLDENBERG (André), « Les Juifs du Maroc », Paris, éd. Scribe, 1992.
29. GOLVIN (L.), « Le Magrib central à l'époque des Zirides - Recherches d'archéologie et d'histoire -- », Paris, Art et Métiers Graphiques, 1957.
30. HAÏDARA (ISMAËL DIADIÉ), « L'ESPAGNE MUSULMANE ET L'AFRIQUE SUBSAHARIENNE », BAMAKO, ÉDITIONS DONNIYA, 1997.
31. HEYD (W.), « L'HISTOIRE DU COMMERCE – DU LEVANT AU MOYEN ÂGE – », 3^e ÉD. LEIPZIG, 1986.

32. HOPKINS (A.G.), « An economic history of west Africa », London, Longman, 1973.
33. HUGOT (H.J.), « Le Sahara avant le désert », édition des Hépérides, 1974.
34. JOLLY (Jean), « Histoire du continent africain de la préhistoire à 1600 », t.1, Paris, L'Harmattan, 1996.
35. KELLER (W.), « Vingt siècles d'histoire du peuple juif », France, Arthaud, 1971.
36. KIÉTHÉGA (Jean Baptiste), « L'Or de la Volta Noire », Paris, éd. Karthala et Centre de recherches africaines, 1983,
37. LAAROU! (Abdellah), « L'histoire du Maghreb – un essai de synthèse », Paris, Librairie François Maspero, 1970.
38. LACOURT (Jacques Gayet), « L'histoire du commerce ». T.3, Paris, éditions Spid, 1903.
39. LAGARDERE (VINCENT), « LES ALMORAVIDES JUSQU'AU RÈGNE DE YUSUF B. TACHFIN 1034-1106 », L'HARMATTAN, PARIS.
40. LAUNAY (L.), « L'Or dans le monde –Géologie – Extraction – Économie politique- », Paris, Librairie Armand Colin, 1907.
41. LAVOIX (Henri), « Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris – Espagne et Afrique », Paris, 1891.
42. LEPIDI (Jules), « L'OR », Paris, 6^{ème} éd, Que sais je ?, Presse Universitaire de France, 1997.
43. LETHIELLEUX (Jean), « Ouargla cité saharienne – des origines au début du XX^e siècle- », Librairie orientaliste Paul Geuthner, SA, 1984.
44. LEWICKI (Tadeusz), « Études maghrébines et soudanaises », Varsovie, Éditions Scientifiques de Pologne, 1996.
45. LEWIS (Bernard), « The Jews of Islam », Princeton University Press, 1984.
46. LHOTE (Henri), « « Le Hoggar espace et temps », Paris, Armand Colin, 1984.
47. LOMBARD (Maurice), « Espaces et réseaux du haut moyen âge », Paris, 1972
48. LOMBARD (Maurice), « L'Islam dans sa première grandeur – XIII^e au XI^e siècle- », dirigé par Fernand Braudel, Paris, Ed. Flammarion, 1971.

49. LOMBARD (Maurice), « Les métaux dans l'ancien monde du V^e au XI^e siècle », Paris, études économiques médiévales, Mouton et Cie, 1974.
50. MADELEINE Rouvillois Brigol « Le pays de Ouargla –Sahara algérien-», Paris, 1975.
51. MAUNY (Raymond), « Les siècles obscurs de l'Afrique Noire », librairie Arlème Fayard, 1970.
52. MAUNY (Raymond), « Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen âge, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie », mémoires IFAN, n° 61, Dakar. IFAN, 1961.
53. MEUNIE (Jacques D.), « Le Maroc saharien des origines au XVI^e siècle », Librairie Klincksiek, 1982.
54. MEYER (Laure), « Les Métaux précieux dans l'art d'Afrique noire », Paris, Ed. Sépia, 1997.
55. NECIB (Youcef), « Cultures Oasiennes – Bou-sâada-, essai d'histoire sociale, Belgique, Publi sud, 1986.
56. OLIEL «(Jacob), « Chronique des Juifs du Touat – du Premier siècle à 1492 », Paris, 1990.
57. PEYRONNET (GEORGE), « L'ISLAM ET LA CIVILISATION ISLAMIQUE VII-XII^e SIÈCLE », PARIS, ARMAND COLIN, 1991.
58. PIRENNE (Henri), « Mohamed et Charlemagne », Paris, Quadriga, Presse universitaire de France, 1970.
59. POSNANSKY (MERRICK), « THE ORIGINS OF WEST AFRICAN TRADE », GHANA UNIVERSITY PRESS, ACCRA TEMA GHANA, 1971.
60. ROMEY (ALAIN), « HISTOIRE – MÉMOIRE ET SOCIÉTÉ- EXEMPLE DE N'GOUSSA : OASIS BÉRBEROPHONE DU SAHARA », L'HARMATTAN, AWAL, PARIS-ALGER, 1992, p.22.
61. ROMEY (Alain), « Mémoire et société
62. SÉROUSSI (Roland), « L'histoire de l'Or », Paris, éditions France-Empire, 1998.
63. TAMSU (Niane Djibril), «Le Soudan occidental au temps des grands empires XI^e - XVI^e siècle», Paris, présence africaine, 1975.
64. TERRASSE (Henri), « Histoire du Maroc », Casablanca, Atlantides, 1952.
65. TRIAUD (Jean-Louis), « Islam et sociétés soudanaises du moyen âge », études historiques, Paris, Collège de France, Recherches Voltaïques, 1973.

66. ZEFRANI (Haim), « Deux mille ans de vie Juive au Maroc », histoire et culture, religion et magie, Paris, Maisonneuve et Larose, 1998.
67. ZEFRANI (Haim), « Juifs d'Andalousie et du Maghreb », Maisonneuve et Larose, 1996.
68. ZEFRANI (HAIM), « ARTISANAT DES MÉTAUX PRÉCIEUX ET PROBLÈMES MONÉTAIRES DANS LES DÉCISIONS DES TRIBUNAUX RABBINIQUES DE FÈS DU 17^E AU 18^E SIÈCLES. IN « LES JUIFS ET L'ÉCONOMIE », TEXTES RÉUNIS PAR CHANTAL BEN AYOUN -ALAIN MEDAN -PIERRES JACQUES ROJMAN, TOULOUSE, PRESSE UNIVERSITAIRE DU MURAIL, 1992.

ب. الموسوعات

1. Dictionnaire Historique de l'Islam, Presses universitaires de France, 1996.
2. Encarta 2000, CD-ROM.
3. Encyclopédie de l'Islam, tome IV, librairie Clincksieck, Paris, 1934.
4. Grand Larousse encyclopédique, T.7, Librairie Larousse, Moreau 1963.

ت. الرسائل

1. BENHSAIN (Mesmoudi Rajae), « Approche quantitative de l'Or monnayé en occident Musulman (450/83) à (1058-59/1426-27) », Tome 1, thèse du nouveau doctorat, sous la direction de Mr Jean Devisse, Université de Paris, Panthéon Sorbonne UFR, 09, Paris, 1994.
2. ASHBY (Marianne Johnson), « Black Gold Smiths Jewelry and women in Senegal » The requirement for the degree of doctor of philosophy in African art », volume 1, studies of Stanford university, March, 1980.

ث. المقالات

1. « LES MÉMOIRES DE L'AFRIQUE DES ORIGINES À NOS JOURS », PARIS, ÉD. ROBERT LAFFONT, 1972.
2. CHATER (Khelifa), « Le commerce caravanier au Maghreb et ses mutations au cours de l'ère pré-coloniale », in « The Maghreb revue », année 1987, may – august, vol, 12, 3-4.

3. DELAFOSSE (M.), « Les Relations du Maroc avec le Soudan à travers les âges », in Hesperis, Archives Berbères et Bulletins de l'Institut des Hautes Études Marocaines, 2^e Tri. Paris, Émile Larose, 1994.
4. DEVISSE (Jean), « Sidjilmasa », in « L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest Africain – du moyen âge à l'époque coloniale – », actes du IV^e colloque Euro-Africain, Erfoud (Maroc), du 20 au 25 oct. 1985, Bergamo, Italia, 1986.
5. DEVISSE (Jean), Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. in « Revue d'Histoire économique et sociale », n° 01 et 03. Un essai sur le commerce médiéval du XI^e au XVI^e siècle. Paris, Centre National de la Recherche Scientifique, Marcel Rivière & Cie, 1972.
6. LEWICKI (Tadeusz), « Le rôle du Sahara et des sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », in « Histoire Générale de l'Afrique », vol. 3, L'Afrique du VII^e au XI^e siècle, Edicef, UNESCO, 1997.
7. LOMBARD (Maurice), « Les bases monétaires d'une suprématie économique- L'Or musulman du VII^e au XI^e siècle », in « Anales : économies – sociétés – civilisations », 2^{ème} Année, avril – juin 1974, n° 2, Librairie Armand Colin.
8. MARCAIS (G.), « L'Urbanisme Musulman », in « Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'occident musulman », T.1, Alger, 1957.
9. MAUNY (Raymond), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique Occidentale » in « Bulletin de l'Institut français d'Afrique Noire », T.XI, n° 3-4, juillet-octobre 1949.
10. OULD BAH (ABDELLAHI), « LES VILLES ANCIENNES DE MAURITANIE ET LEURS RAPPORTS AVEC LE COMMERCE AU MOYEN ÂGE » IN « HISTOIRE DU SAHARA ET SES RELATIONS TRANSSAHARIENNES ENTRE LE MAGHREB ET L'OUËST AFRICAÏN », ACTES DU IV^E COLLOQUE EURO-AFRICAÏN, ERFOUD (MAROC), DU 20 AU 25 OCT. 1985, BERGAMO, ITALIA, 1986, P.117.
11. SIDIBÉ (Samuel), « Es-Souk l'ancienne Tademka », in « L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest Africain – du moyen âge à l'époque coloniale – », actes du IV^e colloque Euro-Africain, Erfoud (Maroc), du 20 au 25 oct. 1985, Bergamo, Italia, 1986.

سورة العاشية، الآية 17 ، ص، 33.

سورة المؤمنون، الآية 22، ص، 39.

سورة البقرة، الآية 274 ص، 41.

سورة قريش، الآية 1 و 2 ص، 50.

سورة الانعام، الآية 98 ، ص، 56.

سورة طه، الآية 89، ص، 242،

سورة الأعراف، الآية 148، ص، 242.

-أ-

- إبراهيم بن الأغلب، 111 ،
إبراهيم بن غالب المزاني، 199،
أبن زلعين، 196،
أبو الحاتم، 44،
أبو الغرائق ، 131،
أبو بكر بن عمر، 72، 122،
أبو زكريا يحيى، 209،
أبو سعيد التستري، 221،
أبو عبد الله الشيعي، 197،
أبو مدين بن فروخ الهيصي ، 47،
أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى، 221،
إدريس الأول، 09، 218، 220،
إدريس الثاني، 220،
إدريس عبد الله بن الحسن، 9،
إسحاق الإسرائيلي، 216، 218، 221،
إسحاق بن سليمان، 221،
الأفلح بن عبد الوهاب، 45، 112، 115، 195، 196، 197،
ابن أبي سرح ، 64،
ابن اليقضان، 45،
ابن خيرون، 44، 47،
ابن يزيد ، 117،

-ب-

- بلكين بن زيري، 119،

-ت-

- تراجان، 213، 226،
تملي الوسياني، 44،

-ج-

جزريك، 214،
جوهر الصقلي، 119، 221،

-ح-

حسداي بن شبروط، 220،

-خ-

خيرام ، 244،

-د-

داود (ع.س)، 223،

-ز-

زينب النفزاوية ، 120،

-س-

سليمان (ع.س)، 215، 223، 235، 242، 244، 251، 252،

-ش-

شلوم بن يهودا، 220،

-ط-

طارق بن زياد، 71،

-ع-

عبد الرحمن الثالث، 199، 220،
عبد الرحمن بن حبيب، 30، 59،
عبد الله بن ياسين، 71، 73، 74، 76.

عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، 10، 45، 196،
عبيد الله المهدي، 46، 199، 221،
عقبة، 30، 63، 67، 68، 69، 71، 192، 216،
علي بن يوسف، 48،
عمرو بن العاص، 64،

-ق-

قوراري، 224،

-م-

ماركيوس توريو، 213،
محمد بن جري، 96،
مدرار، 184، 199،
المستنصر، 221،
المعز لدين الله، 221،
المنصور ابو الفتح، 44،
موسى (ع.س.)، 225، 226، 242، 244،
موسى بن العازار، 221،

-ن-

نصالة بن حبوس، 47،

-ي-

يحيى بن عمر، 71، 119،
اليسع بن الياس، 111،
يعقوب بن الأفلح، 197،
يعقوب بن كليس، 221،
يوسف بن تاشفين، 48، 74، 222، 231، 254،

ملاحظة : يسقط من هذا الفهرس شعوب السودان، سكان المغرب، البربر، المرابطون والفاطميون لكثرة ترددها في الرسالة.

-أ-

الإباضيون ، 114، 115، 193، 194،
الأغالية، 113، 114، 132، 133، 182، 193، 219.
الاراميون ، 223
الاعريق، 89، 175، 243،
الاقباط، 216،
الاوروبيون ، 17
اولاد حاري، 224

-ب-

بنو الاغلب، 10، 210،
بنو حارث، 29،
بنو مدرار، 113، 117، 137، 139، 175، 184، 199،
بنو هلال، 11 ،
بنو واسول، 213، 240،
البول ، 18، 226، 227، 229،
بني وارث، 30،

-ت-

الترك، 12،
التكرور، 79، 82، 188، 205،
توبو، 27،

-ج-

جدالة، 71، 73، 144، 201،

الجرامات، 27،

جزولة، 53، 66،

-ث-

الحيثيون، 235، 236،

-خ-

الخوارج، 196، 197، 218،

-د-

ديولا، 156، 157، 158، 159، 229،

-ر-

الرادانيون، 236،

الرستميون، 45، 87، 113، 114، 116،

الروم، 12، 113، 125، 128، 129، 130، 131، 138، 141، 174، 213، 214، 226، 231،

236، 251،

-ز-

زغاوة، 27،

زناتة، 27، 47، 119، 120، 220،

-س-

الساميون، 225،

السنغاي، 18، 21، 85، 178،

السونينك، 18، 80، 81، 83، 228، 229،

-ص-

صدينة، 47
الصفرية، 114، 115، 117،
الصقالية 12،
صنهاجة، 27، 30، 71، 73، 81، 120، 174، 175، 201، 203،
صوصو، 79، 83،

-ع-

العباسيون، 111،
العربون، 226،

-ف-

الفراعنة، 66، 90، 227، 243،
الفرس، 12، 81،

-ل-

لمتة، 53، 66، 184، 201،
لمتونة، 66، 68، 71، 72، 82، 201،
لواتة، 26،

-م-

الماندينج، 18، 19، 79، 229،
المجاهرية، 224،
مزاتة، 27،
مسوفة، 53، 54، 73، 174، 201،
الموحدون، 170، 238، 249، 254،

-هـ-

الهكسوس، 226،

الهوسا، 79،

-و-

الولوف، 18،

الوندال، 131، 214،

الونقارة، 19، 81، 84، 98، 102، 155، 156، 157، 158، 159، 162، 229،

فهرس الأماكن و البلدان

يستثنى من هذا الفهرس مصطلح : السودان، المغرب، غانة، المغرب الأقصى، إفريقيا، تاهرت، لكثرة ورودها في نص الرسالة.

أ-

ادرار ، 65 ، 68 ، 186 ، 201 ،
اغصات ، 74 ، 75 ، 186 ، 220 ، 222 ،
الأوراس ، 7 ،
الاسكندرية ، 8 ، 76 ، 230 ، 247 ،
الاندلس ، 6 ، 9 ، 74 ، 160 ، 171 ، 173 ، 179 ، 199 ، 217 ، 219 ،
البصرة ، 74 ، 175 ، 177 ، 192 ، 195 ،
الجزائر ، 3 ، 24 ، 27 ، 188 ، 207 ، 208 ، 209 ، 214 ، 215 ، 218 ، 254 ،
الرباط ، 72 ، 73 ، 252 ،
الزاب ، 7 ، 196 ، 197 ،
السنغال ، 10 ، 14 ، 73 ، 79 ، 81 ، 228 ، 229 ،
السنغاي ، 18 ، 21 ، 85 ، 178 ،
السوس الأقصى ، 4 ، 9 ، 64 ،
الشنقيط ، 19 ، 227 ، 239 ،
العمور ، 7 ، 197 ، 208 ، 207 ،
القاهرة ، 52 ، 54 ، 160 ، 188 ، 192 ،
القصور ، 6 ، 7 ، 29 ، 32 ، 43 ، 44 ، 178 ، 190 ، 197 ، 207 ، 208 ، 209 ، 210 ،
القلعة ، 31 ، 208 ، 209 ،
القيروان ، 44 ، 47 ، 64 ، 71 ، 160 ، 171 ، 186 ، 188 ، 189 ، 190 ، 191 ، 192 ، 193 ، 194 ، 195 ،
199 ، 200 ، 219 ، 220 ، 234 ، 245 ،
المنصورة ، 46 ،
المهدية ، 46 ، 114 ، 171 ، 191 ، 220 ، 231 ،
النيجر ، 10 ، 14 ، 18 و 19 ، 21 ، 24 ، 26 ، 60 ، 67 ، 79 ، 83 ، 158 ، 182 ، 183 ، 190 ، 227 ، 240 ،
240 ، 255 ،
الونقارة ، 81 ، 84 ، 155 ، 156 ، 157 ، 118 ، 158 ، 159 ، 162 ، 229 ،
لودغشت ، 10 ، 11 ، 30 ، 31 ، 53 ، 59 ، 68 ، 61 ، 73 ، 74 ، 84 ، 83 ، 85 ، 164 ، 175 ، 180 ، 182 ، 183 ،
184 ، 185 ، 196 ، 201 ، 202 ، 203 ، 234 ،
اولاد نايل ، 7 ،
الرباط ، 119 ، 225 ،

ب-

بامبوك ، 19 ، 83 ، 85 ،
بحر الروم ، 7 ، 8 ، 15 ، 16 ، 28 ، 35 ، 85 ، 118 ، 152 ، 173 ، 214 ، 216 ،
برقة ، 3 ، 4 ، 8 ، 64 ، 213 ، 214 ، 224 ، 225 ، 231 ،
بغداد ، 5 ، 10 ، 160 ، 175 ، 191 ، 192 ، 194 ، 221 ،

ت-

تادمكة، 20 ، 44 ، 73 ، 164 ، 186 ، 187 ، 188 ، 193 ، 197 ، 205 ، 209 ،
تشناد ، 14 ، 18 ، 26 ، 151 ، 187 ،
تلمسان، 9، 47، 52، 75، 160، 184، 185، 218، 219، 234، 254،
تومبكتو، 10، 18، 20، 82، 159، 169، 241،
تونس ، 3 ، 7 ، 24 ، 25 ، 182 ، 186 ، 191 ، 241 ،
تبيستي ، 28 ،
تيديكلت ، 27 ،

ج-

جالام ، 82 ، 168
جبل نفوسة ، 10، 26 ، 188 ، 205 ، 201 ، 213 ، 219 ، 253 ،
جنية، 20، 79 ،
جاو ، 195 ، 180 ، 186 ، 187 ، 189 ، 191 ، 197 ، 209 ، 233 ، 241 ،

د-

درعة، 8، 10، 26 ، و 30، 68 ، 183 ، 184 ، 198 ، 220 ، 221 ، 228 ، 240 ، 245 ، 251 ،

ز-

زنزبار ، 30 ، 31 ،
زويلة ، 4 ، 8 ، 54 ، 253 ، 160 ، 188 ، 253 ،

س-

سجلماصة ، 4 ، 11 ، 23 ، 26 ، 30 ، 31 ، 47 ، 52 ، 53 ، 54 ، 55 ، 58 ، 68 ، 73 ، 74 ، 75 ، 84 ، 188 ،
193 ، 196 ، 198 ، 199 ، 200 ، 201 ، 203 ، 204 ، 208 ، 209 ، 219 ، 230 ، 236 ، 247 ، 241 ، 247 ، 249 ،
252، 253 ،
سدراثة 31 ، 188 ،
سوسة ، 191 ،

ط-

طرابلس ، 3 ، 52 ، 67 ، 187 ، 188 ، 201 ، 205 ، 207 ، 213 ،

غ

غدامس، 26، 52، 160، 187، 188، 195، 205، 206، 240، 241،
غيارو ، 83 ،

ف-

فاس ، 8 ، 9 ، 52 ، 71 ، 72 ، 160 ، 184 ، 190 ، 198 ، 218 ، 220 ، 231 ، 232 ، 234 ، 236 ، 241 ، 245 ،
فزان ، 3 ، 8 ، 28 ، 68 ، 77 ،

قـ-

قفصة ، 47 ،

كـ-

كايس ، 84 ،
كوار ، 68 ،
كوكو ، 77 ، 196 ،
كومبي صالح ، 61 ، 80 ،

لـ-

ليبيا ، 3 ، 24 ، 26 ، 188 ، 226 ، 239 ،

مـ-

مالي ، 19 ، 24 ، 60 ، 85 ،
مراكش ، 3 ، 155 ، 163 ، 178 ، 228 ، 160 ، 175 ، 222 ، 154 ،
مصر ، 11 ، 21 ، 32 ، 34 ، 58 ، 64 ، 66 ، 187 ، 193 ، 199 ، 203 ، 213 ، 216 ، 220 ، 221 ، 225 ، 226 ،
227 ، 235 ، 240 ،

نـ-

نكور ، 47 ،
نول لمتة ، 75 ، 184 ،
نوميديا ، 4 ،

وـ-

وادي ريغ ، 27 ، 239 ،
وادي سوف ، 27 ،
ورقلة ، 8 ، 26 ، 27 ، 31 ، 44 ، 52 ، 54 ، 160 ، 175 ، 186 ، 187 ، 188 ، 197 ، 199 ، 203 ، 207 ، 208 ،
209 ، 210 ، 234 ، 236 ، 240 ،

الملاحق

DÉFINITIONS RELIGIEUSES DES HEURES DE PRIÈRES :

1. Début et fin du moment de la prière du midi (El-dohr ou El-Zaouel) :

Cet instant commence au moment où l'ombre d'un objet disposé verticalement par rapport au sol passe par le méridien du lieu et se termine au moment où cet ombre coïncide avec sa longueur (appelée première ombre) et cela après avoir écarté la longueur de l'ombre avec laquelle l'objet en question avait au moment de passage au méridien du lieu.

2. Début du moment de la prière de (El-Asr) :

El Allama Le Cheikh Mohamed Ibn Ahmed Miara précise que le moment de la prière du Dohr est commun avec le début de la prière d'El-Asr à la fin de la première ombre et cela d'une durée équivalente à l'accomplissement d'une prière de quatre (rakâatte).

3. Début du moment de la prière du coucher du soleil (El-Maghreb) :

Cet instant commence au moment précis où le bord supérieur du soleil disparaît à l'horizon d'un lieu donné .

4. Début du moment de la prière du crépuscule (El-Icha ou El-Ghasseq) :

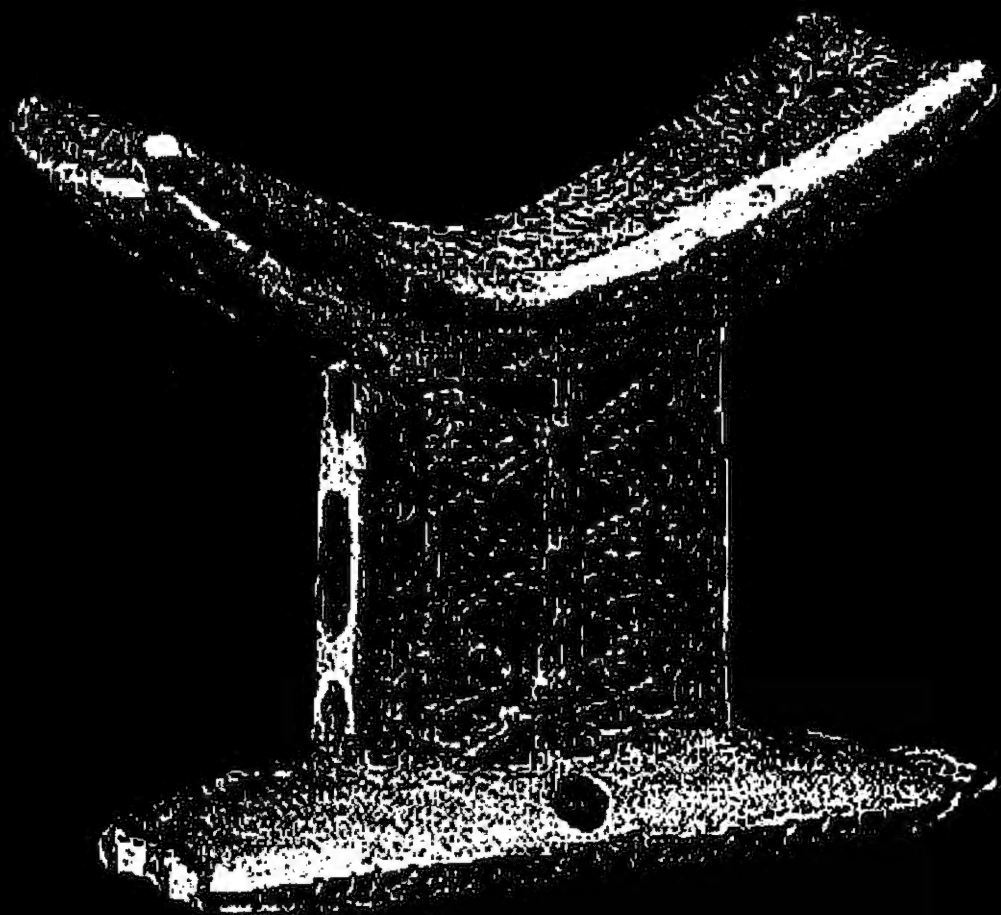
Toujours d'après El-Allama, cet instant commence au moment précis de la lueur rougeâtre (El-Chafaq) qui suit le coucher du soleil et non la lueur blanchâtre qui vient juste après celle-ci, et qui sépare la nuit profonde du jour qui vient de s'écouler.

5. Début du moment de la prière de l'aube (El-Fadjr):

Cet instant commence au moment précis de la l'apparition de la première lueur jaunâtre (El-Asfar), qui suit la lueur blanchâtre de l'aube.

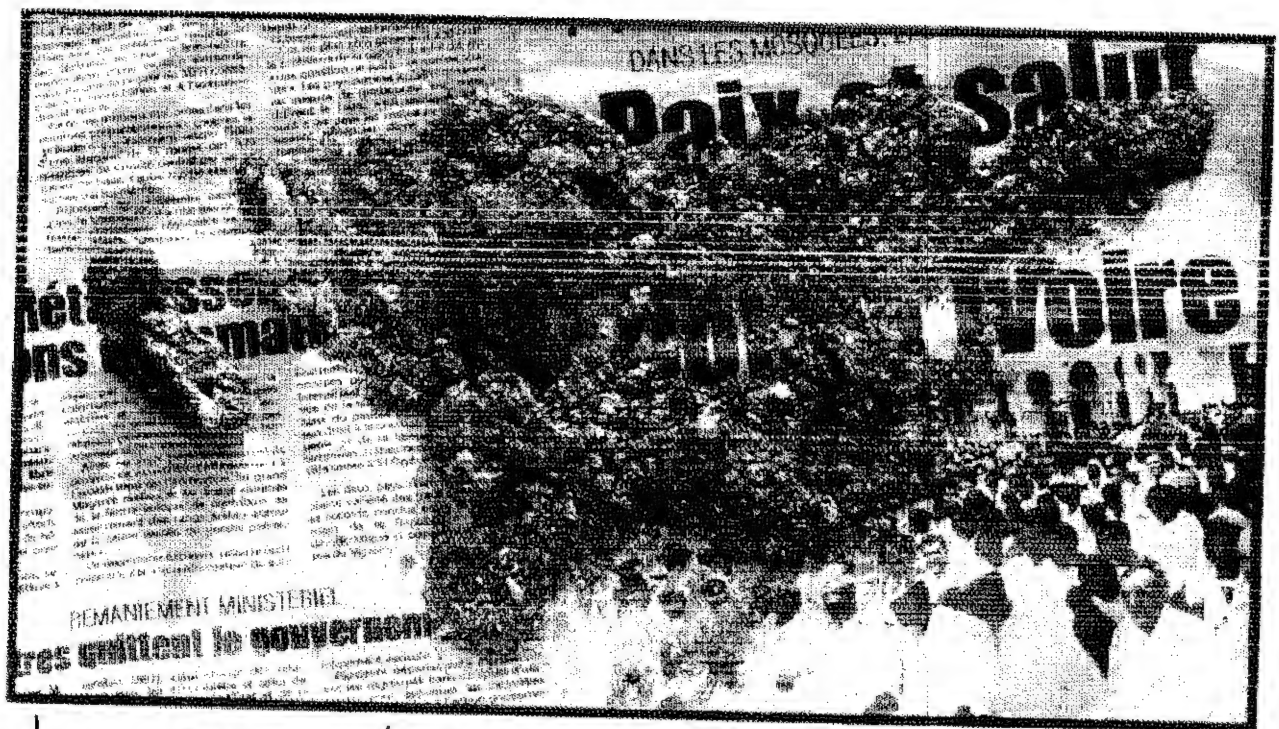
تحديد أوقات الصلاة بالطريقة الفقهية حسب، الأستاذ لوط بوناظيرو نقلا عن العلامة الشيخ محمد بن أحمد ميارة ، صاحب كتاب "الدار الثمين و المورد المعين".

ملحق الصور و الخرائط

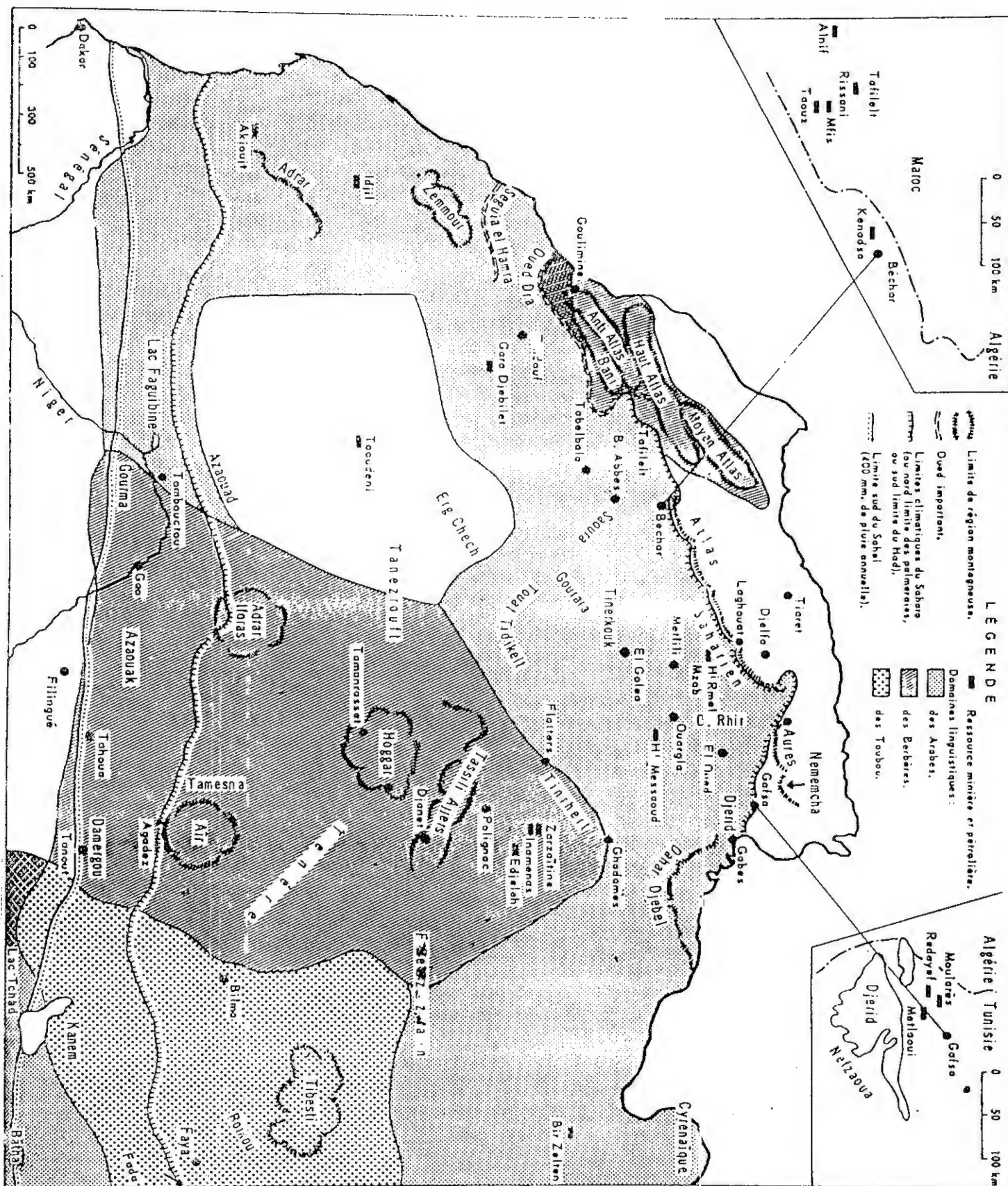


Le tabouret d'or.

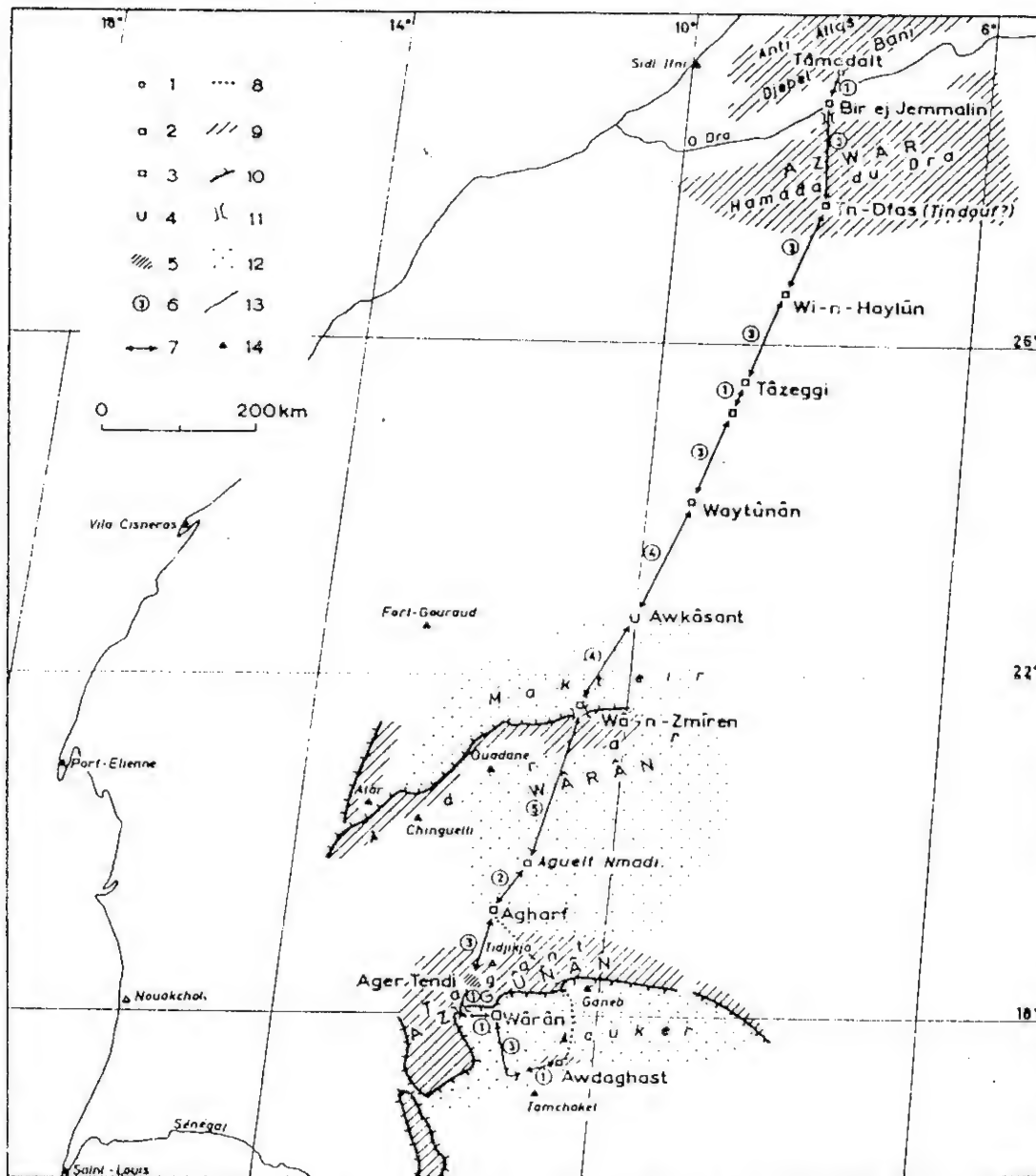
المذبح الذهبى



Laure Mayen : Les Metaux ... إلى صل الذهبي : عن
P. 19

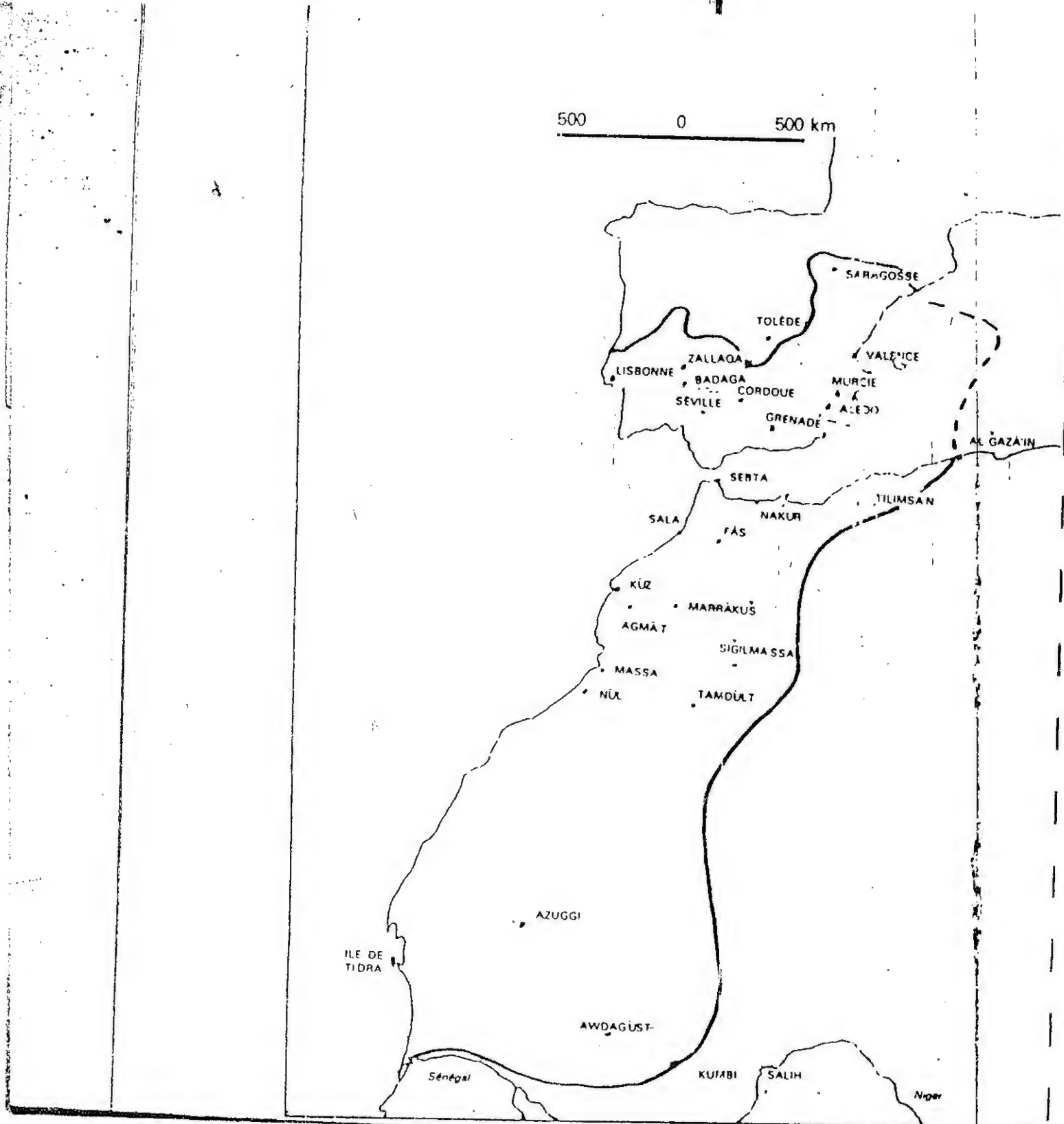


حدود الصحراء : نقل عن R. Capot, Nomades et Nomadismes...
P. 16.



آبار طریق: تامدلت اود غشت کماذکی ما البکری.

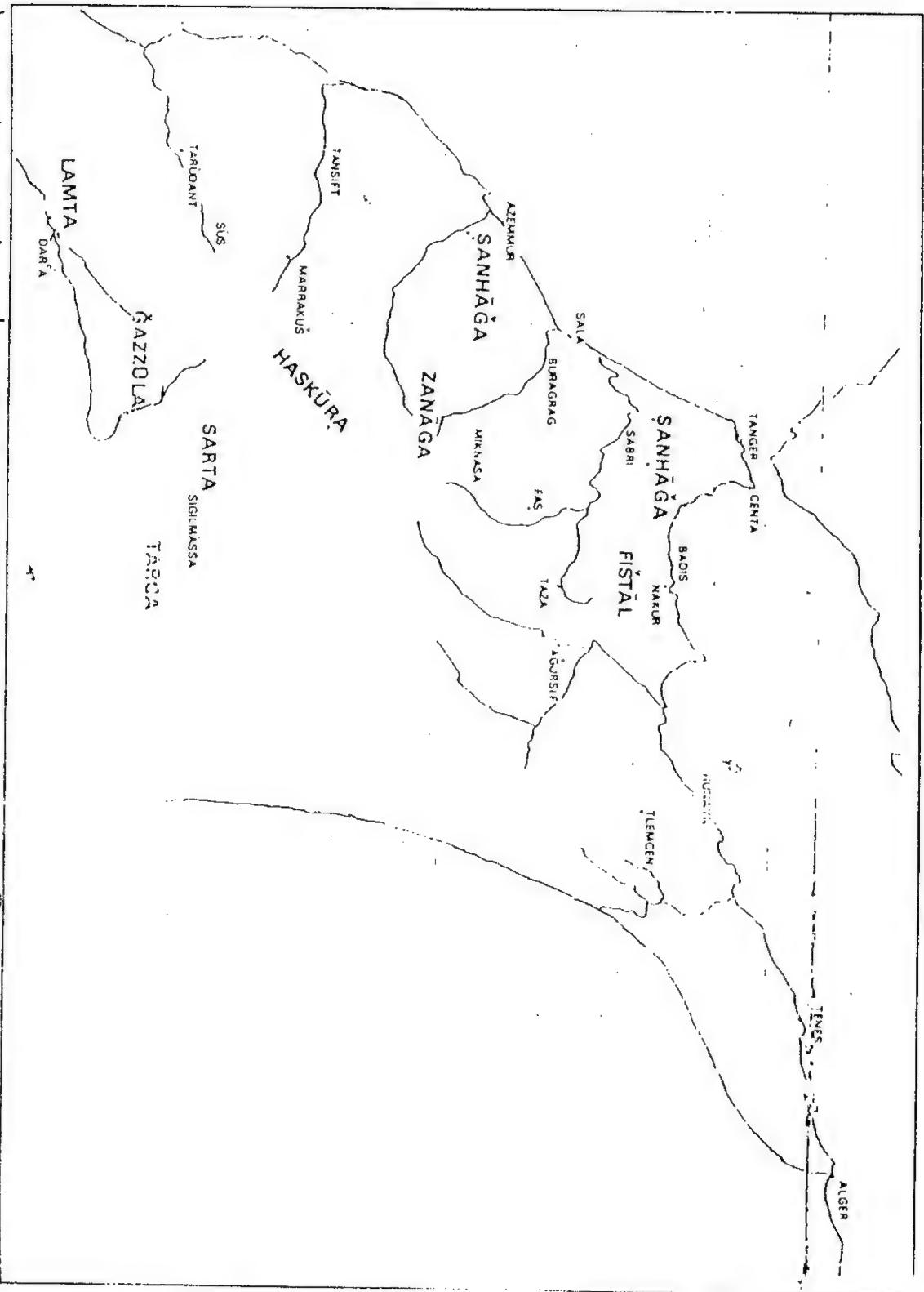
نقلا عن : Devisse (J): Teydlaoust... p.34.

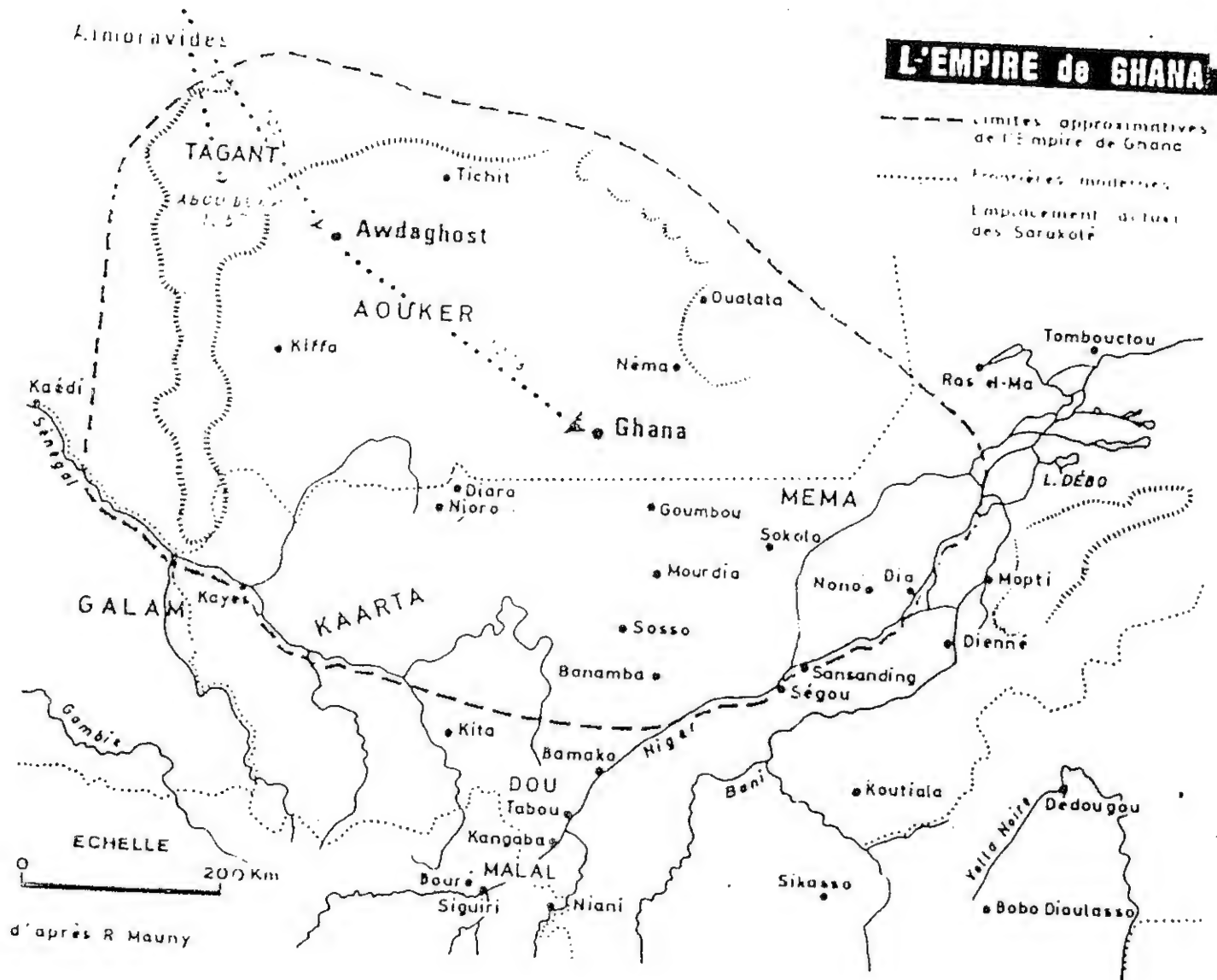


Lagouedere (V). ٢٤٤.

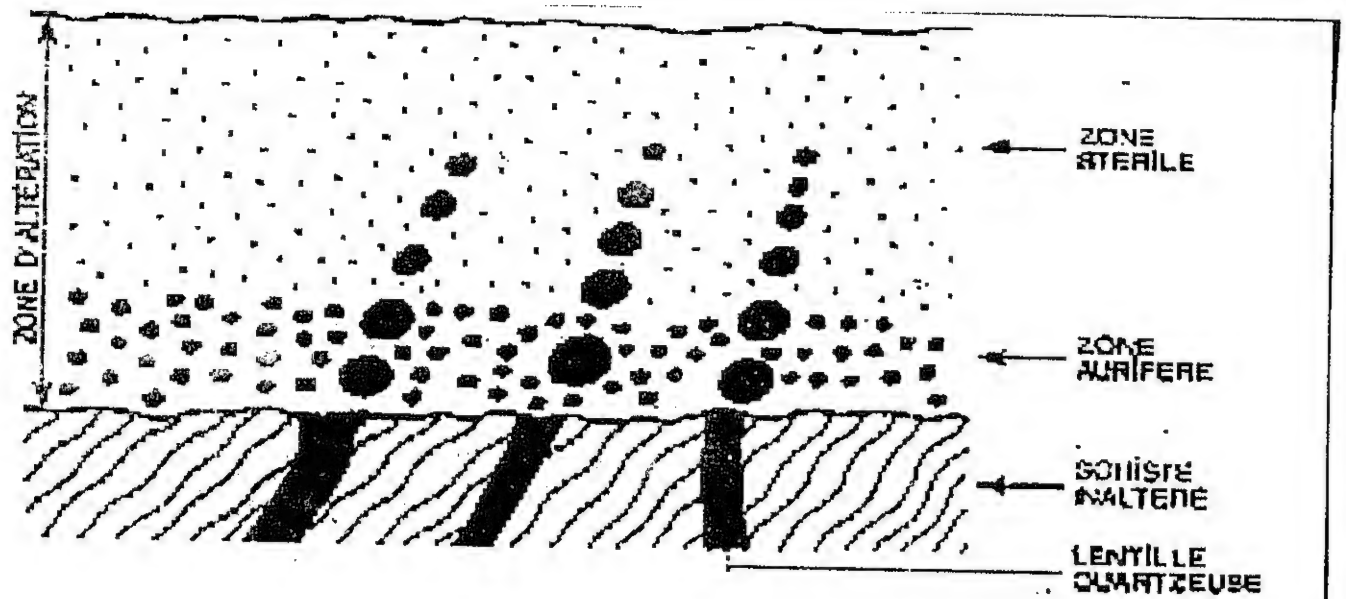
حدود امبراطورية المرابطون عن

Lagardere (V); des Almorauides... P. 83. . ie : *al-Jawhri*

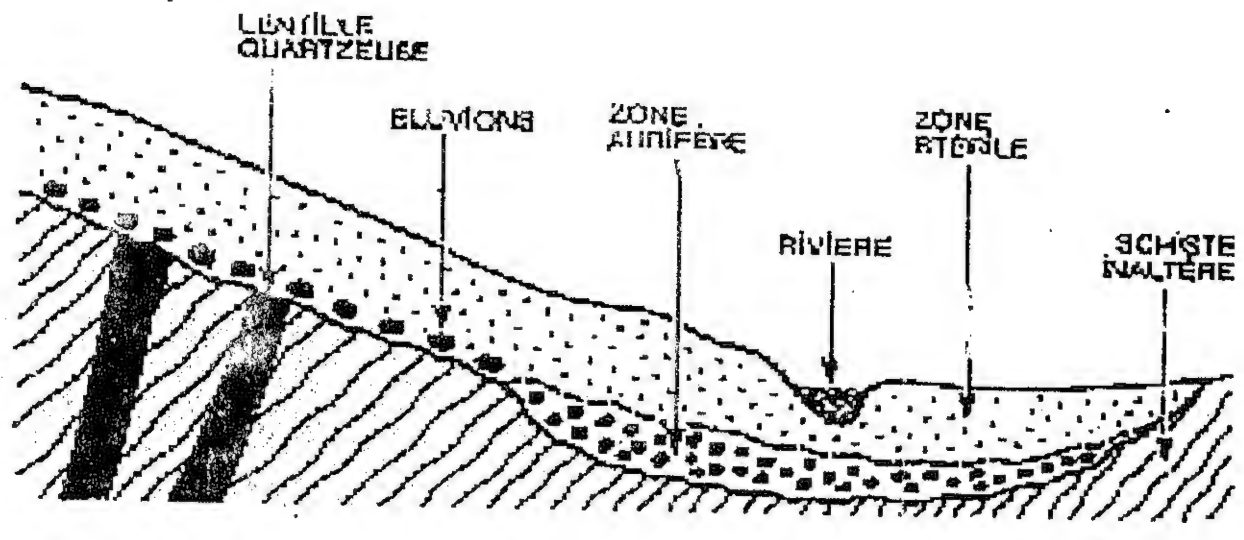




الإمبراطورية غانا نقلا عن : P. 7. Les portes de l'or. Bathily (A)

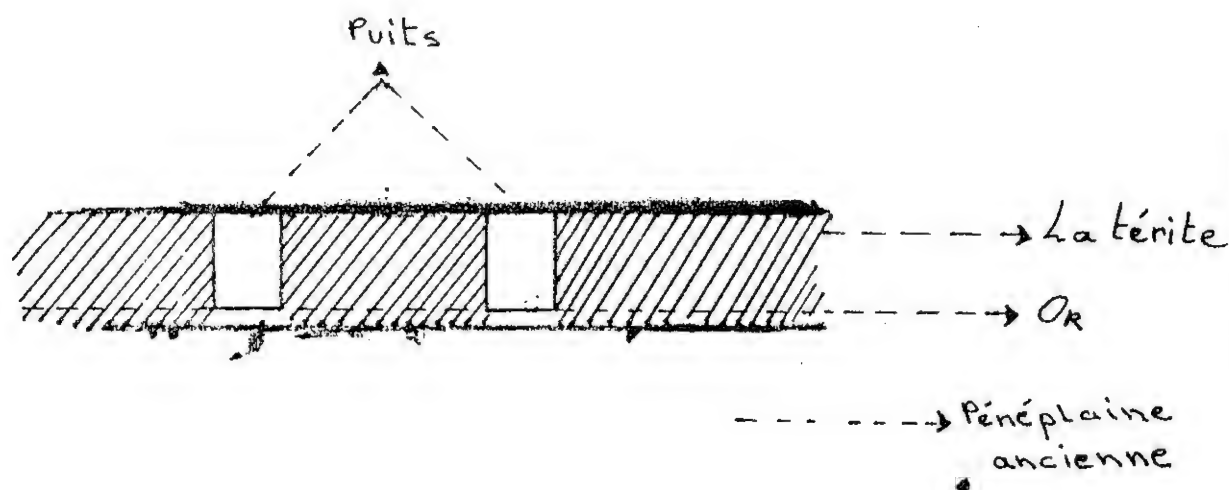


Formation éluvionnaire.



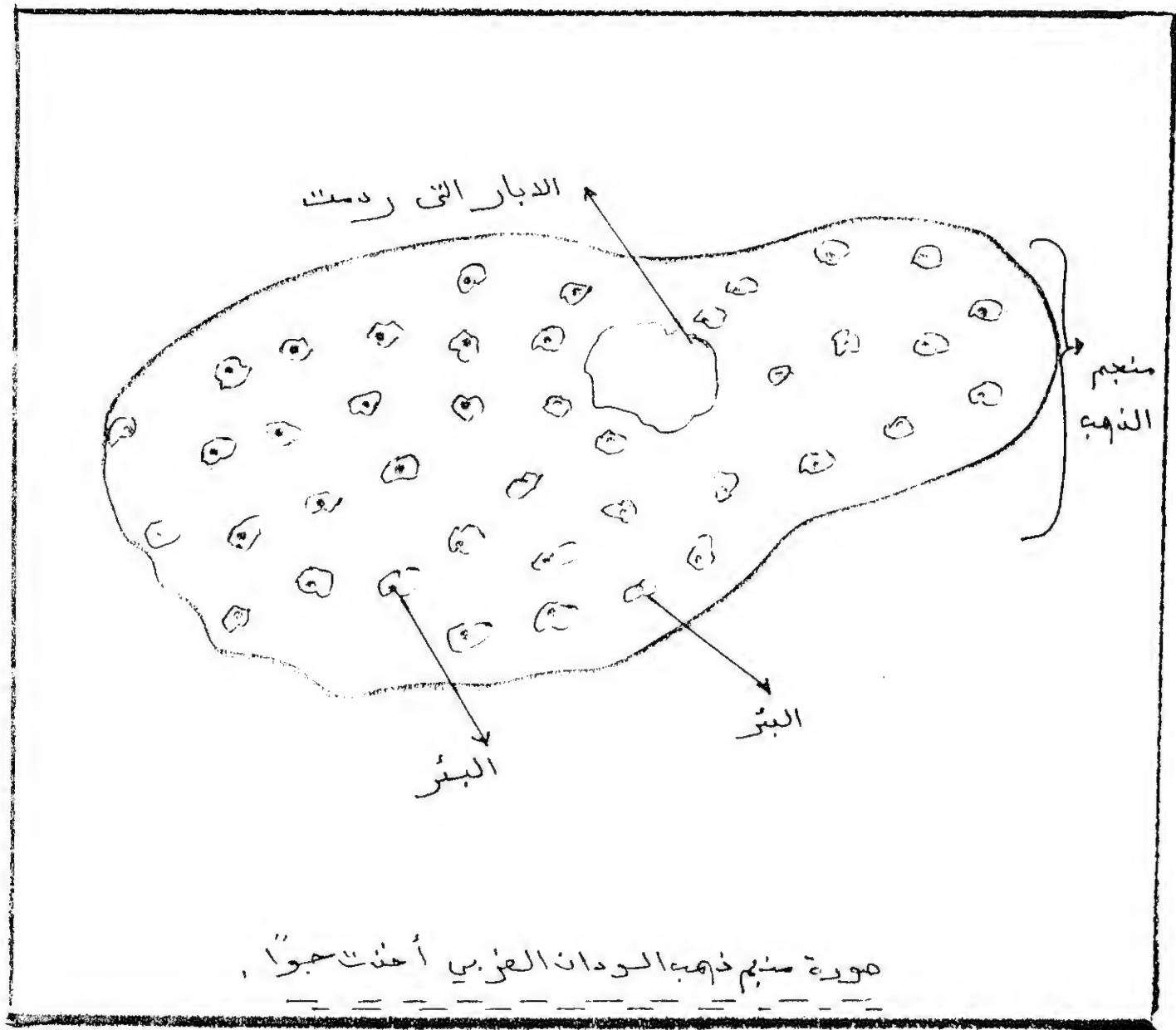
تكوين الغرين الذهبى . نقل عن :

L'aure Mayer, de Metaux précieux dans L'Art de l'Afrique
Noire . P. 18 .

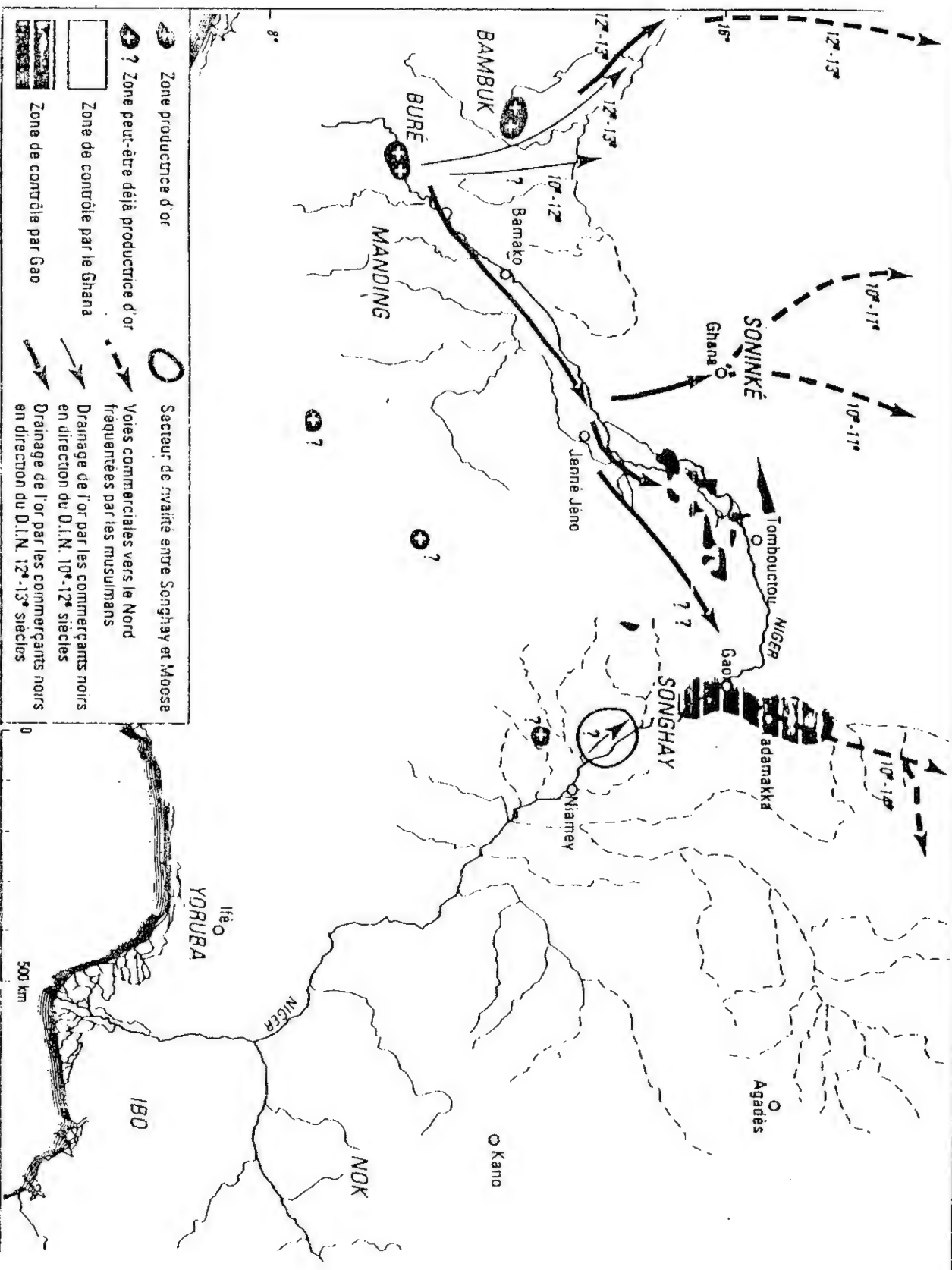


Extraction de l'or Soudanais

Maurice Lombard : Les Métaux Précieux dans l'Ancien Monde
du V^e au XI^e Siècle . P 208 .

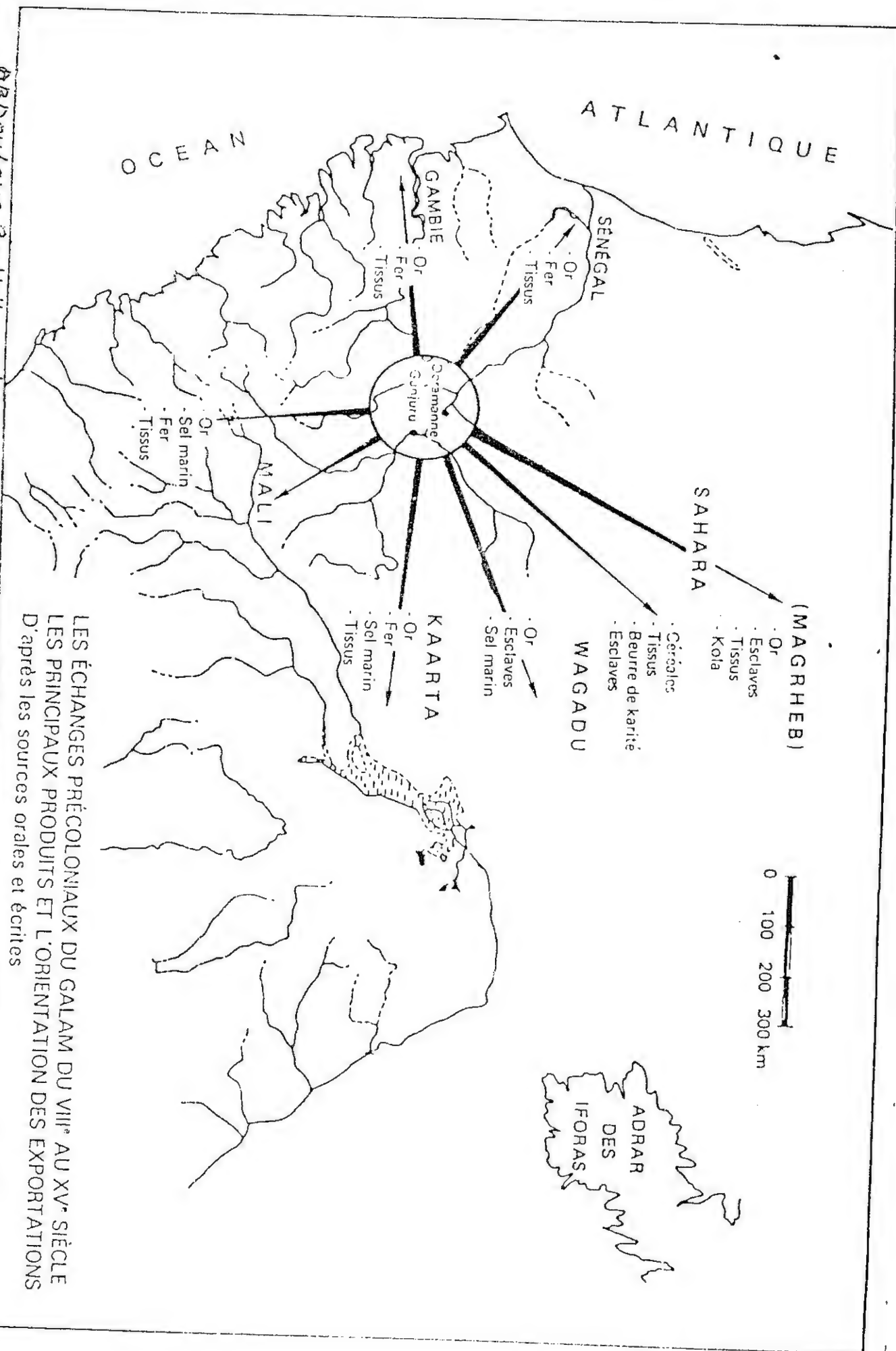


نقلا عن : Raymond Mauny : Tableau Geographique...

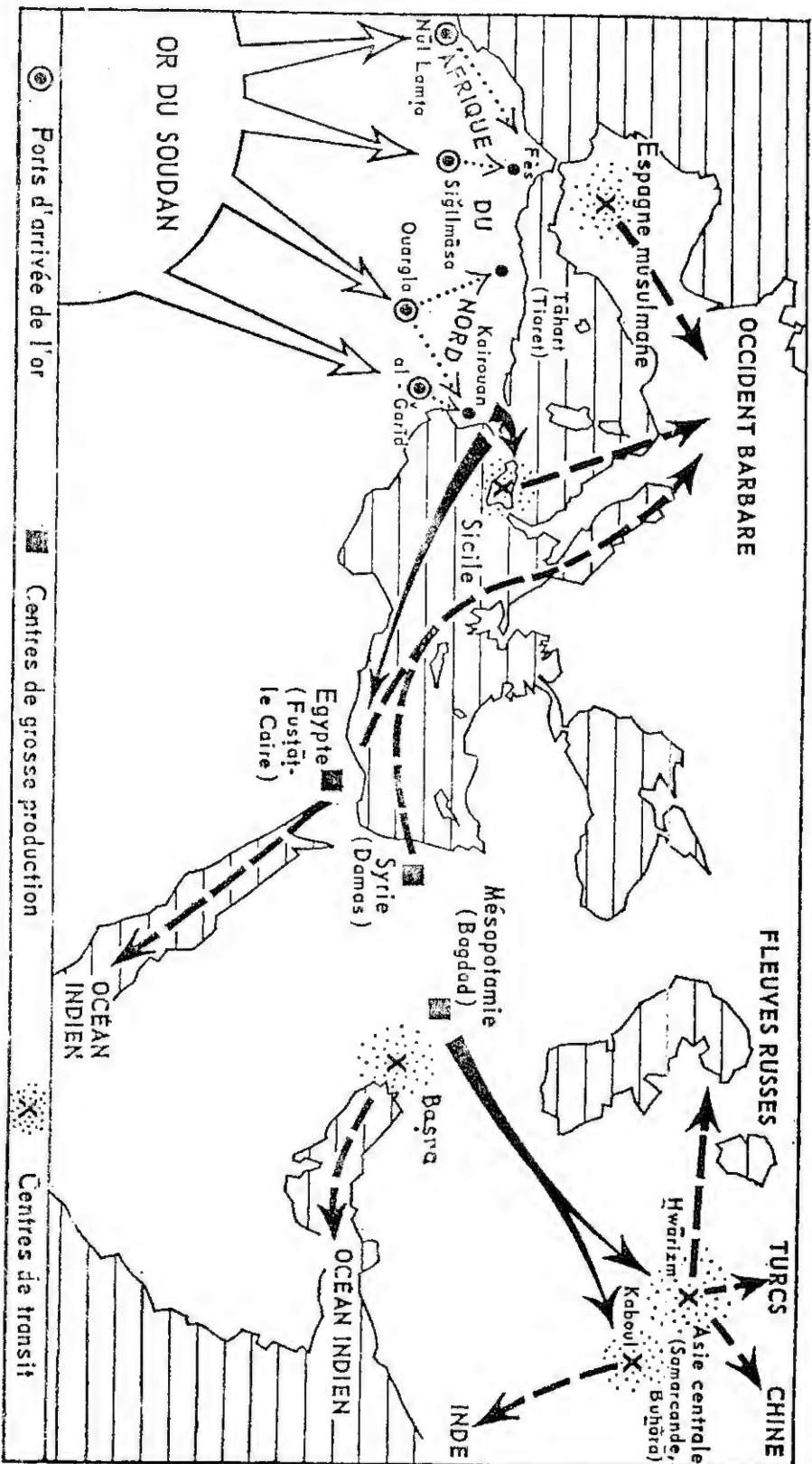


- Zone productrice d'or
- ? Zone peut-être déjà productrice d'or
- Zone de contrôle par le Ghana
- Zone de contrôle par Gao
- Secteur de rivalité entre Songhay et Moose
- Voies commerciales vers le Nord fréquentées par les musulmans
- Drainage de l'or par les commerçants noirs en direction du D.I.N. 10°-12° siècles
- Drainage de l'or par les commerçants noirs en direction du D.I.N. 12°-13° siècles

De l'usage de bassin de l'or du Niger... في إفريقيا الغربية - ص 133 -

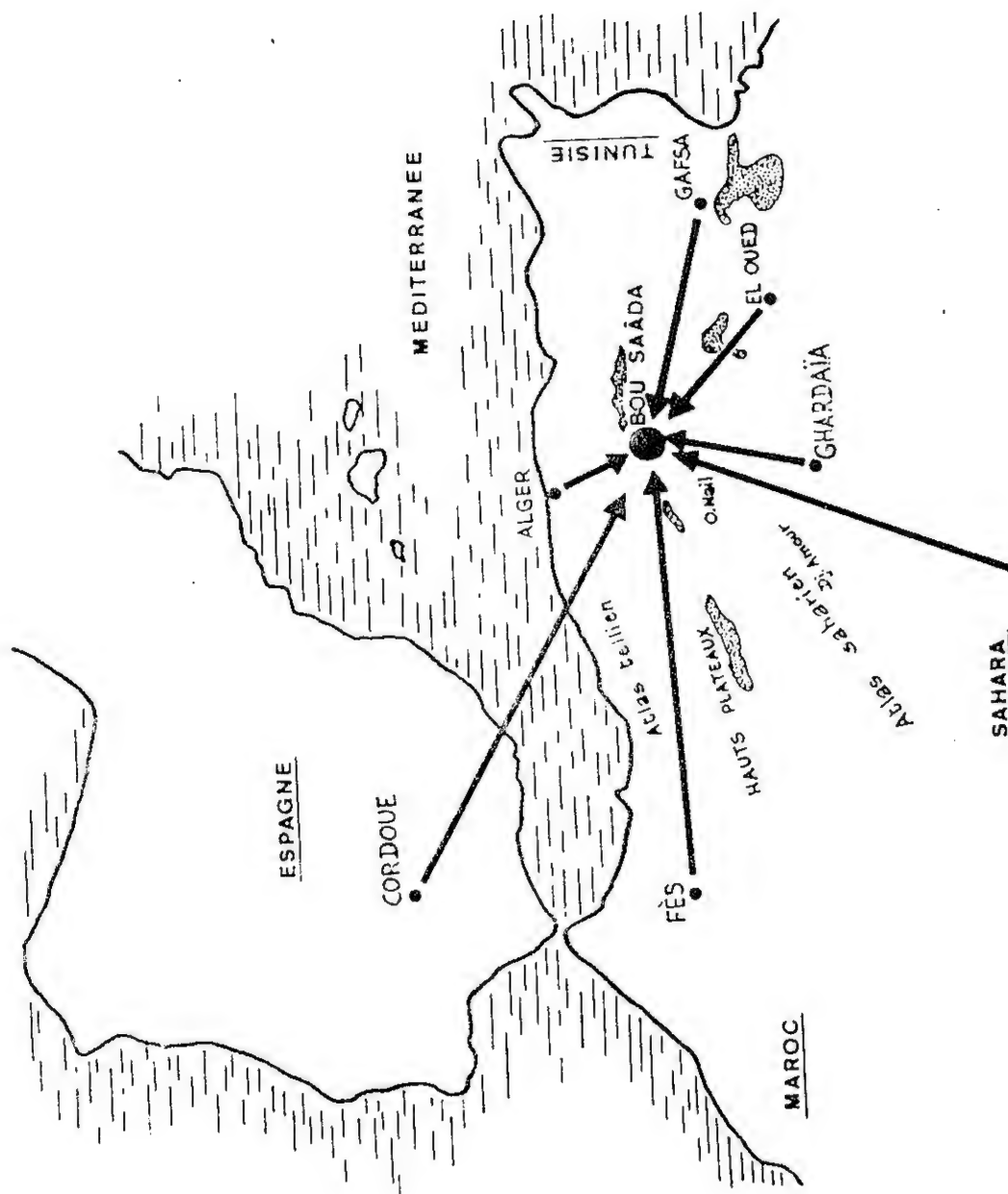


LES ÉCHANGES PRÉCOLONIAUX DU GALAM DU VIII^e AU XV^e SIÈCLE
LES PRINCIPAUX PRODUITS ET L'ORIENTATION DES EXPORTATIONS
D'après les sources orales et écrites



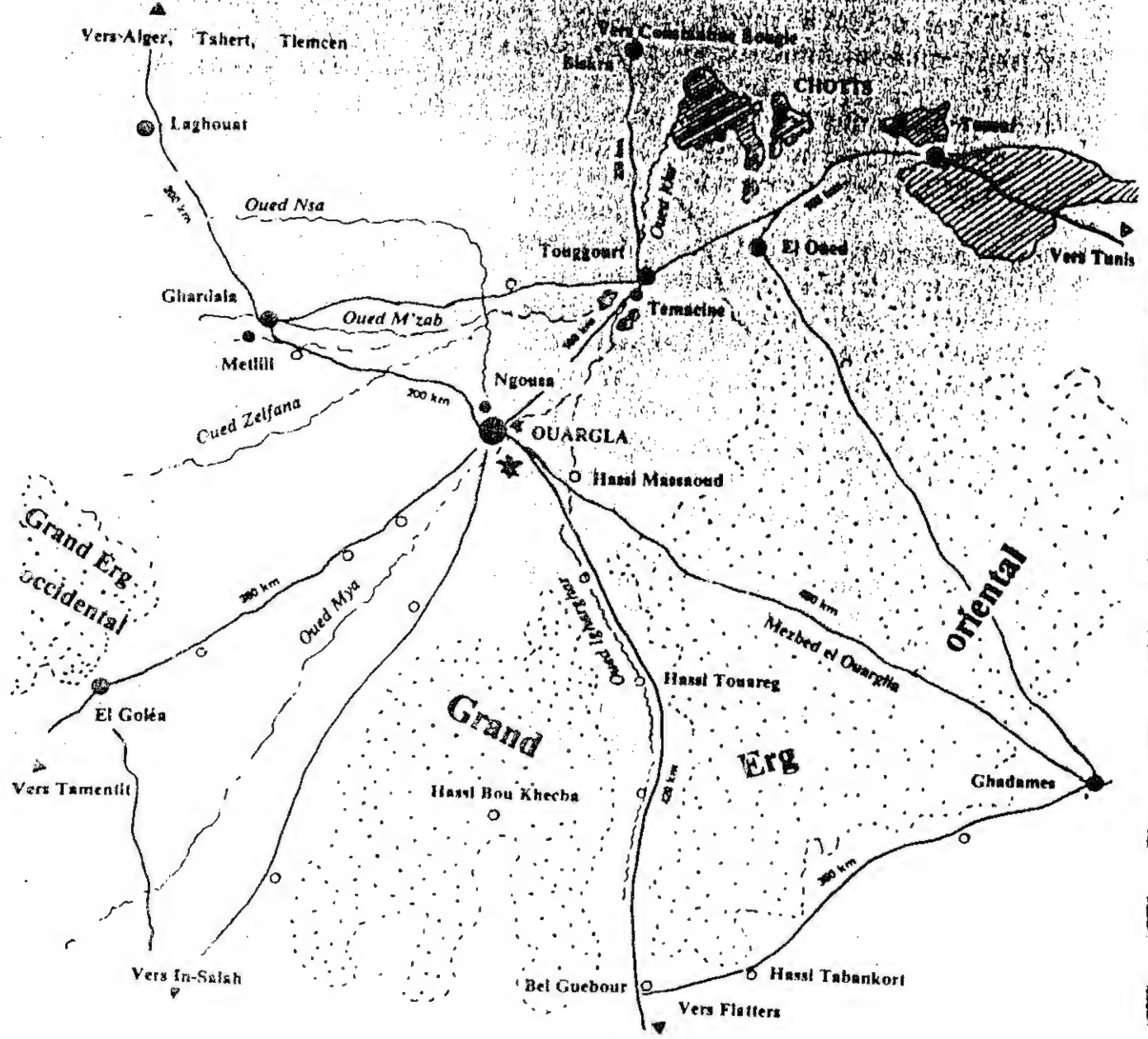
25. INNERVATION DE L'ÉCONOMIE MUSULMANE PAR L'OR DU SOUDAN

Maurice (L); Les Metaux Precieux dans l'Ancien Monde: 135



Provenance des Juifs de Bou-Saâda

Youssef Nacib; Cultures Oasiennes... P. 206. ي ن



ورقة مركز ومطبة لحالة الصحراء.

LETHAELLEUX(J): Ouargla cité saharienne. P.134 : عن

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	
أسباب اختيار الموضوع	أ-ب.....
خطة البحث و تقديم الفصول	ت.....
اسباب اختيار الفترة	د.....
إشكالية الموضوع	ر.....
تقييم المصادر و المراجع	ز.....

الفصل الأول

إقليمي المغرب و السودان الغربي

1. - التعريف البشري و الجغرافي لإقليمي المغرب و السودان الغربي	
أ. إقليم المغرب	3.....
ب. إقليم السودان	12.....
2. - عواهل دعم الاتصال بين المغرب و السودان	
أ. الصحراء	22.....
ب. الآبار	29.....
ت. الجمل	33.....
ث. التجار	40.....
ج. القافلة	49.....

3. - الفتوحات الإسلامية.

- أ. الفتح الإسلامي للمغرب..... 61
ب. الفتح الإسلامي للسودان الغربي..... 64

4. - أهم إمبراطوريات المغرب و السودان الغرب

- أ. إمبراطورية المرابطين..... 68
ب. إمبراطورية غانة..... 76

الفصل الثاني

معدن الذهب و الأهمية الاقتصادية للمغرب

1. - ذهب السودان الغربي..... 88
أ. تعريف معدن الذهب..... 88
ب. مواطن ذهب السودان الغربي..... 96
ت. طرق استخراجه..... 103

2. - التنافس المغربي على مسالك ذهب السودان 111
أ. الأغالبة..... 111
ب. الرستميون..... 113
ت. الفاطميون..... 117
ث. المرابطون 120

3. - معدن الذهب و سك النقود 123
أ. ذهب السودان و العملة المغربية..... 123

130	ب. الدينار الذهبي المغربي
137	4. - المراكز المغربية لسك النقود
139	أ. سجل ماسة
140	ب. أغمات
140	ت. تادلة
141	ث. تلمسان
141	ج. سبتة
142	ح. مراكش

الفصل الثالث

معدن الذهب و التبادل التجاري بين المغرب و السودان

146	1. - الذهب و المجتمع الإفريقي
146	أ. أهمية الذهب في المجتمع الإفريقي و السوداني عامة
152	ب. تسويق الذهب
165	2. - المبادلات التجارية بين المغرب و السودان
165	أ. الذهب يتصدر واردات المغرب
173	ب. السلع الأخرى
181	3. - مسائل تجارة الذهب
182	أ. المسلك الغربي
186	ب. المسلك الأوسط
187	ت. المسلك الشرقي

189	4. - محطات تجارة الذهب
189	أ. المدن
207	ب. القصور

الفصل الرابع

دور اليهود في تجارة الذهب

213	1. - الوجود اليهودي في المغرب و السودان
213	أ. الوجود اليهودي في المغرب
225	ب. الوجود اليهودي في السودان
230	2. - اليهود و الحياة الاقتصادية في المغرب
230	أ. النشاط الاقتصادي اليهودي في المغرب
235	ب. اليهود و تجارة الصحراء
242	3. - اليهود و تجارة الذهب
242	أ. اهتمام اليهود بمعدن الذهب
251	ب. اهتمام اليهود بتجارة الذهب
255	الخاتمة
259	ثبت بالمصادر و المراجع
275	فهرس الآيات
276	فهرس الأعلام
279	فهرس القبائل و الشعوب و الممالك
	فهرس البلدان و الأماكن
	الملاحق
	فهرس المحتويات